البـــرتـغــــالـيـــون

قبالة سواحل حضرموت

رقـم الإيـداع بـالهيئة العامـة للكتـاب م/ حضرمـوت (٢٣٦) لعــام ٢٠٢٣م

عنوان الكتاب: البرتغاليون قبالة سواحل حضرموت.

المؤلف: أنور حسن السكوتي.

الحجم: ١٧ × ٢٤ سم.

الإخراج الفني: قسم الإخراج بدار الأسعاء.

تصميم الغلاف: حُسام علي بامحسون.

التدقيق اللغوي: أ. نادية سعيد بخضر.

الناشر

دار الأسعاء للدراسات والنشر

الشحر ـ حضرموت ـ اليمن، ت ـ وتس: ٠٠٩٦٧٧٣٨٤١٠٢٧١

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

البــرتغـــاليــون

قبالة سواحل حضرموت

تأليف

أنور حسن السكوتي

الإهداء:

إلى روح والدي

حسن أحمد السكوتي

وروح أستاذي

عبدالرحمن عبدالكريم الملاحي

تغمدهما الله برحمته..

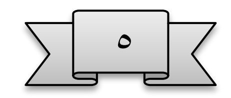
أنور

شكر وتقدير

أودُّ أن أتقدَّم بخالص الشكر وجزيل التقدير لكلِّ من ساهم معي في إنجاز هذا العمل المتواضع، وأخص بالذكر كل من **العميد الركن سعيد أحمد المحمدي** رئيس الهيئة التنفيذية بالمجلس الانتقالي الجنوبي بمحافظة حضرموت؛ والزميل **الباحث عادل حاج باعكيم** مدير دار الأسعاء للدراسات والنشر؛ و**الخال سعيد عمر باجسير**؛ وزوجتي **الغالية نادية**.

كما أودُّ أن أشكر المدير العام لمكتب وزارة الثقافة بساحل حضرموت، نائب رئيس لجنة الاحتفال بالذكرى الخمسمائة للمقاومة الشعبية ضد الغزو البرتغالي على مدينة الشحر لِما أبداه من إدارة ظهره لي ولم يبدِ حتى فضولاً لما قدمت له أمر هذا الكتاب.

أنور

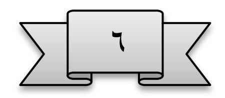


المقدِّمة

إن الحديث عن الغزو البرتغالي لمدينة الشحر في الربع الأول من القرن السادس عشر الميلادي وما اقترن في ذاكرة الناس ووجدانهم من مآثر بطولية سطرها الأجداد يكاد يكون حديث ذا شجون وذكرى عظيمة لا زال إلى اليوم احفاد اولئك الأبطال يستحضرونها ويستذكرون مآثرها ويستلهمون منها معاني الشجاعة والإقدام والاستبسال في الذود عن حياض الوطن والعقيدة.

ولعل الفضل الأكبر لمن عمق هذه الذكرى والمأثرة العظيمة في نفوس الأجيال المتأخرة، يعود إلى المؤرخ الكبير ابن الشحر (محمد عبدالقادر بامطرف) (١٣٣٤ - ١٤٠٩هـ/ ١٩١٥ – ١٩٨٨م) وكتابه الرائع (الشهداء السبعة) ففيه سطر ابرز الأحداث التي واجهتها حضرموت عامة ومدينة الشحر على وجه الخصوص أبان محاولات البرتغاليين السيطرة على سواحل وموانئ البحر العربي وخليج عدن في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي. وفيه قدم تفصيلا عميقا لأحدى ابرز المواجهات الدامية التي دارت رحاها داخل مدينة الشحر أثناء تصدي المقاومين للغزاة الطامعين وتحديدا تلك الملحمة البطولية التي وقعت أحداثها سنة ٩٢٩هـ (١٥٢٣م). وما نتج عن تلك المواجهة أو المعركة من شهداء وجرحى تجاوزوا المئات كان من أبرزهم أولئك القادة (السبعة) ممن حملوا لواء المقاومة والمواجهة المستميتة مع الغزاة في معركة غير متكافئة. ليقبروا في ضريح واحد أضحى مزارا وموضعا معظما لدى أبناء المدينة ولدى كل من يقدر تضحيات الشعوب في سبيل العقيدة والوطن.

اننا في هذا العام الميلادي (٢٠٢٣م) تهل علينا الذكرى الـ(٥٠٠) لتلك الملحمة البطولية. ووجب علينا ونحن نحتفي بذكراها اليوم أن نعيد للأذهان تلك المأثرة البطولية وما تلاها من مآثر أخر كادت تطمس وتنسى. بل ونعيد للتاريخ

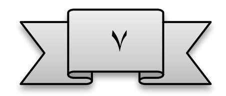


نفسه ومن خلاله بعضا مما أهمله أو أغفله من سطوره، كانت على ارتباط مباشر بالأحداث التي مرت بها حضرموت عامة بمدنها وقراها وموانئها أثناء اعتداءات البرتغاليين المتكررة عليها.

ولعل من دوافع كتابتي عن تلك الحقبة التاريخية وتحديداً (النصف الاول من القرن العاشر الهجري/حوالي النصف الاول من القرن السادس عشر الميلادي) وتسليط الضوء على اعتداءات البرتغاليين المتكررة على سواحل حضرموت. انه قد تقدم لي بعض الأخوة المهتمين بطلب إعداد (كتاب أو كتيب) عن تلك الأحداث التي مرت بها المنطقة ليتم نشره وتوزيعه في هذه الاحتفائية. وبما أنه قد سبق لي وان تناولت هذا الموضوع برمته في كتابي (المختصر في تاريخ مدينة الشحر العام، أحداث وروايات ونصوص) وبصورة مختصرة، فقد آثرت أن استعين بتلك المادة المنشورة والتوسع فيها مع إضافة الجديد لها. ونظرا لضيق الوقت الذي تطلب مني انجاز هذا العمل خلاله والذي حدد لي في فترة لا تزيد عن ٤٥ يوما فقط فقد اضطررت ان استعين ببعض ما ورد في فقرات كتابي سابق الذكر.

وعليه فلا تستغرب عزيزي القارئ إن وجدت أية تكرار في تسلسل بعض الأحداث أو ورود فقرات مستلة من كتابي المشار إليه فكليهما مصدرهما واحد. ولكن الفارق بينهما يكمن في ان حظ هذا الكتاب كان أشمل وأوسع في طرحه وأحداثه ذات الارتباط بالتواجد البرتغالي على سواحل البحر العربي بصورة عامة وحضرموت والشحر على وجه الخصوص. وغالبيتها احداث لم أتطرق لها في كتابي (المختصر) فضلاً عن إثراء الكثير من الأحداث المحلية بمواد ومعلومات جديدة لم يتطرق اليها أحد من قبل.

كما أن حظ هذا الكتاب انه نهل من مصادر ومراجع جديدة لم يكن لكتابي المشار إليه حظاً في العثور عليها أثناء إعدادي له. كما إن هذا الكتاب

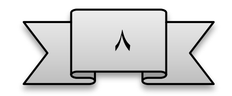


أتاح لي فرصة لتصويب أو توضيح بعض مما كتبته في المختصر. وبالتالي فهذا الكتاب لا غنى عنه من الرجوع إليه وخاصة فيما يتعلق بما كتبته مسبقا عن التواجد البرتغالي في سواحل حضرموت.

ومن الدوافع الأخرى التي دفعتني لتبني هذا البحث والشروع فيه يعود الآتي:

أولاً: إغفال أو إهمال الكثير من الكتّاب العرب والأجانب ممن تناولوا الغزو البرتغالي على سواحل شبه الجزيرة العربية، الدور الحضرمي في مواجهة ومقاومة هذا الغزو. وهم وان تطرقوا إليه في بعض الأحيان فلا يتعدى مجرد إشارات عابرة لهذا الدور.(١) ونحن قد نعزو هذا بسبب غياب المصادر الحضرمية المعاصرة لتلك

١ - من المؤلفات العربية والأجنبية التي تحدثت عن التواجد البرتغالي على السواحل العربية يمكن أن نشير على سبيل المثال لا الحصر إلى: السلمان، محمد حميد، الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج في الفترة ما بين ١٥٠٧ – ١٥٢٥م، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٠م؛ د. العيدروس، محمد حسن، سقوط الحكم البرتغالي في الجنوب العربي، دار المتنبي للطباعة والنشر، ط١، الإمارات العربية المتحدة، ١٩٩٧م؛ الشامسي، احمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني في القرن السادس عشر، مركز الدراسات والوثائق، رأس الخيمة، الإمارات العربية المتحدة، ط٢، ٢٠١٣م؛ حنظل، فالح، العرب والبرتغال في التاريخ، منشورات المجمع الثقافي، ابوظبي، الإمارات العربية المتحدة، ط١، ١٩٩٧م؛ الموسوعة البرتغالية، تاريخ البرتغاليين في الخليج، مذكرات دوارتي بربروسا، ترجمة د. عيسى أمين، من إصدارات مؤسسة الأيام للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع، المنامة، البحرين، ١٩٩٦م؛ الموسوعة البرتغالية، تاريخ الخليج والبحر الأحمر في أسفار بيدرو تيخسيرا، ترجمة، د. عيسى أمين، من إصدارات مؤسسة الأيام للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع، المنامة، البحرين، ١٩٩٦م؛ الموسوعة البرتغالية، يوم سقطت هرمز، مذكرات القائد البحري روي فيريرا اندرادي، ترجمة د. عيسى أمين، من إصدارات مؤسسة الأيام للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع، المنامة، البحرين، ١٩٩٦م؛ يوميات رحلة فاسكو داجاما، وتقرير رحلة دوز سانتوس، ترجمة ودراسة د. الشيخ، عبدالرحمن عبد الله، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥م؛ د. بوشرب، احمد، وثائق ودراسات عن الغزو البرتغالي ونتائجه، الناشر دار الأمان، الرباط، ط١، ١٩٩٧م؛ الاسطل، رياض محمود، الصراع الإسلامي البرتغالي وأثره في حركة التجارة الدولية، رسالة دكتوراة، جامعة السند، قسم الدراسات الإسلامية، باكستان؛ المعبري المليباري، احمد زين الدين، تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين، تقديم وتحقيق وتعليق محمد سعيد الطريحي، مؤسسة الوفاء، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٥م؛ الرمال، غسان علي محمد، صراع المسلمين مع البرتغاليين في



الأحداث التاريخية. إذ ان غالبية مصادرنا كانت حينها مخطوطاًت حبيسة المخازن والصناديق. أما الآن فقد بدأت مصادرنا المحلية تظهر للنور تباعاً وبدأت تتكشف الكثير من الحقائق والأحداث حيث لا مجال بعدها لأية أعذار إلا التكاسل والإهمال(١).

وللإنصاف لابد علينا من الإشارة إلى المستشرق الانجليزي (روبرت سارجنت) والذي ألف كتاب حمل عنوان (البرتغاليون على سواحل البحر العربي) THE PORTUGUESE OFF THE SOUTH ARABIAN COAST (٢) يمكن أن نعده أول مؤلف أجنبي تناول بالبحث والتدقيق وبتفصيل معمق الوجود البرتغالي على سواحل بحر العرب وحضرموت خاصة حيث أعتمد فيه المؤلف على الكثير من النصوص التي احتوتها مصادرنا المحلية وبعض مراجعنا المطبوعة.

البحر الأحمر، رسالة ماجستير، جامعة الملك عبد العزيز، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، مكة، قسم الدراسات العليا التاريخية، ١٩٨٠ – ١٩٨١م. وغيرها.

١ - من المصادر التي تطرقت للوجود البرتغالي على سواحل جنوب الجزيرة العربية نشير إلى بافقيه، محمد بن عمر، تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط١، ١٩٩٩م؛ باسنجلة، عبد الله بن محمد، تاريخ الشحر المسمى العقد الثمين الفاخر في تاريخ القرن العاشر، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط١، ٢٠٠٧م؛ ابن الديبع، عبد الرحمن بن علي، الفضل المزيد على بغية المستفيد في اخبار مدينة زبيد؛ تحقيق يوسف شلحد، مركز الدراسات والبحوث اليمني صنعاء، دار العودة بيروت، لبنان، ١٩٨٣م؛ بامخرمة، ابي محمد الطيب بن عبدالله، قلادة النحر في وفيات اعيان الدهر، عني به بو جمعه مكري، خالد زواري، دار المنهاج، لبنان، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م؛ وغيرها. أما عن المراجع فنشير: بامطرف، محمد عبد القادر، الشهداء السبعة، صدر بإشراف وزارة الثقافة والسياحة، جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية بالتعاون مع حكومة الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة، مطبعة الجمهورية، بغداد، ١٩٧٤م. ومن المراجع الحديثة نشير إلى بن معيلي، نورا سالم حسن، دور المهرة في مقاومة الغزو البرتغالي في القرن السادس عشر الميلادي مع مقدمات تاريخية لما صاحب ذلك من أحداث، مركز اللغة المهرية للدراسات والبحوث، الغيضة، المهرة، ط١، ٢٠٢٢م؛ الجدحي، سعد بن سالم، تاريخ المهرة المسمى التطواف حول تواريخ ومشاهير بلاد الاحقاف، دار المستقبل للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٣م.

٢ - سارجنت، روبرت بيرترا، THE PORTUGUESE OFF THE SOUTH ARABIAN COAST وقد عُرّبت مقتطفات منه بعنوان: سارجنت، روبرت بيرترا، البرتغاليون قبالة ساحل جنوب بلاد العرب، ترجمة محمد علي موسى، مجلة اليمن العدد ٢٦ ، ذو القعدة ١٤٢٨هـ/ نوفمبر ٢٠٠٧م، مركز البحوث والدراسات اليمنية.، جامعة عدن.

ثانياً: تشكيك البعض في الدور المقاوم الذي لعبه الأهالي فيما يتعلق بالاعتداءات البرتغالية على حضرموت ومحاولات نهب وتدمير مدينة الشحر. فضلاً عن تشكيك البعض في الروايات التاريخية التي سردها المؤرخ (محمد عبدالقادر بامطرف) عن تلك الملحمة التي خاضها الأهالي سنة ٩٢٩هـ/ ١٥٢٣م وما تمخض عنها من استشهاد وجرح الكثير من سكان المدينة وعلى رأسهم أولئك الذين عرفوا بالشهداء السبعة. وهذه سوف أتناولها بمزيد من الإيضاح عندما أتطرق إلى تلك الملحمة في الفصل الثالث.

ثالثاً: ظهور مصنفات حديثة اهتمت بترجمة ونشر العديد من الوثائق والمراسلات الأجنبية التي على ارتباط بذلك الصراع الدائر في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي من برتغالية او عثمانية وغيرها. لم نر في محتوياتهما إلا النزر القليل الذي على علاقة مباشرة بحضرموت وبدورها في ذلك الصراع. وهو لا يشفي غليل أو يعطي صور متكاملة وواضحة عن ذلك الدور الحضرمي. ولا عجب هنا من ان نجد العديد من الباحثين العرب والاجانب ممن اعتمدوا في كتاباتهم على تلك الوثائق الاجنبية يغضون الطرف عن حضرموت ودورها المقاوم لقلة تلك المواد المعتمدة. وبالتالي سقط هذا الدور الحضرمي وتم اغفاله وكأن شيئاً لم يكن. ربما لان غالبية من ترجم تلك الوثائق اهتموا في إبراز ما يرتبط ببلدانهم فقط. وهنا نجدها فرصة لكي نهيب بالباحثين والمهتمين الحضارمة لتشمير سواعدهم والاطلاع على محتويات الارشيفين البرتغالي والعثماني وترجمة كل ماله علاقة بتاريخنا.

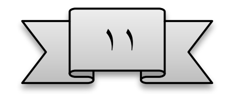
رابعاً: قلة المصنفات والمراجع (الحضرمية) التي اهتمت بالدور الحضرمي في ذلك الصراع الدائر في محيطهم إبان تلك الحقبة التاريخية وإبرازه.

وعليه سأحاول هنا الخوض في الكثير من الأحداث التاريخية المهمة التي مرت بها المنطقة عموماً وحضرموت ومدينة الشحر على وجه الخصوص وذلك بالرجوع إلى مختلف المصادر والمراجع والدراسات التي تناولت بصورة أو بأخرى تلك الاحداث والتحقق من صحتها وسلامتها ومناقشتها مناقشة علمية. والجدير بالذكر أن أهم مشكلة واجهتني تكمن في عدم اتفاق المؤرخين والباحثين في تواريخ بعض الأحداث فضلا عن تنوع الروايات. أو ربطها بالمصادر المحلية التي دونت عنها. بل وحتى المصادر المعاصرة نفسها تكاد احيانا لا تتفق فيما بينها في تواريخها او سردها لأحداثها. وهذا يعني مزيد من الجهد والعناء للتحقق من الروايات وضبط تواريخها. كما ان كل مؤرخ غالباً ينطلق من زاويته الخاصة ومن مدى إلمامه وفهمه للأحداث وتفسيرها. وعليه فقد اعتمدت على المنهج النقدي التحليلي في التعامل مع النصوص والروايات المختلفة. فضلا عن مقارنة الروايات من مصادرها وتقييمها. كما فضلت تتبع الأحداث وفقا ولسياقاتها التاريخية وتسلسلها الزمني

لأقدم للقارئ صورة واضحة وجلية عن سير الأحداث المختلفة وما ينتج عنها. كما اعتمدت على اقران التقويمين الهجري والميلادي معا لتساعدا القارئ على فهم وتتبع الأحداث ومقارنتها بمصادر ومراجع أخرى قد تعتمد احد هذين التقويمين.

وبالنسبة للفترة الزمنية للدراسة فحصرتها في النصف الاول من القرن العاشر الهجري. وهي الفترة التي شهدت فيها المنطقة عموما بدايات التواجد البرتغالي وانتشاره وبدايات انحساره ايضاً وخاصة من السواحل الحضرمية.

وقد قسمت هذا البحث على اربعة فصول، يضم كل فصل عدة فقرات ترتبط به. تناولت في الفصل الأول منه كمقدمة وتمهيد نبذة تاريخية عن



حضرموت عامة ومدينة الشحر خاصة، مع ابراز أهم الأحداث السياسية التي مرت بها المنطقة وصولا إلى القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي. ثم اتبعته بلمحة موجزة عن طبيعة دوافع وأهداف البرتغاليين وبدايات مقدمهم للمنطقة إلى حين انحساره. إلى جانب الدور الذي لعبه المماليك والعثمانيون من بعدهم في التصدي للحملات البرتغالية. أما في الفصل الثاني فتناولت فيه ابرز المواجهات العربية العثمانية مع البرتغاليين. ومحاولة ابراز الدور الحضرمي في ذلك الصراع والذي تعرض لتجاهل وإغفال من قبل الباحثين ومناقشة ذلك.

أما في الفصل الثالث فتناولت فيه ابرز الأحداث والمواجهات التي دارت رحاها قبالة سواحل حضرموت وداخل مدينة الشحر خاصة. مع إبراز الدور البطولي المقاوم للأهالي وللسلطان بدر بن عبدالله الكثيري ومن معه من قيادات وشخصيات ساهمت بشكل أو بآخر في التصدي لاعتداءات البرتغاليين المتكررة. مع ابراز العلاقة التي ربطت بين حكام حضرموت والبرتغاليين بعد اعتدائهم الاول على مدينة الشحر.

أما الفصل الرابع والاخير فتناولت فيه بدايات التواجد العثماني على السواحل الحضرمية وكيف ساهم على تغير سياسة حكام حضرموت وعزز من موقفهم في التعامل مع البرتغاليين. وكيف ان ذلك الصراع بوجودهم تحول من الدفاع إلى الهجوم.

وعليه أرجو من الله أن يوفقني فيما طرحت وان أقدم كل ما من شأنه أن يساهم في تعزيز الدور المقاوم الذي لعبه الحضارمة عامة وأهالي مدينة الشحر خاصة في تصديهم للبرتغاليين. وان يكون هذا البحث كالشمعة المضيئة لتنير الطريق عن حقبة تاريخية مرت بها المنطقة غفل عنها الكثير من المؤرخين والباحثين العرب ممن تناولوا الوجود البرتغالي بالمحيط الهندي. وليكون نبراسا

ومعينا لكل المشككين والمرتابين من الدور الشعبي أو الحكومي الحضرمي في مقاومة المعتدين البرتغاليين.

وليكون اضافة جديدة لمكتباتنا المحلية التي تكاد تندر فيها مثل هذه الكتابات الخاصة. هذا فأن أصبت فبتوفيق من الله وان أخطأت فمني ومن الشيطان.

الباحث/ أنور حسن السكوتي

١ / ٢/ ٢٠٢٣م

الفصل الأول

موجز عن تاريخ حضرموت

حتى القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي

والبدايات الأولى للظهور البرتغالي والعثماني بالمنطقة

نبذة موجزة عن تاريخ حضرموت[١]

أعتبر بعض المؤرخين إن هذه الرقعة الجغرافية الواقعة على الجنوب من شبه الجزيرة العربية بين خطي طول ٤٧ ، ٥٣ شرقا ، وخطي عرض ١٥ ، ١٩ شمالا.(٢) والتي حملت أسم حضرموت، واقعة ضمن ما كان يعرف ببلاد الأحقاف المذكورة في القرآن الكريم. وان هؤلاء الحضارمة هم من نسل أقوام عاد ، وفي اسلافهم كانت رسالة النبي هود عليه السلام. في حين اعتبرت التوراة ان حضرموت احد أبناء قحطان أو يقطن.(٣)

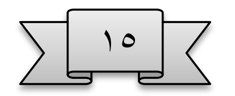
وحقيقة الأمر فأن سكان حضرموت اليوم هم خليط من قبائل عربية شتى قحطانية وعدنانية فضلا عن قلة قليلة جدا من ذوي أصول افريقية ومالاوية. وأيا يكن فهذه الأرض امتازت بعراقتها وأصالتها وأدوارها التاريخية. وحضرموت اليوم تعتبر محافظة يمنية يحدها من جهة الشرق محافظة المهرة ومن الغرب

---

١ - للمزيد عن حضرموت وتاريخها يمكن الرجوع إلى: الكاف، سقاف علي، حضرموت عبر أربعة عشر قرنا، مكتبة أسامة، بيروت، ط١، ١٩٩٠م؛ بافقيه، محمد عبد القادر، تاريخ اليمن القديم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٨٥م؛ بامطرف، محمد عبد القادر، المختصر في تاريخ حضرموت العام، دار حضرموت للدراسات والنشر، المكلا، الجمهورية اليمنية، ٢٠٠١م؛ د. فرانتسوزوف، سرجيس، تاريخ حضرموت الإجتماعي والسياسي قبيل الإسلام وبعده، تقديم وتعريب د. عبد العزيز جعفر بن عقيل، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية، صنعاء، ط١، ٢٠٠٤م؛ الحداد، علوي بن طاهر، الشامل في تاريخ حضرموت ومخاليفها، طبع بسنغافورا عام ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م.البكري، صلاح، تاريخ حضرموت السياسي، ٢ اجزاء، مطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده، مصر، ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م؛ الشاطري، محمد أحمد، ادوار التاريخ الحضرمي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٨٣م.

٢ - الجعيدي، عبد الله سعيد، الأوضاع الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية في حضرموت، دار الوفاق للدراسات والنشر، عدن، الجمهورية اليمنية، ط١، ٢٠١٠م، ص١٤.

٣ - للمزيد باوزير، سعيد عوض، صفحات من التاريخ الحضرمي، دار الوفاق للدراسات والنشر، الجمهورية اليمنية، عدن، ٢٠١٢م ص١٥-١٨.



محافظة شبوة، اما من جهة الشمال فالمملكة العربية السعودية ومن الجنوب البحر العربي والمحيط الهندي.(١)

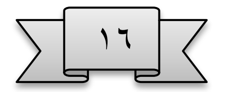
أما تاريخيا فتعد حضرموت أحد الممالك القديمة المستقلة الذي ظهرت في جنوب شبه الجزيرة العربية إلى جانب ممالك اليمن كمعين وسبأ وقتبان واوسان وأخيرا حمير. وهي ممالك متجاورة متفاوتة الظهور دخلت معهن حضرموت في علاقات متأرجحة متقلبة ما بين (صداقة، تعاون، تحالف، اتحاد) كما هو في علاقتها مع مملكة معين في فترات تاريخية معينة. وما بين (تنافس، عداء، حروب) وهذا واضح في علاقتها مع مملكة سبأ اليمنية ووريثتها حمير. إلا ان أهم ماميز حضرموت عن غيرها من تلك الممالك انها احتفظت باسمها التاريخي وبرقعتها الجغرافية منذ أن كانت إلى اليوم. وان كانت هذه الرقعة الجغرافية تارة تتسع على حساب غيرها ممن في الجوار وتارة أخرى تضيق وفقا ولما تفرزه الصراعات والحروب بين كل تلك الممالك المتجاورة.

وقد عدّ بعض المؤرخين بدايات هذه المملكة تعود إلى سنة ١٠٢٠ ق: م. وانتهت عام ٦٥ بعد الميلاد.(٢) وكانت عاصمتها الأولى ميفع ثم انتقلت العاصمة إلى مدينة شبوة القريبة من ميناء قنا الشهير.

وكانت نهاية المملكة الحضرمية بسيطرة الحميريين على أراضيها وضمها ضمن ما يعرف بـ(مملكة سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنة واعرابهم) لتدخل لاحقا ضمن نفوذ الحكم الحبشي فالفارسي الذي حكم اليمن عامة وكان هذا قبيل الإسلام. ومع ظهور الإسلام كان يتقاسم الأرض الحضرمية

---

١ - للمزيد عن حدود حضرموت وجغرافيتها انظر الكاف، سقاف علي، حضرموت عبر أربعة عشر قرنا، مرجع سابق ص١١-٢٥؛ الجعيدي، الاوضاع الاجتماعية، مرجع سابق ص١٤-١٥.
٢ - بامطرف، محمد عبد القادر، المختصر في تاريخ حضرموت، مرجع سابق ص١٨.



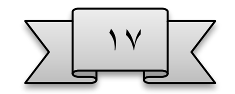
أولئك الذين عرفوا بالملوك العباهلة ومنهم (وائل بن حجر الحضرمي).(١) وإلى جانبهم تقاسم الأرض ملوك من قبيلة كندة وعلى رأسهم (الأشعث بن قيس الكندي)(٢) ويرى البعض ان الحضارمة دخلوا في الإسلام بصورة جماعية في السنة التاسعة للهجرة وقد تطرقت كتب السير بالكثير من التفاصيل عن وفود قبائلهم للرسول صلى الله عليه وسلم وإشهار إسلامهم بحضرته من قبيلة كندة وحضرموت ومهرة والجعف وغيرهم.

وبوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم اتهمت بعض القبائل الحضرمية بارتدادها عن الدين الإسلامي بعد رفضها دفع الزكاة. فأرسل إليها الخليفة (أبوبكر الصديق) الجيوش لقمعها لتعود بعدها إلى حظيرة الإسلام. وقد لعب أبناؤها بعد ذلك دورا كبيرا ومشرفا فيما عرف بحركة الفتوحات الإسلامية والتي شملت فتح العراق وبلاد فارس وما وراء النهر، وكذلك بلاد الشام ومصر والمغرب العربي وبلاد الأندلس(٣).

ومن الواضح انه وبعد القضاء على الردة، انصرفت أعين المؤرخين عن هذا الصقع النائي. فلم يلتفتوا إليه(٤) واستمر هذا التجاهل إلى ان برزت حركة الإمام (عبدالله بن يحيى الكندي) الملقب بـ(طالب الحق) واتخاذه من حضرموت ساحة للتحشيد ضد الدولة الأموية ولنشر المذهب الاباضي بين صفوف الناس(٥).

---

١ - ترجمته، باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي، مرجع سابق، ص٤١ – ٤٧.
٢ - ترجمته، المرجع السابق ص ٤٨- ٦٥.
٣ - للمزيد انظر السكوتي، أنور حسن، المختصر في تاريخ مدينة الشحر العام، مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر، توزيع دار الوفاق للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية ط١، ٢٠٢١م ص١١٣- ١١٩.
٤ - للمزيد المرجع السابق ص١٢١- ١٢٧.
٥ - انظر ايضا الكاف، حضرموت عبر اربعة عشر قرنا، مرجع سابق ص٣٨- ٤١. باوزير، صفحات ص٦٧- ٧٧.



وما ان أخمدت هذه الحركة حتى عادت حضرموت إلى أحضان الدولة الأموية فالعباسية من بعدها. إلا ان تمرد الحضارمة على دولة الخلافة العباسية واتجاههم نحو اباضية عمان مجدداً، دفع ذلك والي اليمن للعباسيين (معن بن زائدة الشيباني) للقدوم بنفسه على رأس جيش جرار لإجبارها على الخضوع. وتم له ذلك بعد ان أثخن القتل في الحضارمة وألبسهم السواد(١).

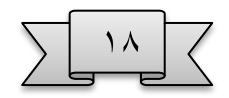
وعلى ما يبدو ان حضرموت حل بها ما حل بعموم مناطق اليمن من تفكك وظهور دويلات مستقلة عن الدولة العباسية، وتنازع هذه الدويلات فيما بينها لبسط النفوذ والسيطرة ذلك ان صفحات التاريخ تكاد تكون معتمة ولا تقدم لنا الكثير عما جرى في حضرموت من أحداث. إلا ان ابرز الأحداث اللاحقة تمثل في مقدم الإمام (أحمد بن عيسى المهاجر) جد العلويين الحضارمة سنة (٣١٨هـ/ ٩٣٠م)(٢) وما رافقته من أحداث مختلفة كان لأحفاده من بعده الدور الأبرز في تدوينها وتدوين ما تلاها من أحداث. ومع بداية القرن الخامس الهجري كانت تتقاسم حضرموت ثلاث إمارات تتنازع الأرض بينها وتثير الفرقة والانقسام بين ابنائها وهي إمارة آل راشد ومركزها تريم، وآل الدغار ومركزها شبام وال اقبال ومركزها الشحر(٣).

---

١ - للتفصيل انظر السكوتي، المختصر ص١٢٨- ١٣٠.

٢ - عنه انظر باوزير، صفحات ص٧٨- ٨٨؛ الشاطري، ادوار التاريخ الحضرمي (١/١٥٨)؛ البكري، صلاح، تاريخ حضرموت السياسي (١/٩٨) وفيه ان مقدمه كان سنة ٣١٧هـ ؛ وعنه ايضا انظر السكوتي، المختصر ص١٣٨.

٣ - للتفصيل، الكاف، سقاف علي، حضرموت ص٤٤- ٤٩؛ الجعيدي، د. عبد الله سعيد، السلطنة الكثيرية الأولى في حضرموت، تريم للدراسات والنشر، الجمهورية اليمنية، ط١، ٢٠١٤م، ص٢٠ وما بعدها.



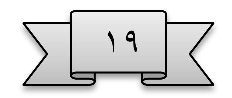
وهذه الدويلات الثلاث لم تقو على الصمود والمقاومة عندما هاجمها (عثمان الزنجيلي) وجيشه من الغز فدانت هذه الإمارات الثلاث بالولاء والطاعة للدولة الأيوبية. ولكن سرعان ما تمردت لتنشغل بصراعاتها الداخلية.

وخلال هذه الفترات التاريخية التي عصفت بحضرموت وأقلقت سكينتها ، نجد ان قبائل أخرى دخلت حلبة الصراع والتنافس على السيطرة منها قبائل نهد وآل يماني وآل الحبوضي وآل كثير(١). ولهؤلاء الأخيرين صفت حضرموت لاحقا. وقد كان اول ظهور عسكري لهم كنواب وجنود تابعين لسلطان ظفار (سالم بن إدريس الحبوضي). (ت: ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م) والذي حاول هذا بسط نفوده على حضرموت أما بشراء المدن والقرى والحصون. واما بكسب الولاءات والتحريض(٢). وهذا ما فعله مع حكام إمارة الشحر وتحديدا مع الأمير (راشد بن شجعنه) وحثه وتشجيعه للتمرد على الدولة الرسولية التي ورثت الأيوبيين على حكم اليمن. وكانت الشحر حينذاك تدين بالولاء والطاعة الاسمية للرسوليين(٣).

وبطبيعة الحال فأن استفزازات الحبوضي المتكررة للرسوليين ومحاولة ضرب اقتصادهم، دفع ذلك بالرسوليين لأن سيروا جيوشا جرارة للقضاء على تمرد حاكم الشحر وللقضاء ايضا على استفزازات الحبوضي بل وقتله والاستيلاء على بلدته ظفار. وهذا ما تحقق لهم. لتخضع لسلطتهم ظفار وحضرموت معا.

---

١ - انظر الجعيدي، السلطنة الكثيرية الاولى في حضرموت، مرجع سابق ص٢٢.
٢ - المرجع السابق ص٣٣.
٣ - للمزيد انظر السكوتي، المختصر ص١٦٢- ١٦٦.

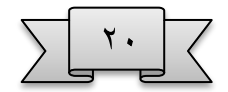


وعلى ما يبدو أن الرسوليين لم يحسنوا إدارة حضرموت أو إحكام السيطرة عليها على الرغم من كثرة الولاة التابعين لهم وكثرة القوات التي تساندهم اذ سرعان ما عادت التمردات والصراعات القبلية تعصف بالمنطقة. وفي هذه الفترة بدأ يلمع أكثر نجم قبيلة آل كثير التي نافست الرسوليين على حكم ظفار نفسها بل ونافست القبائل الحضرمية الأخرى للسيطرة على حضرموت.

وما ان انتصف القرن التاسع الهجري، حتى اصبحت حضرموت تتازعها ثلاث قوى قوتان في الداخل الحضرمي وهي آل كثير وآل يماني وقد بدأ الجو يصفو أكثر للأولى. اما القوة الثالثة في الساحل حيث سلطنة آل ابي دجانة المسيطرة على الشحر وحيريج وأجزاء من المهرة. وهي قوة لا يستهان بها لثرائها وامتلاكها اساطيل بحرية وبسبب بسالة رجالها. فبعد ان تمت لآل كثير السيطرة على ساحل ظفار بدأوا يتطلعون للسيطرة على مدينة الشحر. لتدور اشتباكات ومعارك بين القوتين تأرجحت فيها كفف النصر.

وقد مهد هذا الصراع الداخلي بين القوتين الحضرميتين للطاهريين الذين ورثوا حكم الرسوليين على سواحل اليمن لأن يتمددوا للساحل الحضرمي ويسيطروا على عاصمته (الشحر). إلا أن نزاعات آل أبي دجانة معهم فضلا عن الاضطرابات الداخلية التي عصفت بالطاهريين أنفسهم في مناطقهم وخاصة مع الزيود. دفعت بهذه الأخيرة لأن تنسحب من الساحل الحضرمي ومركزه (مدينة الشحر) لتسلم زمام الأمور لآل كثير. ليستمر الصراع بين القوتين (آل كثير، آل ابي دجانة) للسيطرة على الساحل الحضرمي ومدينة الشحر خاصة في معارك كانت بينهما سجال.

ومع بداية القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي نجد ان الساحل الحضرمي يكاد يصفو لآل كثير بعد هزيمة آل ابي دجانة وطردهم من مدينة



الشحر(١). ومن ثم القضاء وبصورة نهائية على معقلهم في (حيريج) من بلاد المشقاص.(٢)

وهكذا يمكن القول انه مع بداية القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي وهي الفترة التي بدأت طلائع الأساطيل البرتغالية تظهر بالمنطقة. كانت حضرموت شبه خاضعة لدولة آل كثير والتي امتدت حدودها الشرقية إلى ظفار عمان. صحيح قد تكون في تلك الفترة صراعات آل كثير مع القبائل الحضرمية الأخرى التي تتطلع للسيادة والحكم لا زالت مستمرة كتلك الصراعات مع آل العمودي على سبيل المثال(٣)، إلا انها لم ترق للصراعات بين دولتين أو قوتين بمعنى الكلمة. فغالبية القبائل المنافسة انما شكلت لنفسها دويلات صغيرة لا تتعدى المدينة الواحدة أو المدينتين، سرعان ما يجهز عليها آل كثير تحت ذريعة قبائل متمردة على الدولة. أو على الأقل تحجّيم مناطق سيطرتها ونفوذها.

وحتى في هذه الفترة (القرن العاشر الهجري) التي قلنا أنها صفت لآل كثير أو تكاد، نجد ان صراعاتهم ونزاعاتهم العشائرية فيما بينهم لا تتوقف(٤). ومثلها النزاعات الناشئة بين افراد الأسرة الحاكمة نفسها. كصراع السلطانين محمد وبدر ابناء السلطان عبدالله بن جعفر الكثيري، مع ابن عمهم الأمير علي بن عمر الكثيري(٥) المسيطر على شبام. وما تلاها لاحقاً من تحالفات معه

---

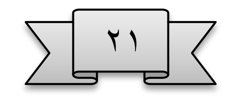
١ - آخر سلاطين آل ابي دجانة في الشحر هو سعد بن مبارك بن فارس بادجانة. وقد تمكن السلطان جعفر بن عبدالله بن عمر الكثيري من طرده منها والسيطرة عليها حوالي سنة ٩٠٠هـ/١٤٩٤م. وقد توفي السلطان جعفر سنة ٩٠٥هـ/١٤٩٩م فاستلم الحكم بعده ابنه السلطان عبد الله بن جعفر والد السلطانين محمد وبدر. توفي السلطان عبدالله سنة ٩١٠هـ/١٥٠٤م ودفن بمقبرة الشيخ سعد الشهيرة بحارة المجرف بمدينة الشحر.

٢ - للتفصيل انظر الجعيدي، السلطنة الكثيرية الاولى ص٤٥- ٥١.

٣ - عن هذه الدولة انظر بامطرف، المختصر في تاريخ حضرموت العام ص٩٧ – ١٠٢.

٤ - للتفصيل الجعيدي، السلطنة الكثيرية الاولى ص٤١-٤٣.

٥ - انظر ترجمته، بن هاشم، تاريخ الدولة الكثيرية (٥٤/١-٥٧).



وخاصة بعد اعلان السلطان بدر انضمامه للدولة العثمانية، ليصبح الامير علي من اكابر قادته ومن ثم تمرده مجدداً فاعتقاله. وكذلك قيام السلطان بدر بالتنكيل ببعض رجال التصوف وخاصة مع اولئك المحرضين أو المناوئين لسلطته واتجاهه نحو العثمانية(١). فأفعالهم تلك تغاير النظرة التقليدية السائدة حول انزواء رجال التصوف عامة في زواياهم وبعدهم عن الامور السياسية.

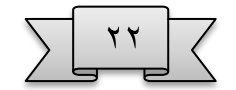
وكذلك الصراع بين الأخوين محمد وبدر الملقب بـ(أبي طويرق) أبناء السلطان عبد الله الكثيري، وما تمخض عن صراعهم من اقتسام مناطق السلطة بينهما لتصفو ظفار وأجزاء من حضرموت للسلطان محمد وساحل حضرموت وأجزاء من الوادي لأخيه السلطان بدر أبي طويرق. وهذا التقسيم (العرفي) لم ينهِ صراعاتهم لتطلع كلا منهما لما في يد أخيه وتدخلهما في سياسات بعضهما والتي لم يعجب بها الآخر. والسلطان محمد على الرغم من تنازله الحكم لأخيه الأصغر بدرا سنة ٩٢٧هـ/ ١٥٢١م الا ان تدخلاته في سياسة اخيه اعاقت كثيراً طموحات وآمال هذا الاخ ولم تنتهِ إلا بعد أن اعتقله ليموت في دار اقامته.

ولكن أجمالا يمكن ان نقول أن صاحب الكلمة النافذة والأمر المطلق في حضرموت لمدة نصف قرن (وهي الفترة التي شهدت فيها تواجد البرتغاليين قبالة حضرموت) تكاد تكون للسلطان بدر بن عبدالله الكثيري (أبي طويرق).

وقد عمل السلطان بدر خلال فترة حكمه على تعزيز سلطته وقوته في حضرموت من خلال القضاء على أية تمردات قبلية تظهر هنا أو هناك فضلا عن عقد تحالفات مع بعض القبائل الحضرمية لدعم سلطته وسيطرته. ومثله كان يحاول اخوه محمد.

---

١ - انظر تاريخ الدولة الكثيرية (١/٤٩-٥٢). ايفانوف، الفتح العثماني ص١٣٦



كما حاول تحديث جيشه بالاستعانة بجنود مرتزقة جلبهم من اليمن وأفريقيا ومن المماليك الجراكسة بعد انهيار دولتهم في مصر. فضلا عن استنجاده بالباب العالي (الدولة العثمانية) لتمده بالأسلحة والمدافع القادرة على التصدي لأية اعتداءات برتغالية.

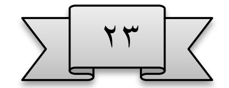
وقد استفاد هذا السلطان لاحقاً من القوة الصغيرة التي مدت له من قبل الدولة العثمانية في القضاء على التمردات القبلية وعلى المنافسين لحكمه. لتخضع له في النهاية معظم مدن وقرى حضرموت بل ويمتد سلطانه الى ما يجاور حضرموت. وكان غالبية جنود تلك القوة التي سخرها لتثبيت حكمه وسلطته هم ممن يحملون البنادق الرومية (ابو فتيلة) وهو سلاح فتاك لم يعهده الحضارمة من قبل. وكان اول ظهوره بحضرموت سنة ٩٢٦هـ/ ١٥١٩م.(١)

وفي عهد هذا السلطان الفتي بدأت طلائع الأساطيل البرتغالية ترتاد الشواطئ الحضرمية وتقوم باعتداءات مستمرة وقرصنة دائمة على السفن والقرى الساحلية. بل وتجرأت تلك الأساطيل لاحقاً واصبحت تمارس قرصنتها قبالة شواطئ مدينة الشحر نفسها. بل وداخلها أيضاً.

وكان على السلطان بدر ان يتعامل مع هذا التواجد البرتغالي بالكثير من الحذر والحكمة حتى لا تصبح مدنه وقراه لقمة سائغة لهذا العدو المتفوق عليه تقنيا وعسكرياً. فكان ان دخل مع البرتغاليين في علاقات جزر ومد هي اقرب للمراوغة والمهادنة منها للصداقة والتعاون. وكان الأمل يحدوه في ان تنقده من براثن هذا الغول الشرس تلك الحملة العثمانية التي أعدت في السويس وتأخر موعد وصولها بسبب تورطها في مشاكل اليمن.

---

١ - بن حميد الكندي، سالم محمد، العدة المفيدة الجامعة لتواريخ قديمة وحديثه، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الارشاد، صنعاء، ط١، ٢٠٠٣م. (١٦٣/١).



وعلى الرغم من تلك العلاقة المفترضة (أشبه بالصداقة) مع البرتغاليين إلا أن السفن الحضرمية والعربية لم تسلم من التحرش البرتغالي أو من الاعتداء عليها ونهبها تحت مبررات واهية منها الزعم بان هناك قراصنة مفترضين هم من يقوموا بتلك الاعتداءات وليس هم (البرتغاليون) كجيش نظامي في محاولة التملص من جرائمهم. أو أن هذه السفن المصادرة لا تحمل تصريحات خاصة من قبلهم أو أن حمولتها تحمل ما يشكل تهديد لهم وهذا ما سنبينه بالتفصيل في الفقرات اللاحقة. ولعل أكثر المواجهات الدامية التي وقعت بين السلطان بدر والبرتغاليين ودارت رحاها داخل مدينة الشحر أو على الساحل هي التي حدثت سنة ٩٢٩هـ/ ١٥٢٣م، والثانية سنة ٩٣٨هـ/ ١٥٣٢م والثالثة ٩٤٢هـ/ ١٥٣٦م. وسنأتي لها لاحقا.

ان جبهة السلطان بدر في مواجهته ضد البرتغاليين لم تتعزز وتقوى إلا بعد وصول الحملات العثمانية للمنطقة، ودخول حضرموت رسميا في طاعة بني عثمان سنة ٩٤٤هـ/ ١٥٣٧م.

فتلك الحملات العثمانية مع ما كان يسبقها من دعاية إعلامية كبيرة أسهمت في زعزعة ثقة البرتغاليين بأنفسهم وبقوتهم وأصبحوا أكثر ميلا للصلح والسلام والمهادنة مع السلطنة الكثيرية في حضرموت. وهذا ما سوف نتطرق له بالتفصيل في الفصلين الثالث والرابع.

دوافع وأهداف البرتغاليين ومقدمهم للمنطقة

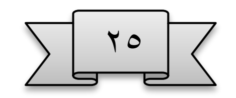
مع بداية القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي أصبحت مياه البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية خالصة وخاصة بعد اندحار الصليبيين من ثغور مصر وبلاد الشام وطردهم أيضاً من جزيرة قبرص بعد تدمير أسطولهم البحري في عهد السلطان المملوكي (الاشرف برسباي)(١) كما ان وصول الأساطيل العثمانية إلى تلك المياه كقوة بحرية ناشئة ساعد أيضاً على تعزيز السيطرة الإسلامية على تلك المياه. وهذا يعني ان جل اقتصاد أوربا الذي يعتمد على التداول السلعي بين بلدان حوض البحر الأبيض قد أصبح في قبضة المسلمين وخاصة مصر المسيطرة على طريق التجارة البحري القادم من بلدان جنوب أسيا عبر البحر الأحمر.

وقد دخلت مصر (المماليك) في علاقات تجارية متبادلة وخاصة مع مدن جنوب ايطاليا (البندقية، جنوة، فلورنسا، بيزا) لتصبح هذه المدن الوسيط الأوربي المحتكر لتجارة الشرق مع أوربا. وكانت تجارة التوابل القادمة من الهند و جنوب شرق أسيا هي الأكثر رواجاً والأكثر ربحاً استفاد منها المماليك والايطاليون معا. خاصة وان التوابل تعد الأكثر طلبا واحتياجا في أوربا. فالأوربيون بحاجة لتوابل الشرق لمأكولاتهم وهم بحاجة للفلفل والقرنفل والكافور والأفيون في صناعة أدويتهم وعلاجاتهم وبحاجة للمر واللبان والبخور في طقوسهم الكنائسية.(٢) وهذه السلع تباع في اسواقهم بأسعار باهظة الثمن. ومثلها سلع أخرى تجلب من إفريقيا كالتبر والصوف والجلود والعبيد. الأمر الذي

---

١ - للمزيد انظر دراج، احمد، المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦١م، ص٣١ وما بعدها.

٢ - هول، امبراطوريات الرياح الموسمية ص١٥٧.

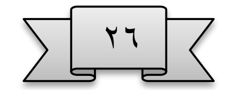


أثار حفيظة معظم الدول الأوربية التي لازالت آثار وأحقاد الحروب الصليبية ماثلة أمام أعينها وهم يرون أنفسهم مضطرين لشراء تلك السلع بعشرات الأضعاف مما تباع في مواطنها الاصلية. وان جل الفائدة يعود للوسطاء التجاريين (المماليك، البنادقة والجنويين) ففكر هؤلاء الأوربيون في إيجاد حلول وطرق أخرى تنهي هذا الاحتكار.

وكان الأسبان والبرتغال من أكثر الدول الأوربية تطلعاُ لإنهاء هذا الاحتكار التجاري لمصر ومدن ايطاليا. فبعد أن تخلصوا تماماً من المسلمين المتواجدين في بلادهم ومطاردتهم للساحل الشمالي لإفريقيا لضمان عدم عودة العرب والمسلمين لشبه الجزيرة الأيبيرية. فكروا في إيجاد طرق جديدة تصلهم بالهند لا تمر بالبحرين الأبيض والأحمر. وهذا الأمر مكّن اسبانيا من اكتشاف العالم الجديد (امريكا الشمالية) سنة ٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م/ والذي ألهاها وأغناها عن مشروعها في الوصول إلى الهند والشرق الأقصى. ويعود فضل ذلك الاكتشاف إلى الإيطالي الأصل كريستوفر كولمبس.(١) (١٤٥١ – ١٥٠٦م) (٨٥٥ – ٩١٢هـ) كما ركزت اهتمامها على فرض سيطرتها على بلدان المغرب العربي.

أما البرتغال فقد ساعدها كما قيل التفوق النسبي في فنون الملاحة وبراعتها في صناعة السفن والإلمام بالطرق الملاحية، إلى التطلع لبلدان الشرق واكتشاف مسالك جديدة للوصول إلى مصادر التوابل للاتجار معها بأي شكل من الأشكال. مع دفعها أو إرغامها لقطع علاقاتها بالمسلمين وفي هذا ضربة للاقتصاد الإسلامي ونسف لاحتكار مصر والبندقية لتجارة التوابل مع أوربا. وكان أهم دافع يحرك البرتغال ويلهب حماستها في تحقيق تلك الأهداف، الرغبة الصليبية لغزو بلاد الإسلام وتدميرها بمساعدة مملكة (القديس يوحنا) أو كما

١ - عبدالعليم، انور، الملاحة وعلوم البحار، مرجع سابق ص١٠٤. انظر ترجمته الموسوعة العربية العالمية (٢٠/٢٥٤ – ٢٥٧).



تسمى بمملكة (بريستر جون) حالما العثور عليها(١) والتبشير بالديانة المسيحية الكاثوليكية. والوصول إلى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم لنبشه وحمله ومن ثم التفاوض به لاسترداد كنيسة القيامة بيت المقدس من ايدي المسلمين.(٢) وهي من الخطط التي لم يكتب لها النجاح. ويعد (الفونسو ألبوكيرك) (٨٥٧ - ٩٢١هـ/ ١٤٥٣ – ١٥١٥م) من أكثر المتحمسين لهذا المشروع الصليبي. وسنأتي لطرفاً من أخباره. فكان أن خططوا أولا للوصول إلى الهند وإبرام الصفقات التجارية مع حكام الهند ومن ثم السيطرة والتحكم في طرق الملاحة البحرية من خلال منع السفن من الدخول إلى الخليج العربي بالسيطرة على هرمز وكذلك من الدخول للبحر الأحمر من خلال السيطرة على عدن. ليتم التواصل مع إمبراطورية الحبشة فالهجوم على جدة ومصر.

وكان أول الملاحين البرتغاليين الذين ابدؤوا شغفا بفنون الملاحة البحرية هو (هنري الملاح)(٣) ابن (الملك جون) واليه ينسب الانطلاق بأول بعثة استعمارية للبرتغال احتل بها مدينة سبته المغربية. وهناك من يزعم بعدم ركوب الملاح بنفسه البحر. مع الإقرار بأن دراساته الملاحية ساهمت كثيرا في زيادة معرفة وإلمام البرتغاليين بالبحر(٤) وهذا الذي ساعدهم في حركة استكشافاتهم المبكرة إلى جانب ما استفادوه من معلومات كان مصدرها العرب والمسلمين قبيل طردهم من الأندلس. فقد وصل البرتغاليون في توسعاتهم أول الأمر إلى جزر ماديرا سنة

---

١ - البحث عن الراهب يوحنا ومملكته والتي افترضوا انها ببلاد الحبشة (اثيوبيا) لا تعد كونها مجرد أسطورة من الأساطير التي روج لها الغرب لتبرير استعمارهم للشعوب ولإضفاء الطابع الديني لمشروعهم الصليبي. للمزيد هول، ريتشارد، إمبراطوريات الرياح الموسمية، ترجمة كامل يوسف حسين، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، ط١، ١٩٩٩م ص١٨٥؛ السلمان، محمد حميد، الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج ص٢٥.

٢ - عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، مرجع سابق، ص١٠٦؛ السجل الكامل لاعمال الفونسو البوكيرك ص٢٨٣.

٣ - للمزيد من التفاصيل عن هنري الملاح، هول، ريتشارد، إمبراطوريات الرياح الموسمية ص١٥٨.

٤ - المعبري، تحفة المجاهدين في أحوال البرتكاليين، مرجع سابق ص١٥٤.

٨٢٢هـ/ ١٤١٩م فالازور بعدها سنة ٨٣٥هـ/ ١٤٣١م. كما عرفوا لاحقاً الساحل الغربي لإفريقيا ووصولهم إلى سيراليون سنة ٨٦٧هـ/ ١٤٦٢م.

كما استطاع (بارثولوميو دياز) سنة ٨٩٤هـ/ عام ١٤٨٨م/ قيادة أول رحلة بحرية حول رأس الرجاء الصالح في الطرف الجنوبي لأفريقيا بالسير محاذاة الساحل. ليواصل بعده (فاسكو داجاما) (٨٦٥ – ٩٣١هـ/١٤٦٠ – ١٥٢٤م) استكشافاته للمسالك والطرق البحرية سنة ٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م ليدور حول رأس الرجاء الصالح مستكشفا شواطئ شرق أفريقيا والانطلاق من ماليندي نحو الشرق وبلوغه الهند. وكان هذا سنة ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م. أما الملاح (بدرو كابرال) فقد اتجه بالخطأ صوب العالم الجديد وأكتشف ما يعرف اليوم بالبرازيل سنة ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م.(١)

انطلق فاسكو داجاما في رحلته الأولى إلى الهند من ميناء ديستينوا في لشبونه سنة ٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م صاحبا معه مابين (٣ – ٤) سفنية من نوع (مسماريات)(٢) وعدد ١١٨ – ١٥٠ بحارا. ووصل إلى كاليكوت على ساحل المليبار بالهند سنة ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م.(٣)

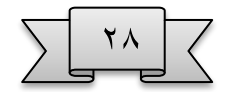
ولابد من الإشارة هنا إلى أن البرتغاليين في تلك الفترة لم تكن لديهم المعرفة الكاملة لبلوغ الهند وان ثمة أقوال تشير لوجود شخصية متمرسة بفنون البحر وعلومه هي من أرشدتهم للطريق. ولكن عن هذا الدليل دار حوله الكثير

---

١ - الدرورة، علي إبراهيم، تاريخ الاحتلال البرتغالي للقطيف، إصدارات المجمع الثقافي، ابوظبي، الامارات العربية المتحدة، ٢٠٠٢م، ص١١٩؛ الموسوعة العربية العالمية، مرجع سابق (٣٠٦/٤).

٢ - المسماريات من انواع السفن الكبيرة التي عرفت في اوربا. ومثلها سفن الكارفيل البرتغالية. وتعتمد على المسامير لتثبيت ألواحها بدلا من الالياف والحبال.

٣ - أشار المؤرخ بامطرف، محمد عبد القادر إلى أن وصول فاسكو داجاما الهند بتاريخ ١٦ / ٥/ ١٤٨٩م. وهذا وهم والأقرب للصح ما أثبتناه. انظر بامطرف، محمد عبد القادر، تاريخ ما أهمله التاريخ، لمحات من تاريخ جزيرة سقطرى، الناشر دار حضرموت، المكلا، الجمهورية اليمنية، ط١، ٢٠٠١م، ص٦٤. وللتفصيل عن الرحلة انظر عبد العليم، الملاحة وعلوم ص١٠٦؛ هول، ريتشارد، إمبراطوريات الرياح الموسمية ص٢٢٢.



من الجدل بين من أشار إلى أن الملاح العربي (احمد ابن ماجد) هو من دلهم على الطريق(١). وبين من يؤكد أن هناك شخصية أخرى هي من أرشدتهم للطريق وبالتالي تتحمل وحدها الإدانة التاريخية لمساهمتها في جلب الأعداء للعالم الإسلامي وتدمير الكثير من البلدان ونهب ثرواتها وخيراتها(٢).

ولسنا هنا في إثبات أو نفي أياً من تلك الآراء فقد أسهبت الكثير من البحوث والدراسات في سردها ومناقشتها يمكن لمن أراد المزيد من الاطلاع عليها. وحقيقة الأمر فأن البرتغاليين وبما توصلوا إليه من معرفة سابقة في مجال الملاحة البحرية كانوا يجهلون تماما كل المسالك البحرية بالمحيط الهندي والخليج العربي والبحر الاحمر. فحتى بعد وصولهم للهند لازالوا يجهلون المسالك الأخرى التي ستوصلهم لتحقيق اهدافهم. وهذا نجده بعد احتلالهم لجزيرة سقطرى على سبيل المثال عندما قاموا بإرغام عدد من المهريين لإرشادهم الطريق الى الخليج. كما فعلوا هذا مع أدلاء آخرين بعد وصولهم لمدخل الخليج العربي. وكذلك طلبهم من أمير عدن مرجان الظافري تزويدهم بمرشدين لإرشادهم الطريق إلى جدة وسنأتي اليه.

وهكذا بوصول فاسكو داجاما الهند في حملته الأولى وملاقاته الترحاب الكبير من ملك المليبار (السامري) تحقق للبرتغال أول هدف لطالما تاقوا لبلوغه وهو الوصول للهند وكسر احتكار العرب والمماليك والبنادقة للتوابل وغيرها من

---

١ - من المؤلفات والبحوث التي أشارت لابن ماجد كمرشد لتلك الأساطيل نشير إلى: النهروالي، قطب الدين محمد بن احمد، البرق اليماني في الفتح العثماني، اشرف على طبعه حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٩٦٧م، ص١٨، وعن النهروالي هذا اخذ معظم من جاء بعده وقالوا قوله؛ بامطرف، محمد، لمحات من تاريخ جزيرة سقطرى، مرجع سابق ص٦٤. قاسم، جمال زكريا، الخليج العربي، مرجع سابق ص٤٩. الطريحي، محمد سعيد: في مقدمة تحقيقه لكتاب تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين للمعبري ص١٥٧.

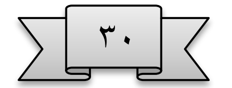
٢- من المؤلفات التي نفت التهمة عن ابن ماجد فنشير إلى: عبد العليم، انور، الملاحة وعلوم البحار ص١٠٧؛ التازي، عبدالهادي، ابن ماجد والبرتغال، ط٣، ٢٠٠٥م؛ التاجر، علي، الربان أحمد بن ماجد، دفاع وتقييم، مجلة العرب، السنة الخامسة، الجزء الثالث، ص٢٩٤.

سلع الشرق وسحب البساط عنهم لتكون بلدهم هي المحتكر لتلك التجارة والمتحكم في مياه المحيط. وكان من ضمن رسالة ملك المليبار لملك البرتغال: "إلى الملك المعظم ملك البرتغال قد وصل فاسكو داجاما احد عظماء حاشيتكم إلينا وزار مملكتنا وسررنا منه ونخبركم انه يوجد بكثرة في مملكتنا القرنفل والقرفة والفلفل والزنجبيل وكثير من الأحجار الكريمة وأعظم شيء نحتاجه هو الذهب والفضة والمرجان والألوان المختلفة".(١) ولا يدري هذا الحاكم التعيس مايخفيه عنه هذا القائد والذي عاد في رحلته الثانية بوجه غير وجهه السابق.

عاد فاسكو داجاما للبرتغال محملاً بأصناف التوابل وبأزهد الأثمان. الأمر الذي أثار شهية كل أوربا الطموحة وليس البرتغال وحدها. ليبدأ بعدها التنافس بينهم. اما البرتغال فواصلت وكثفت من حملاتها للمحيط الهندي متخذة فيها طابع الحملات العسكرية الاستعمارية. حيث دمرت كل ما يظهر أمامها من سفن ومراكب عربية وإسلامية بعد القيام بسلبها ونهبها. فضلا عن احتلال الكثير من الجزر والموانئ الإفريقية أو تلك الواقعة على مدخل الخليج العربي كهرمز والبحرين او على سواحل الهند حيث جعلوا من كوشين الهندية قاعدتهم الرئيسية.

لقد باتت تجارة العرب وبلدانهم مهددة. ولم تعد مياه المحيط الهندي بحيرة آمنة المسالك. كما لم تقو السفن العربية على الوقوف أمام هذا التحدي الجديد المتفوق عليها تقنياً وتسليحاً خاصة وان جل السفن العربية انما صنعت لأغراض التجارة فقط مع بعض التسليح الخفيف لحمايتها من القراصنة وليس لمواجهة أساطيل حربية. فما كان من العرب إلا التراجع أمام هذا الاندفاع العنيف على أمل ظهور منقذ يرسله الله لهم يخلصهم من هذه الجائحة. وكانت كل الآمال تتطلع إلى مصر حيث المماليك فيها يشكلون قوة لا يستهان بها قادرة على الردع

١ - تحفة المجاهدين ص١٦٠.



أو على الأقل تحجيم هذا الاندفاع الجنوني الشرس. خاصة وان مصر لديها تجارب عديدة في كيفية التعامل مع السفن والحملات البحرية أثناء قيام الغرب بحملاتهم الصليبية في البحر الأبيض المتوسط.

وحقيقة الأمر فأن ما عانته بلدان المحيط الهندي من ضربة موجعة في اقتصادها وملاحتها وصلت آثارها إلى مصر نفسها والتي صدمت من هول هذه الضربة اللا متوقعة. والتي سببت لها خسائر اقتصادية اضعفتها. بل وتجرأ البرتغاليين على تدمير عدة سفن يملكها الغوري نفسه في الهند. فكان لابد لمصر من المواجهة ولابد لها من وضع حداً لتلك الاعتداءات والهنجمة. كما ان الواجب الديني للماليك حتّم عليهم التحرك والقيام بدورهم الدفاعي عن الأمة الإسلامية بعد ان اصبح جل اعتماد العالم الإسلامي عليهم وعلى الدولة العثمانية التي تسعى للتوسع في أوربا.

دور المماليك والعثمانيين في التصدي للبرتغاليين

أولاً: الدور المملوكي في مواجهة البرتغاليين:

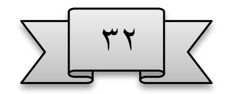
سبق وان أشرنا أن من دوافع البرتغاليين في غزوهم للبحار الشرقية هو ضرب الاقتصاد المصري من خلال الوصول بأنفسهم إلى مصادر التجارة في الهند وجنوب شرق آسيا مع قطع الشريان البحري الذي يمد مصر وأوربا (مدن ايطاليا) بمنتجات الشرق واحتكارها لأنفسهم. إلى جانب إقامة مستعمرات لهم على طول الخطوط الملاحية عبر المحيط الهندي والخليج العربي والبحر الأحمر.(١)

وقد استطاعوا بمجرد وصولهم للهند وبما قاموا به من اعتداءات على السفن العربية والإسلامية التي تمخر عباب المحيط الهندي من ضرب الاقتصاد المصري ومعه اقتصاد الوسطاء الأوربيين (البنادقة)(٢). الأمر الذي جعل كل البلدان الواقعة على المحيط والتي تضررت بشكل مباشر أو غير مباشر من الاعتداءات البرتغالية لتوجيه نداءات استغاثة للسطان المملوكي (قانصوة الغوري) كاستغاثة سلاطين كوجرات منهم السلطان محمود شاه (ت: ٩١٦هـ/ ١٥١٠م) او ابنه مظفر شاه بن محمود (ت: ٩٣٢هـ/ ١٥٢٥م)(٣) او سلطان اليمن عامر بن عبد الوهاب الطاهري (ت: ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م) وغيرهم.

وحقيقة الأمر فان السلطان الغوري في الفترة التي تسلم فيها مقاليد الحكم (٩٠٦ - ٩٢٢هـ/ ١٥٠٠ - ١٥١٦م) كانت تواجهه ضغطوطاً داخلية وخارجية تعصف بدولته الفتية. فمن ناحية لا زالت الدسائس والمكائدات بين

---

١ - للمزيد دراج، المماليك والفرنج، مرجع سابق ص١٢٧ وما بعدها.
٢ - دراج، المرجع السابق ص١٣٢.
٣ - النهروالي، البرق اليماني ص١٩.



الأمراء المماليك المتنافسين فيما بينهم مستعرة ولازال العربان داخل البلاد وفي الحجاز واليمن يثيرون الفتن والاضطرابات. ومثلها تلك الفتن التي يثيرها المسيحيون في بلاد الشام ومصر. ومن ناحية أخرى لا زال قراصنة الإفرنج وفرسان الاسبتارية في البحر الابيض المتوسط يعيثون فساداً ويهددون شواطئ مصر والشام. مع ضعف البحريه المملوكية. فغالبية مماليك الغوري هم من المماليك البرجية. وكل هذه الامور أرهقت مصر وأدت إلى استنزاف موارد وطاقات الدولة والتي شارفت على الإفلاس وخاصة بعد ضرب البرتغاليين مصالحها في المحيط الهندي. ولم تسلم من اعتداءات البرتغاليين حتى السفن الخاصة التي يملكها الغوري ويتاجر بها لرفد خزائن دولته بالمال.

وإزاء كل هذا طلب الغوري من الدولة العثمانية مساعدته ومده بالأخشاب والمدافع لكي يتمكن من مواجهة البرتغاليين. ويقال ان السلطان بايزيد مده بكل مايحتاجه من أسلحة وبارود وسفن وخشب وغيرها من الآلات فضلا عن ٢٠٠٠ مقاتل من اللوند وهم جنود نصف نظاميين.

معارك المماليك على السواحل الهندية

بجهد استطاع الغوري بناء وتكوين هذا الأسطول الذي أبحر من السويس سنة ٩١١هـ/ ١٥٠٥م وقد أولى قيادته للأمير (حسين الكردي) (١) واستطاع هذا الأسطول بعد ان استقر فترة في جدة لتحصينها بالأسوار وتمكين دفاعاتها من ان يواصل إبحاره إلى الهند فوصلها سنة ٩١٤هـ/ ١٥٠٧م تقريبا (٢) وهي فترة استطاع خلالها البرتغاليون منذ وصولهم الأول للهند من السيطرة على الكثير من المدن والموانئ الهندية على الساحل المليباري. بل واستطاعوا (بناء على أوامر ملك البرتغال مانويل) تعيين نائبا له في الهند وهو (فرانسيسكو دا الميدا) ومركزه كوشين.

وطبعا تحركات البرتغاليين هذه في الهند لم يقف الهنود إزائها موقف المتفرج. فقد قاوموا البرتغاليين منذ أول وجود لهم في الهند. إلا ان تفوق البرتغاليين العسكري وقدرتهم على المناورة والالتفاف بالسفن كانت غالباً هي الحاسم في أي مواجهة بحرية. كما ان تفكك الممالك الهندية والصراعات الداخلية داخل المملكة الواحدة أدى ذلك إلى إضعاف هذه الممالك وجعلها لقمة سائغة للبرتغاليين.

ولكن بالرغم من هذا الحال إلا أن تلك الممالك وعلى ضعفها حاولت قدر الإمكان ان لا تقف مكتوفة الأيدي حينما كان الأسد البرتغالي ينهش لحمها. فقد انضمت العديد من السفن الهندية لأسطول الكردي وتعاونوا معا في المواجهة

---

١ - للأطلاع على تفاصيل حملة حسين الكردي انظر حنظل، فاضل، العرب والبرتغال في التاريخ ص١٤٩. المليباري، تحفة المجاهدين ص٢٥٢.

٢ - بعض المصادر العربية اشارت الى ان هذه الحملة وصلت الهند سنة ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م. بافقيه، محمد بن عمر، تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر الهجري ص٨٢. كما اشار المؤرخ ابن الديبع الى مرور اسطول الكردي بكمران وعدن متجها للهند في شهر ربيع الآخر سنة ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م. انظر الفضل المزيد ص٣٠٤.



منهم السلطان المسلم (محمود شاه (بيكره) الكجراتي) (ت: ٩١٧هـ/ ١٥١١م) وابنه السلطان مظفر شاه. وهؤلاء تربطهما علاقات جيدة بالعرب والمماليك. وهم من بعثوا رسائل استغاثة للسلطان الغوري. وكذلك (مالك اياز) حاكم جزيرة الديو والملك السامري (زامورين) ملك كليكوت (كلكتا) وغيرهم. وقد تفاجأ البرتغاليون بالأسطول المصري قريبا من ميناء ديو. حيث تمكن حينها الكردي ومن معه الاشتباك مع البرتغاليين في ٣ فبراير ١٥٠٩م/ ٩١٤هـ واستطاعوا تحقيق بعض الانتصارات والتي كان لها وقعا عظيما في نفوس المسلمين عامة وبثت فيهم روح المقاومة والفداء(١) وفي هذه المعركة قتل قائد أسطول البرتغاليين (لورنز داالميدا)(٢) ابن نائب ملك البرتغال بالهند (فرانسيسكو دا الميدا).

إلا ان الهزيمة لاحقت أسطول المماليك في المعركة التالية ربما كان هذا لعدم تقدير الموقف جيدا من قبل الكردي ومن معه إذ لم يغتنموا فرصة النصر ويواصلوا هجومهم لدحر البرتغاليين من الشواطئ المليبارية. إذ تفاجؤوا بعدها بهجوم البرتغاليين عليهم بقيادة (فرانسيسكو داالميدا) بعد ان وصلت للأخير إمدادات عسكرية كبيرة أرسلها لهم الملك البرتغالي (مانويل الأول) ساعدت في رفع معنويات جيشهم والحسم. وكانت خسارة قوات الكردي كما في بعض المصادر حوالي ٦٠٠ شهيد. (٣) وقد أورد المؤرخ الحضرمي احمد بن عبد اللّه شنبل (ت: ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م) خبر عن تلك المواجهة وما تلتها وهو معاصر لها حينما أشار إلى انه في سنة ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م ((جهز أمير الفرنج اسمه (الدُك) بضم الدال المهملة وتشديدها في مائة وخمسين مركب بمساعدة آل منيبار على كاليكوت.

١ - انظر المليباري، تحفة المجاهدين ص٢٥٢.
٢ - الشامسي، الصراع البرتغالي العثماني ص١٠٤. (٢) الغزو البرتغالي للجنوب العربي ص٧١.
٣ - شنبل، احمد ، تاريخ حضرموت ص٢٣٥. وللمزيد انظر الغزو البرتغالي للجنوب العربي ص٧١ وما بعدها.

وبعد لما أقبل الإفرنج على البلاد المذكورة أفتجعوا منهم لما نظروا ما معهم من العدة والسلاح وكثرة الرجال وهربوا منها إلى الدرب. ودخل الإفرنج البلاد وحرقها ونهب ما فيها. وبعد أيام قلائل هاجمهم السامري وأصحابه وقتل منهم مقتلة عظيمة نحو مائة رجل والأمير المذكور من جملتهم))(١).

كما ذكر لنا المؤرخ اليمني ابن الديبع وهو أيضاً من المعاصرين للأحداث ضمن حوادث سنة ٩١٦هـ/ ١٥١٠م خبر يفيد باستشهاد احد الحضارم بميناء الديو وعلى مايبدو كان صديقا له وهو السيد وجيه الدين عبد الرحمن بن محمد بن علي باعمر باعلوي. (٢)

ووجود الحضارم بالهند ليس بالغريب فقد وصلوها قبيل مقدم البرتغاليين بقرون كدعاة دين وتجار دنيا منهم من حل في تلك البلاد وجعل منها موطناً له. تناولت ذلك الكثير من المؤلفات بالتفصيل. كما ان غالبية الممالك الهندية اعتمدت في جيوشها على العناصر العربية وخاصة من المهرة وحضرموت ويافع. (٣)

عاد الأمير حسين الكردي لمصر سنة ٩١٨هـ/ ١٥١٢م يجر معه أذيال الهزيمة والتي كان وقعها شديدا على السلطان الغوري وعلى المسلمين عامة.

وعلى ما يبدو فأن التبريرات التي قدمها الكردي للسلطان الغوري عن فشله أقنعت الأخير. حيث نراه بعدها يجهز حملة أخرى ويوكل قيادتها لحسين الكردي نفسه ومعه القائد العثماني (سلمان ريس) أو سلمان الرومي بعد ان عين هذا الأخير في منصب قبودان السويس (قائد القوات البحرية). والريس سليمان

---

١ - شنبل، تاريخ حضرموت، مرجع سابق ص٢٤١ – ٢٤٢.

٢ - ابن الديبع، الفضل المزيد ص٣٢٠.

٣ - انظر على سبيل المثال الخالدي، عمر، نتائج هجرة الحضارمة إلى الهند. الوجود العربي في حيدر آباد، مجلة الدارة، العدد ٣، السنة ١٠، ربيع الثاني ١٤٠٥هـ ص ٢١٩– ٢٢٥؛ باذيب، د. محمد أبوبكر، إسهامات علماء حضرموت في نشر الإسلام وعلومه في الهند، دار الفتح للدراسات والنشر.



هذا كان قائد القوة العثمانية التي أرسلها السلطان (بايزيد الثاني) لمساعدة المماليك في مواجهتهم للبرتغاليين.(١) وهذه الحملة تورطت في صراعات داخلية مع حكام الحجاز واليمن مما أدى إلى تأخرها وفشلها.

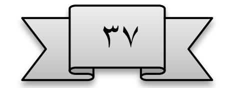
لقد كان عامل الوقت مهم ولصالح البرتغاليين. فمنذ هزيمتهم الأولى في (الديو) وانتصارهم بعدها على قوات حسين الكردي. حتى سارعوا لتمكين وجودهم في غرب الهند وجنوبها والسعي للسيطرة على مداخل الخليج العربي وخليج عدن فاحتلوا هرمز ومسقط على مدخل الخليج العربي وقبلها احتلوا جزيرة سقطرى سنة ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م واندفعوا لاحتلال عدن وكادوا أن يحتلوها. إلا أنهم غادروها مقتحمين باب المندب فالبحر الأحمر وفيه استولوا على جزيرة كمران اليمنية وسواكن على البر الإفريقي وأصبحوا قريبين جدا من تحقيق بعض أهدافهم وهي بلوغ جدة والاتصال المباشر بالحبشة وسنتطرق إليها في الفصل الثاني.

وفي هذه الفترة بدأت علاقة المماليك بالعثمانيين تسوء لأسباب لسنا في صددها هنا والتي انتهت بمقدم الجيش العثماني بقيادة السلطان (سليم الأول) ومقتل السلطان (قانصوة الغوري) في معركة (مرج دابق) ببلاد الشام سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م. ومن ثم احتلال العثمانيين لمصر بعد معركة الريدانية (٩٢٣هـ/ ١٥١٧م) وتقويض دولة المماليك بإعدام أخر سلطان مملوكي وهو (طومان باي).

اما بالنسبة للجنود المماليك فقد عاشوا بعد ذلك أسوأ ايامهم، وراحت عنهم ايام الأبهة والعظمة. وانقلبوا الى فقراء معدمين بعد ان كانوا هم اسياد البلاد واغنياؤها ((لم تعد لديهم خيول ولا ملابس لائقة ولا سلاح ولا حتى حجر يسندون إليه رؤوسهم. ولم يعد لديهم خدم ولا حشم))(٢). وحتى بعد ان عفا عنهم

---

١ - للتفصيل انظر الشامسي، احمد محمد، الصراع البرتغالي العثماني ص١٥١.
٢ - الفتح العثماني للاقطار العربية ص٧٣.



لاحقاً السلطان سليم الأول وضمهم إلى جيشه ضمن كتيبة (الجنود الجراكسة) إلا انهم عدوهم في مرتبة دونية مقارنة بجنود الجيش العثماني. وهذا انعكس بدوره على سير المعارك اللاحقة واعاق كثيراً تقدم القوات العثمانية في حربهم مع البرتغاليين.

أما حال البلدان العربية وخاصة في بلاد الحجاز واليمن والتي كانت تربطهما علاقات قوية مع المماليك. فقد رحبوا بذلك الإنتصار وارسلوا وفودهم وهداياهم لمباركة السلطان العثماني سليم الاول ومعلنين له الولاء والطاعة. وهكذا أنتقل ملف حماية العالم الإسلامي ومواجهة البرتغاليين ومعهم الصفويين للدولة العثمانية.

ثانياً: دور العثمانيين في مواجهة البرتغاليين:

كما أشرت سابقا فبانتهاء دولة المماليك في مصر سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م آلت زعامة العالم الإسلامي للدولة العثمانية وإليها اتجهت أنظار كل المسلمين طلبا للنجاة والخلاص مما حل بهم من كارثة اسمها (البرتغال).

وكانت الدولة العثمانية في هذه الفترة في أوج زهوها وتباهيها بانتصاراتها. إذ استطاعت وفي وقت قياسي من هزيمة أكبر قوتين مسلمتين تكاد تكون لهما اليد الطولى في العالم الإسلامي بحكم موقعهما. الأولى في إيران وهي الدولة الصفوية والتي كانت باسطة نفوذها على الخليج العربي وهي تعتنق المذهب الشيعي الاسماعيلي الاثنى عشري. والثانية هي الدولة المملوكية في مصر والتي كانت تعتنق المذهب السني وكان لها الزعامة على بلاد الشام والحجاز وأجزاء من اليمن.

فما ان تحقق للسلطان العثماني (سليم الأول) نصره الاول على الصفويين بعد معركة جالديران سنة ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م والثاني السريع على المماليك في مرج دابق والريدانية واستيلاؤه على كرسي مصر سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م حتى سارع في تجهيز اسطولا بحريا مجهزا بالمدافع لمواجهة البرتغاليين. وهو الأسطول الذي بدأ الغوري في اعداده من قبل. وقد أوكل مهمة قيادته لقبودان السويس القائد العثماني سابق الذكر(سلمان ريس) والذي شدد عليه بضرورة حماية المقدسات

الإسلامية في الحجاز وإغلاق باب المندب في وجه البرتغاليين بل ومطاردتهم حتى لأعالي البحار.

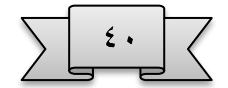
إلا ان حملته هذه تورطت في الكثير من المشاكل الداخلية بالحجاز وفي اليمن. الأمر الذي أعاق تحركها بل واستنزف منها الوقت والعتاد والرجال. وهذا أعطى البرتغاليين فرصة للتوغل أكثر للبحر الأحمر وبلوغ جده بل ومشارف السويس. فقد شن البرتغاليون حملة بحرية سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م يقودها القائد البرتغالي (لوبو سواريز) وبرفقته حوالي (٤٠) سفينة و(٢٠٠٠) جنديا(١). إلا أن تحصينات جدة وبراعة (سلمان ريس) في إدارة المعركة افشل هذا الهجوم. بل واستطاع سلمان مطاردتهم والاستيلاء على سفينة من السفن البرتغالية واسر بحارتها. وقد قتل في تلك المعارك القائد البرتغالي (ألفارو دي كاسترو).

لتستمر بعدها الحملات البحرية العثمانية ضد البرتغاليين متجاوزة البحر الاحمر وخاصة في عهد السلطان العثماني (سليمان القانوني) والتي بلغت البحرية العثمانية في عهده مبلغا من القوة جعلت من أوربا كلها وليس البرتغال وحدها تعمل لهذه القوة ألف حساب.

ومن أشهر الحملات العثمانية لمطاردة البرتغاليين نشير إلى حملة الأمير مصطفى بيرم (بهرام) ومعه نائباه الخواجا صفر المشهور بلقب (عبد سلمان)

---

١ - الصراع البرتغالي العثماني ص١٥٣؛ وقد أشار إلى هذه الحادثة المؤرخ الشحري محمد بن عمر بافقيه في كتابه تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر وأوضح ان الأسطول البرتغالي وصل أول أمره عدن في (٣٠ خشبة مابين غربان وبرش)، وان الأمير الطاهري مرجان الظافري قدم لهم كل ما يحتاجونه من مؤن، بل وزودهم بربابنة يرشدونهم في مسالك البحر الأحمر لبلوغ جده. انظر تفاصيلها بافقيه، محمد بن عمر، تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر ص١٣٣.



والآخر (قره حسين) وقد مكثت هذه الحملة فترة في مدينة الشحر لتعذر سفرها بسبب الرياح ثم توجهت للهند لمساعدة سلطان كوجرات (بهادر شاه) وكان هذا سنة ٩٣٧هـ/ ١٥٣٠م وسنأتي لبعض تفاصيلها في الفصل الرابع(١).

ومن الحملات العثمانية نشير إلى حملة سليمان باشا الخادم (سليمان الارناؤوطي) سنة ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م(٢) والتي انتهت باحتلال العثمانيين لـ(عدن) والقضاء على الدولة الطاهرية مع تحقيق نصر لا يذكر في الهند. وقد مرت هذه الرحلة بسواحل حضرموت في عهد السلطان بدر الكثيري المشهور بابي طويرق واستقرت أيام في مدينة الشحر(٣). وفيها أعلنت حضرموت تبعيتها للدولة العثمانية وسنأتي لتفاصيلها.

ومن الحملات العثمانية الأخرى نشير إلى تلك التي قادها (خير الدين ريس) وحملة (محي الدين بيري ريس) وكذلك حملة (مراد ريس) الذي كلف بعودة السفن العثمانية من البصرة وفشلها. او حملة (علي ريس) سنة ٩٦٢هـ/ ١٥٥٤م لذلك الغرض واصطدامها بالأساطيل البرتغالية في الخليج العربي.(٤)

كما ان نجاح العثمانيين في السيطرة على اليمن وكذلك نجاح حملة الوالي العثماني (ازدمر باشا) (١٥٤٩ - ١٥٥٤م/ ٩٥٦ - ٩٦٢هـ) في سيطرته

---

١ - عنها انظر السكوتي، المختصر في تاريخ مدينة الشحر ص٢٦٨؛ الشامسي، الصراع البرتغالي العثماني ص١٥٦.

٢ - لتفاصيلها انظر الصراع البرتغالي العثماني ص١٥٧. وفيها أشار إلى ان تاريخ الحملة كان سنة ٩٥٤هـ/ ١٥٣٨م.

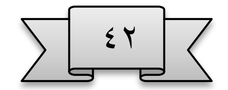
٣ - المختصر في تاريخ مدينة الشحر ص٢٩٠.

٤ - للمزيد عن علي ريس ودوره انظر خليل، د. محمد محمود، وثائق بحرية عن قبودان السويس والدور العثماني في مواجهة البرتغاليين، نسخة الكترونية من دون اية بيانات أخرى (١/٩-١٠).

على ساحل البحر الأحمر الإفريقي مكّن العثمانيين من التحكم في مدخل البحر الأحمر وباب المندب وغلقه في وجه البرتغاليين ومن جاء بعدهم(١).

وهكذا توالت الحملات العثمانية على البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج العربي منذ العقد الثالث من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي لتستمر دون توقف حتى بعد اندحار البرتغاليين من المنطقة. إذ أصبحت منطقة اليمن وأجزاء من الخليج ولايات عثمانية توجب على الدولة العثمانية حمايتها.

١ - سالم، سيد مصطفى، البحر الأحمر والجزر اليمنية، تاريخ وقضية، دار الميثاق للنشر والتوزيع، صنعاء، الجمهورية اليمنية، ط١، ٢٠٠٦م ص٢٨.



انحسار التواجد البرتغالي

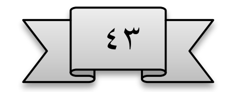
وفي هذه الفترة والتي تلتها (النصف الثاني من القرن العاشر الهجري) بدأ التواجد البرتغالي بالمنطقة ينحسر ويتراجع وأصبح جل اهتمام البرتغاليين هو المحافظة على مستعمراتهم سواء كانت تلك التي في إفريقيا (انجولا، كيب فيرد، غينيا بيساو، موزمبيق، ساوتومي، برنسيب)(١) أو التي في الشرق (جوا بالهند، ماليزيا، اندونيسيا، الصين) فضلا عما لا زال بأيديهم من جزر ومناطق في الخليج العربي (هرمز، البحرين، القطيف) قبيل ان تتحرر. ويعود سبب ذلك الانحسار إلى:

أولاً: ظهور العثمانيين كقوة بحرية لا يستهان بها في مياه المحيط، ناصبت العداء للبرتغاليين وسعت إلى تدمير قواتهم وقواعدهم اينما وجدوا. ونجاحهم في غلق مدخل البحر الأحمر من جانبيه العربي والافريقي والذي افقد البرتغاليين خططهم للوصول إلى جدة والاتصال ببلاد الحبشة. إلى جانب عقد العثمانيين تحالفات مع البلدان الإسلامية ودعمها وتقويتها قدر الإمكان لكي تكون قادرة على الوقوف بوجه البرتغاليين.

ثانياً: تسببت صراعات وحروب البرتغال مع جارتها اسبانيا وانتصار هذه الأخيرة عليها إلى إلحاقها باسبانيا سنة ٩٨٨هـ/ ١٥٨٠م. وهذا أضعف من القوة البرتغالية في أعالي البحار. إلا انه لم يسقطها تماماً. إذ ظلت السفن البرتغالية محتفظة

---

١ - الموسوعة العربية العالمية، الناشر مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ٣٠ جزء، ط٢، (٣٠٧/٤)؛ الدرورة، علي بن ابراهيم، الاحتلال البرتغالي للقطيف ص١٢٠.



بعلمها البرتغالي في أعالي سواريها وقلاعها وظلت أيضاً محتفظة بالكثير من مستعمراتها.

ثالثاً: دخول انجلترا وهولندا ومن ثم فرنسا حلبة المنافسة والصراع في البحث عن مستعمرات وإنشاء قواعد عسكرية على خطوط الملاحة العالمية. ومناصبة الدولتين الأخيرتين العداء للبرتغال والسعي لتدمير سفنها. كل هذا ساعد على تقلص دور البرتغاليين بمنطقة المحيط الهندي ومن ثم انحساره وزواله. ولم يتبق من مستعمراتهم غير بعض الجزر وبعض القواعد العسكرية التي اشرنا إليها.

الفصل الثاني

المواجهات العربية العثمانية ضد البرتغاليين

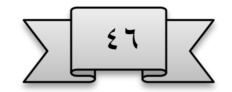
مع إبراز الدور الحضرمي

جهل المصادر والمراجع بالدور الحضرمي المقاوم وعدم إبرازه

كما سبق والإشارة إليه فأن أغلب من كتب عن الصراع الدائر بين البرتغاليين والعثمانيين في البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج العربي قد أغفلوا الدور الحضرمي في هذا الصراع. وهم ان تطرقوا له في بعض الأحيان إنما كإشارات عابرة وسطحية دون ان تقوم تلك الكتابات بإبراز الدور الحقيقي الذي لعبه الحضارمة في هذا الصراع سواء كان من حيث تصديهم ومواجهتم للبرتغاليين في مناطقهم أو في المناطق التي يرتادونها بحرا. أو من حيث إسهامهم في تقديم الدعم والمساعدة وخاصة للحملات العثمانية أثناء رحلاتها لمواجهة البرتغاليين في المحيط الهندي. أو لمن تعثرت بهم السبل من سفن ومراكب وأفراد بسبب الاعتداءات البرتغالية فلجؤوا إلى حضرموت. فضلا عن دور الحضارم المساند والمعزز لنصرة أخوانهم العرب والمسلمين سواء في شرق أفريقيا أو في عدن والبحر الأحمر أو في سواحل عمان والخليج العربي بل وحتى في البلاد الهندية.

سبق وأشرت فأن المصادر المحلية والتي يفترض بها أنها تناولت الوجود البرتغالي أو العثماني في المنطقة بصورة واضحة وجلية أو أنها عملت على إبراز دور الحضارمة في تصديهم للاعتداءات البرتغالية. هي في حقيقة أمرها لم تقدم الكثير أو تبرزه بالصورة المطلوبة(١). ذلك ان غالبية مؤرخينا المعاصرين لتلك الحقبة أو قريبين منها، كانوا يتبعون الطريقة التقليدية في كتابة التاريخ المعروفة بطريقة الحوليات واهتمامهم بتدوين الأحداث الكبرى أو البارزة فقط. وهم يعرضون الحدث التاريخي بصورة موجزة جدا واحياناً مجرد إشارة عابرة.

١ - للمزيد عن المصادر المحلية التي دونت اخبار البرتغاليين، وكيف تعاملت مع تلك الاخبار انظر . الجعيدي، عبد الله سعيد، البرتغاليون في مصادر القرن العاشر الهجري – السادس عشر الميلادي. مجلة حضرموت الثقافية، العدد ٨، ابريل يونيو ٢٠١٨م ص٩- ١٣.



فضلا عن إغفالهم أحداث أخرى لم يصل إليها علمهم. كما لا يهتمون بالربط بين الخبر ومسببه أو ما أحدثه لاحقا من نتائج وبالتالي ظلت الكثير من الأحداث المدونة مبهمة للقارئ تحتاج إلى من يلملم شتاتها المبعثر ويربط بين أجزائها. بل وأحياناً تلك الحوليات تعقّد المشهد أكثر مما تجليه لعدم تحري بعض المؤرخين الدقة والمنطقية فيما يطرح من تواريخ وأحداث وفقا ولتسلسلها.

وكل هذه معوقات تحتاج من الباحثين لتجاوزها بذل جهد وعناء كبيرين. وهذا لا يتحصل للكثيرين منهم التواقين للمعلومة السهلة والميسرة. ان هذه الأمور مجتمعة أو متفرقة أثرت سلبا في عدم إبراز هذا الدور وإغفاله من قبل غالبية المؤرخين.

كما ان الوثائق والسجلات الرسمية من برتغالية وعثمانية المفرج عنها والتي تناولت تلك الحقبة التاريخية لم نر فيما ترجم منها للعربية الشيء الكثير الذي يخص حضرموت مما يزيد الأمور غموضاً وابهاماً.

كما يلاحظ ان التواجد البرتغالي على سواحل حضرموت لم يبرز بنوع من الوضوح إلا في فترات لاحقة من مقدم البرتغاليين للمنطقة وتحديدا في العقدين الثالث والرابع من القرن العاشر الميلادي. وهي فترة كانت أكثر سخونة كما تغيرت فيها بعض قواعد اللعبة. وهذا يعني ان علينا بدل المزيد من الجهد في البحث والتنقيب وتقليب المصادر والمراجع وهذا قد لا يوافينا الان لضيق الوقت كما أشرت إلى ذلك في مقدمة كتابي هذا. وعليه سوف أتعامل بالموجود وما استطعت الوصول إليه تاركا ما غفلت عنه لفترات أخرى أو لمن سيجيء بعدي.

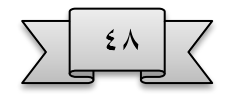
البرتغاليون وضرب الاقتصاد الحضرمي

برع الحضارمة كغيرهم من العمانيين والسيرافيين والهنود بفنون الملاحة البحرية والإبحار بسفنهم الشراعية التي تجوب بلدان حوض المحيط الهندي وجنوب شرق أسيا والبحر الأحمر والاتجار مع تلك البلدان. مستفيدين في حركتهم الملاحية في الذهاب والإياب مما عرف بحركة الرياح الموسمية. وقد كانوا جميعا أسياد تلك البحار وربابنتها(١). ولا غرو أن ظهر من بينهم العديد من ربابنة البحر وملاحيها وممن كان لهم باع كبير في تطور علوم الملاحة البحرية قبل مقدم البرتغاليين كالملاح الشهير احمد ابن ماجد أو سليمان المهري. أو من أتى بعدهم من ربابنة وملاحين تشهد لهم ماخلفوه من أبحاث وروزنامات في مجال الفلك والملاحة البحرية(٢).

وكانت أهم السلع التي تجلب من الهند والصين هي: التوابل، المنسوجات على أنواعها، القطن، الحرير، السيوف الهندية، الذهب، المسك، الخزف، الأحجار الكريمة، العاج. أما من بلدان شرق أفريقيا فكانت أهم السلع التي تجلب منها هي العاج والعبيد والصمغ والجلود وأنواع الخشب. ومن الخليج يجلب اللؤلؤ والتمور وغيرها بينما كان يتاجر الحضارمة باللبان والمر والعنبر والبرود اليمانية والخيول. فضلا عن تسخير سفنهم ومراكبهم كوسائل نقل ومواصلات اما لنقل البضائع أو نقل الحجيج والمسافرين لضعف ما يتاجرون به. بل وكما

١ - عبد العليم، أنور، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة العدد ١٣، يناير ١٩٧٩م؛ قاسم، د. جمال زكريا، الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الاوربي الاول، دار الفكر العربي، القاهرة، ص٤٦.

٢ - للمزيد انظر الملاحي، عبد الرحمن عبد الكريم، ملامح من التداخل المعرفي بين ربابنة اليمن وعمان، الناشر وزارة التراث والثقافة، عمان، ط١، ٢٠٠٦م.



يلاحظ فأن جل اعتماد حكام جنوب شبه الجزيرة العربية على التجارة وكانوا هم أنفسهم تجارا يملكون الكثير من السفن التي تمخر عباب المحيط بغرض التجارة.

ولم يعكر صفو تلك التجارة المتبادلة الموغلة في القدم بين بلدان المحيط الهندي إلا مقدم البرتغاليين من أعالي البحار وما رافق مقدمهم هذا من أعمال عنف وقسوة وقرصنة بثت الرعب والخوف في نفوس كل من أراد ركوب البحر.

لقد تضرر الحضارم عامة من ذلك الوجود البرتغالي وربما لا نغالي أن قلنا أن ضرر هذا الوجود على الحضارمة وحضرموت كان الأشد. إذ ان جل اعتماد الاقتصاد الحضرمي كما أشرت، قائماً على حركة التجارة البحرية وعائدات السفن والمراكب التجارية التي تمخر عباب المحيط الهندي والبحر الأحمر. ذلك ان البيئة الحضرمية امتازت على الدوام بالجدب والقحط وضعف الصناعات. مع فقر وشظف في العيش لازم أهلها لقرون. ساهمت فيه وعززته صراعات الحضارمة الداخلية وتمزقاتهم التي لا تنتهي. الأمر الذي أعاق أي تنمية داخلية فيها. فأصبح السفر والهجرة هو الشغل الشاغل للجميع فكانت وجهتهم الدائمة وموطئ ترحالهم بلدان المحيط الهندي واحيانا بلاد الحجاز. حيث أسسوا لأنفسهم جاليات سواء في الهند (١) او شرق أفريقيا. فضلا عن ان اعتماد حكامهم لملئ خزائنهم كان على النشاط التجاري الخارجي والمتاجرة فيه. فلا عجب ان نجدهم يملكون اساطيل خاصة بهم لممارسة التجارة. وبما أن جل اعتماد الجميع كان على الخارج فقد بات هذا الخارج مهدداً.

---

١ - الخالدي، عمر، عرب حضرموت في حيدر اباد، ترجمة، جمال محمود حامد، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، جامعة الكويت العدد ٤٥، ربيع الثاني، ١٤٠٦هـ. ص١٣٧.

إن أول ضربة وجهت لهؤلاء الحضارم وغيرهم من العرب، حينما استطاع البرتغاليون الوصول أولاً إلى شرق إفريقيا والسيطرة على مدنها وموانئها وتهديد الوجود العربي وتجارته في تلك البلدان(١). وثانياً وصولهم إلى الهند منذ أول رحلة لهم وهي التي قادها القائد البرتغالي الشهير (فاسكو داجاما) سنة ٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م. وكذا رحلته الثانية سنة ٩٠٨هـ/١٥٠٢م. ومحاولته في الأولى استمالة حكام الهند لقطع علاقاتهم التجارية مع العرب والدخول معهم مباشرة في تلك العلاقات ولو بالقوة. والتي تطورت في رحلاتهم التالية إلى تدمير متعمد للأساطيل العربية الراسية في تلك الموانئ الهندية أو تلك الماخرة عباب المحيط، فضلا عن استعمالهم القوة لفرض هيمنتهم على الموانئ الهندية واحتلالها.

ومن أكثر الجرائم بشاعة التي نسبت إلى داجاما حادثة السفينة مريم حينما قام بإحراق تلك السفينة وعلى متنها ما بين (٣٠٠ – ٣٨٠) حاجاً قادمين من مكة إلى كاليكوت. فيها الكثير من النساء والأطفال والشيوخ وقد احرقهم وهم أحياء في السفينة. شهد بهذه الجريمة أحد افراد اسطول داجاما قائلا: ((لقد أخذت النيران تلتهم مريم ومن على ظهرها من الركاب. وكانت النسوة وهن يحملن أطفالهن يصرخن ويستغثن ولكن دون جدوى. بينما القائد داجاما يمتع نظره بهذا المشهد وهو يضحك))(٢) كما استولى من السفينة على ١٢,٠٠٠ دوكة. وكان هذا في الأول من شهر تشيرين الأول سنة ١٥٠٦م/ ٩١٢هـ.(٣)

---

١ - انظر على سبيل المثال الجابري، د. رزق سعد الله، الحضارم في شرق افريقيا، دار حضرموت للدراسات والنشر، المكلا، ط١، ٢٠١١م؛ الملاحي، عبد الرحمن عبد الكريم، الحضارم في ممباسا ودار السلام، دار حضرموت، المكلا، ١، ٢٠٠٤م؛ حداد، عبد الله صالح، رجال الشحر في شرق افريقيا من خلال ادبهم الشعبي، دار حضرموت للدراسات والنشر، ١، ٢٠١٦م؛ الجنيد، عبد القادر بن عبد الرحمن، الإسلام واليمنيون الحضارم بشرق افريقيا. (من دون بيانات).

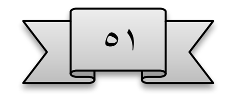
٢ - الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج ص٥٤.

٣ - الدرورة، الاحتلال البرتغالي للقطيف ص١٣٤. والدوكة عملة نقدية.

ولم يكتف البرتغاليون بقيادة داجاما بهذا التصعيد الوحشي وانما تمادوا في إرسال سفنهم وأساطيلهم إلى سواحل البحر العربي، مدمرين كل ما يصادفهم من سفن ومراكب عربية بعد نهبها وقتل من فيها حتى وان كانوا من النساء والشيوخ والأطفال. وقد ((كانت شواطئ ظفار وحضرموت والمناطق القريبة من باب المندب المسرح الأساسي للقرصنة البرتغالية. وأكثر ما تعرضت للهجمات هي قشن وسيحوت والشحر وغيرها من مدن جنوب شبه الجزيرة العربية، وكذلك مصوع وزيلع وبربرا على الشاطئ الأفريقي..))(١).

وكان الضابط البرتغالي (فنست سودري) من أوائل القراصنة البرتغاليين الذين عاثوا فسادا في بحر العرب منذ عام ٩٠٩هـ /١٥٠٣م. وقد قتل هذا القائد لاحقا في ظروف غامضة عند رأس الغضروي كما لم تعرف مصير سفنه(٢). ومن المحتمل ان يكون (سودري) او قائدا برتغاليا آخر سببا في غرق السفينة الحضرمية القادمة من الهند ومقتل الكثير ممن كان فيها منهم التاجر (علي بن عمر باجرش). وغرق تلك السفينة كان سنة ٩١٠هـ/ ١٥٠٤م.(٣)

١ - ايفانوف، الفتح العثماني للاقطار العربية، ص١٢٦.
٢ - الغزو البرتغالي للجنوب العربي ص٥٤.
٣ - شنبل، تاريخ حضرموت ص٢٢٣.



احتلال جزيرة سقطرى

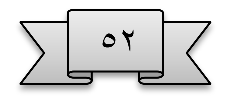
يلاحظ ان المصادر المحلية (الحضرمية) لم تطرق إلى الوجود البرتغالي في حضرموت إلا في فترات لاحقة من مقدمهم واحتلالهم للمناطق الهندية. بل وحتى بعد احتلال البرتغاليين لجزيرة سقطرى وإشارة المصادر المحلية لهذا الاحتلال. نلاحظ انها أغفلت ذكر أية أخبار عن هذا الاحتلال ومقاومة الأهالي له.

في حقيقة الأمر فأن التواجد البرتغالي قبالة سواحل جنوب الجزيرة العربية لم يكن ضمن خط سير الحملات البرتغالية الأولى للهند. وان من وصل منها للمنطقة كان هدفه الرئيس هو استكشافها ودراسة مقدرات وإمكانيات العرب والمسلمين. فضلاً عن قرصنة الطارف من السفن المارة وتدميرها.

وهذا على العكس من جزيرة سقطرى والتي كانت من ضمن خططهم وأهدافهم الاستراتيجية الأولى لاعتقادهم ان هذه الجزيرة واقعة على مدخل خليج عدن وان السيطرة عليها ستمنحهم القدرة للتحكم في مداخل البحر الأحمر وقطع حركة السفن المارة من والى هذا البحر.

كما أشرت مسبقاً فقد وصلت طلائع سفنهم البحرية الأولى بحر العرب سنة ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م بقيادة البرتغالي سيء الصيت (فنست سودري)(١). وفي اشارة للمؤرخ محمد عبد القادر بامطرف الى ان اول زيارة للبرتغاليين لجزيرة سقطرى كانت سنة ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م بقيادة القبطان (فرناس بريرا)(٢). ثم تبعه القائدان البرتغاليان سيئا الصيت والسمعة وهما (الفونسو دي البوكيرك)، (تريستان دي كونها). وكان هدفهما استكشاف المنطقة وجمع المعلومات الكافية للبدء في

١ - الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج، ص٥٤، ص٦٨.
٢ - بامطرف، لمحات من تاريخ سقطرى ص٦٣.



مخططاتهم العدوانية والقدوم لاحقاً بقوة عسكرية لاحتلال الجزيرة. وهذا ما تم لهم سنة ٩١٣هـ/١٥٠٧م.

وكانت الجزيرة في تلك الفترة خاضعة لسلطة آل عفرير ومركزها قشن بالبر المهري. لتتبعهما بعد ذلك الأساطيل والحملات العسكرية التي أصبحت لا تكتفي بالبحر وانما تجرأت لممارسة أعمال القرصنة والنهب بالبر العربي المباشر.

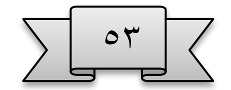
ان أول وصول للسفن البرتغالية لجزيرة سقطرى بغرض احتلالها كان اولا بمقدم (١٤) سفينة حربية برتغالية بقيادة (تريستاو دي كونها) لينضم إلى هذا الأسطول بعد أيام أسطول (الفونسو البوكيرك) وعدد سفنه (٦) وكانوا قادمين من ماليندي. بعد ان ارتكبوا في شرق إفريقيا أفضع الجرائم. وكانت أوامر ملك البرتغال لدي كونها: ان يحتل جزيرة سقطرى ((ويبني فيها قلعة عسكرية وأن يقوم بحماية المسيحيين هناك. كما يجب عليه إقامة مستودع وقاعدة بحرية ليتمكن الأسطول البرتغالي من استخدامها والخروج منها لمقاتلة السفن المصرية والعربية وكذلك لغلق مضيق باب المندب))(١).

ففي شهر رمضان ٩١٣هـ/ يناير ١٥٠٨م تقريباً باشرت القوات البرتغالية بالهجوم على القلعة القريبة من الميناء الوحيد بالجزيرة ببلدة السوق. حيث كان يتحصن فيها المقاتلون من قبيلة المهرة بقيادة الأمير (محمد بن عامر بن طوعري بن عفرير)(٢) لتدور بين الطرفين معركة حامية الوطيس باعتراف البرتغاليين

---

١ - حنظل، فالح، العرب والبرتغال ص١٦٧. الجدحي، سعد، تاريخ المهرة المسمى التطواف، ص١٢٩-٢٠٣.

٢ - بامطرف، لمحات من جزيرة سقطرى ص٦٣ ومابعدها. وببعض المراجع ان قائد القوات المهرية بالجزيرة كان الأمير عامر بن طوعري بن عفرير. انظر هامش المرجع السابق ص١٣١. للمزيد عن تفاصيل هذه المعركة انظر أيضاً حنظل، فالح، العرب والبرتغال ص١٦٧. وقد ورد في احد الأبحاث العربية ان اسم حاكم سقطرى الذي استشهد يدعى (إبراهيم بن قشن) انظر الهاشمي، سعيد بن محمد بن سعيد، المواجهة بين العثمانيين والبرتغاليين في المياه العمانية، مجلة كان التاريخية، السنة الحادية عشرة، العدد ٣٩، مارس ٢٠١٨م ص٢٠. وفي تاريخ حضرموت للمؤرخ



أنفسهم. حيث أبلى المهريون والسقطريون في هذه المعركة غير المتكافئة بلاءً حسناً يثير الإعجاب لشجاعتهم وبسالتهم. فقد فضلوا استمرار القتال حتى النهاية بدلا عن الاستسلام بالرغم من أن هزيمتهم المحققة شارفت على النهاية باستشهاد قائدهم بن عفرير والعشرات من مقاتليه. وهكذا تمت هزيمتهم. وقد أشار المؤرخ محمد بامطرف في حديثه عن هذه المعركة بأن ((في المتحف العسكري بلشبونه لوحة للهجوم البرتغالي على القلعة المهرية رسمها الرسام جورجي سولاكو وكان معاصرا للحملة البرتغالية))(١). وكان حصيلة القتلى من المهريين حوالي ٢١٧ شهيد.(٢) أما المؤرخ الحضرمي أحمد شنبل (ت: ٩٢٠هـ/١٥١٤م) وهو معاصر للحدث فأشار إلى أن عدد القتلى خمسون قتيلاً من المسلمين. وان البرتغاليين ابتنوا فيها حصناً وقتلوا ولد طوغري الرويدي. وقد أرخ لها ضمن أحداث سنة ٩١٢هـ/ ١٥٠٧م(٣).

وما ان تحقق النصر للبرتغاليين حتى سارعوا بتنفيذ خططهم برفع أعلامهم على القلعة وتعزيزها بالمقاتلين والإسراع بتحويل المسجد الوحيد إلى كنيسة أطلق عليها كنيسة (سيدة النصر)(٤) وجعلوا عليها الأب (انطونيو دي لوريرو) ليقوم بمهام التبشير. كما باشروا أيضاً ببناء القاعدة البحرية والتي أطلقوا عليها اسم (سانت ميشيل). وأوكلت قيادة القلعة لـ(ألفونسو دي نورونها) ابن أخ (الفونسو دي البوكيرك) وبجانبه مائة مقاتل برتغالي ليتوجه بعدها أسطول (تريستاو دي كونها) إلى الهند لتنفيذ بقية مخططاتهم. بينما توجه أسطول البوكيرك إلى هرمز للسيطرة على مدخل الخليج العربي.

الحضرمي احمد بن عبدالله شنبل (ت: ٩٢٠هـ) انه في سنة ٩١٢هـ ((اخذ الافرنج الكفرة سقطرا وقتلوا فيها ولد طوغري الرويدي في خمسين من المسلمين وبنوا فيها حصناً)) هكذا. ص٢٢٦.

١ - بامطرف، مرجع سابق ص٦٨.

٢ - حنظل، العرب والبرتغال ص ١٦٥ نقلا عن الشهداء السبعة لبامطرف ص٥٩.

٣ - شنبل، احمد بن عبدالله، تاريخ حضرموت ص٢٢٦.

٤ - اسم الكنيسة عند بامطرف كنيسة (سيدتنا التي منحتنا النصر). المرجع السابق ص٧٤.

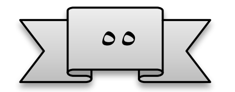
ومن الملاحظ هنا ان البوكيرك لم يلتزم بالتعليمات الموجهة له بالسيطرة على عدن ومضيق باب المندب بعد نجاح احتلالهم لسقطرى. إذ تحولت وجهته إلى مدخل الخليج العربي معللاً بأن السيطرة على المضيق واقتحام البحر الأحمر سابقة لأوانها وان الأفضل لهم كهدف استراتيجي هام هو تأمين مدخل الخليج العربي واحتلال جزره وبناء قواعد عسكرية لهم وليكونوا على مقربة من الهند.

ومن المحتمل ان يكون البوكيرك قد خشى على نفسه وأسطوله من مواجهة مباشرة مع الأسطول المملوكي الذي يقوده حسين الكردي. خاصة وان اتجاهه صوب مضيق باب المندب سيضعه على فوهة المدفع مع تلك التجريدة. وقد تضيع عليه فرصة نيل تلك الوعود التي وعده بها ملك البرتغال بتصبيبه نائبا له في الهند خلفا لـ(فرانسيسكو دا الميدا) (٦١) لما عرف عنهم من تنافس وهو المنصب الذي ربما قد يفوز به منافسه الآخر (تريستاو دي كونها).

ويلاحظ ان البرتغاليين في هذه الفترة كانت تنقصهم المعرفة الكاملة عن البر العربي المقابل لسقطرى ومسالكه فضلا عن شعوبه وأرضه وما يملكونه من قدرات وإمكانيات وتحصينات. وربما هذا يفسر عدم ظهورهم المبكر أمام السواحل الحضرمية.

لذلك فبعد ان تمت لهم السيطرة على سقطرى وإجبار أهلها على الطاعة. عزم البوكيرك للإبحار إلى الخليج العربي وقد اخذ معه عدد من المهريين كأدلاء ليدلوهم الطريق. لتبدأ مرحلة جديدة من الاعتداءات والقرصنة وسفك الدماء وفي هذا أشار المؤرخ عبد الرحمن ابن الديبع إلى انه في سنة ٩٠٨هـ/١٥٠٢م ظهرت مراكب الفرنج (البرتغاليين) في البحر بطريق الهند وهرموز(هرمز) وتلك النواحي واخذوا نحو من سبعة مراكب وقتلوا أهلها قتلا ذريعاً واخذوا أموالهم

١ - حنظل، العرب والبرتغال ص١٦٨.



جميعاً. (١) وكان يقصد بهذا الظهور أول تواجد لهم بالمنطقة قبيل احتلالهم لسقطرى.

ولم تسلم المياه الاقليمية لحضرموت من كل ما يجري، فقد تعرضت بحارها الداخلية للعديد من حملات النهب والسلب والقرصنة. في الحين الذي لم تحاول فيه السفن البرتغالية الاقتراب من المدن والقرى الساحلية. وليس هذا بسبب وجود تحصينات وحاميات عسكرية تحميها. وانما تريثوا في امر هذا الشريط الساحلي إلى أن يتم لهم حسم أمور اخرى ذات اهمية كبرى لهم. خاصة وان الهدف الأكبر لهم هو الوصول إلى عدن والولوج إلى البحر الأحمر. وبالنسبة لحضرموت وظفار فقد كان البرتغاليون كما دلت عليها بعض سجلاتهم ينظرون إليها كمناطق ليس فيها الذي يغري او كإمارة مستقلة وانما كملحقات تابعة للدولة الطاهرية (٢). كما ان الأخبار التي تصلهم عن قدوم حملة مملوكية كبيرة من مصر بقيادة (حسين الكردي)(٣) جعلتهم يترفعون عن المياه العربية ببحر العرب وخليج عدن ولو إلى حين.

اما سقطرى فقد ظلت بايديهم على الرغم من كثرة المحاولات التي ابداها المهريون والسقاطرة لطردهم. منها تلك المعركة التي حدثت سنة

---

١ - بامخرمة، قلادة النحر (٥٥٨/٦)؛ ابن الديبع، عبدالرحمن، الفضل المزيد، تحقيق يوسف شلحد، ص٢٧٥.

٢ - في حديثه عن مسقط كتب البوكيرك بأن سلطة بني جابر فيها تمتد الى (منطقة ظفار حيث حدود مملكة عدن). العرب والبرتغال ص١٨٠. كما اشار المؤرخ حمزة علي لقمان في كتابه تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية ان الدولة الطاهرية في عهد السلطان الظافر عامر بن عبد الوهاب (ت: ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م) كانت تضم عدن ولحج وأبين والشحر وحضرموت والتهائم اليمنية واليمن الأسفل حتى رداع. وهي فترة الوجود البرتغالي على سواحل جنوب الجزيرة العربية. انظر المرجع المذكور دار جامعة عدن للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٨م ص١٠١.

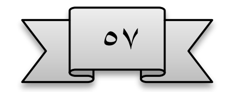
٣ - ذكر بافقيه في تاريخ الشحر، ان تلك التجريدة بقيادة الكردي، وصلت حضرموت سنة ٩١٣هـ/١٥٠٧م . ص٨٢. وقد حققت بعض الانتصارات في الهند، إلا ان حملته الثانية أخفقت. ليتولى الإعداد لها لاحقاً العثمانيين ورثة المماليك في اليمن.

٩١٦هـ/١٥١٠م ذكرها المؤرخ الحضرمي شنبل:((وفيها جهزوا خميس وعمر وأولاد سعد بن الرويدي على سقطرى وهي يومئذ مع الافرنج فدخلوا وصالحوهم. فخرج الافرنج على المسلمين فقاتلوهم فقتل من الكفرة نحو عشرة وانتصروا المسلمون عليهم ونهبوا بعض أموالهم))(١). وعلى مايبدو ان البرتغاليين بعد تلك المعارك صرفوا انظارهم عنها.

ومن الطبيعي انه وبعد هذا الانتصار الساحق. ان يقوم المنتصرون بطمس وتدمير كل مابناه وخلفه مستعمرهم من آثار تذكّر الناس بوجوده وهمجيته. حيث عمل المهريون على تدمير كنيستهم وصلبانهم. وهكذا عادت سقطرى الى حكامها المهريين من آل عفرار(٢).

١ - شنبل، تاريخ حضرموت ص٢٤٦. وانظر النص بصيغة أخرى عند الجدحي، سعد، تاريخ المهرة ص٢٠٣.

٢ - للمزيد عن سقطرى ومن سكنها يمكن الرجوع الى كتاب لقمان، حمزة علي، تاريخ الجزر اليمنية ص٧٥؛ شهاب، حسن صالح، احمد ابن ماجد والملاحة في المحيط الهندي، مركز الدراسات والوثائق، رأس الخيمة، الامارات العربية المتحدة، ط٢، ٢٠٠١م. ص٣٩.



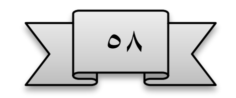
محاولات البرتغاليين للسيطرة على مداخل الخليج العربي

بعد سيطرة البرتغاليين على جزيرة سقطرى عقدوا العزم على احتلال مداخل الخليج العربي والتحكم في حركته. يعزوهم الأمل بالدخول في علاقات تعاون وصداقة مع الدولة الصفوية بإيران لما عرف عنها من عدائها الشديد لاتباع المذهب السني عامة ولما لها من عداوة مع المماليك والعثمانيين على وجه الخصوص. حيث أبحر أسطول القائد البرتغالي (الفونسو دا البوكيرك) باتجاه الخليج العربي كما أشرت سابقا تاركا بسقطرى ابن أخيه (الفونسو دي نورونها) ومعه مائة مقاتل لحماية السوق والقلعة. وعلى طريقه مر بجزيرة كوريا موريا في ١٤ أغسطس ١٥٠٧م/٩١٣هـ وعبرها متخطيا الممرات الضيقة والصخور إلى ان وصل لمنطقة (رأس الحد) العمانية حيث شاهد أربعين سفينة تعود إلى مملكة هرمز فأسرها وأحرقها(١) كما شاهد في طريقة عدد من قوارب الصيد (السمبوق) وقام بقصفها وكأنه في مناورة حربية. ليواصل الإبحار إلى ان وصل إلى بلدة (قلهات) على الساحل العماني. وكانت آنذاك خاضعة لمملكة هرمز وتقع بين رأس الحد ومسقط. وكما قيل فقد استسلم من فيها دون قتال حفظاً لأرواحهم(٢). ثم واصل الأسطول تحركه بعد أن استولى على محتويات سفينة تابعة للطاهريين وفيها تجار من حضرموت. إلى أن وصل لبلدة (قريات) العمانية واكتشف وجود استعدادات بها ورغبة بالمقاومة. ليتبادل الطرفان مناوشاتهم

---

١ - العرب والبرتغال ص١٧٤؛ السلمان، الغزو البرتغالي للجنوب العربي ص١٥٣؛ وللمزيد انظر الخوري، ابراهيم واخرون، سلطنة هرمز العربية، مركز الدراسات والوثائق، رأس الخيمة، الامارات العربية المتحدة، ١، ٢٠٠٠م. (٢/٦٥- ٦٧).

٢ - للتفاصيل انظر، الغزو البرتغالي للجنوب العربي ص١٥٤- ١٥٧.



بقذائف المدفع لتسفر في النهاية عن التحامهم لتدور معركة حامية الوطيس. انتهت بانتصار البرتغاليين لتفوقهم العسكري والاستعداد الجيد(١).

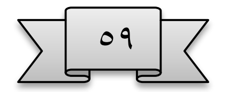
وكنتيجة للمعركة احضر البوكيرك كل سكان البلدة من النساء والشيوخ والأطفال وأمر بقتلهم. كما عمد على قطع أنوف وآذان بعض الأسرى ووضعهم بقوارب وإرسالهم إلى مملكة هرمز ليعاينوا صنيعته. وقبيل مغادرته أمر جنوده بحرق المدينة بعد ان نهبوها نهبا وشحن هذه المنهوبات بسفنهم. وقد استولى البوكيرك من هذه المعركة على خمسة وعشرين مدفعا واعدادا كثيرة من السهام والقسي والرماح. وفي طريقه شاهد ثمانيا وثلاثين سفينة بالميناء أسرع بإحراقها ليواصل تحركه إلى مسقط(٢).

وفي مسقط المحصنة جيداً، وافق البوكيرك على إجراء مفاوضات مع حاكمها وفي نيته إتاحة له الفرصة لاستطلاع المنطقة واستكشاف قوتها وتحصيناتها. فبعد فشل المفاوضات التي وقعت بين الطرفين شن البوكيرك هجومه المباغث لتدور حرب شوارع يتخللها كر وفر بين الطرفين. إلا ان الغلبة في النهاية كانت حليف البرتغاليين.

وفيها فعل البوكيرك مثلما فعله في قريات بسبب ما لاقاه من مقاومة شديدة ابداها العمانيون والتي كادوا ينتصرون فيها(٣). وبعدها واصل البوكيرك تقدمه مبحراً باتجاه صحار. والتي على الرغم من تحصينها الجيد إلا انها استسلمت لقدرها برفع الراية البيضاء خوفا من بطش البرتغاليين. ووافق حاكم

---

١ - المرجع السابق ص١٥٧.
٢ - العرب والبرتغال ص١٧٤- ١٧٥. الخوري، ابراهيم، سلطنة هرمز العربية (٦٧/٢).
٣ - العرب والبرتغال ص١٧٥؛ الخوري، سلطنة هرمز العربية (٦٨/٢)؛ الغزو البرتغالي للجنوب العربي ص١٦٠.



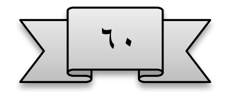
المدينة على إبقاء حامية برتغالية في المدينة وان يتكفل بكل نفقاتها(١). ثم اتجه الأسطول البرتغالي إلى خورفكان فوجد ان الأهالي مستعدون له بأسلحتهم وهم عازمين على المقاومة. إلا أن نيران المدفعية والقصف الشديد من السفن البرتغالية خلخل صفوف المدافعين ودمر التحصينات التي أقامها الأهالي. ليبدأ بعده الهجوم البري من عدة جهات تغطيها نيران المدفعية.

وقد سجل الأهالي في هذه المعركة التي استمرت أيام أروع البطولات في الصمود والمقاومة بالرغم من كثرة القتلى والجرحى فيهم. إلا ان نهايتها المأساوية جاءت أيضاً لصالح البرتغاليين باستسلام المقاومين. فكان الجزاء ان قام البرتغاليون وقائدهم (البوكيرك) بجدع انوف كبار السن منهم وبعض الأسرى. كما أمر بقيتهم بشحن سفنهم بالطعام والنقود والذهب. ومن ثم أرغامهم للقيام بعمليات التجديف للوصول الى هرمز.

وبعبور هذا الأسطول رأس مسندم وصل إلى جزيرة هرمز وبعد معاينته للتحصينات والتجهيزات التي تم الأعداد لها من قبل الهرامزة. فضلا عن وجود أسطول من السفن يحميها مع كثرة المقاتلين فيها. فضّل (البوكيرك) التروي والقبول بمفاوضات مع حاكمها والذي أرسل له وفدا يترأسه (خوجا ابراهيم). ولم تنجح هذه المفاوضات نظراً لتعنت البوكيرك واصراره اما على استسلام الجزيرة بكاملها والدخول في طاعة التاج البرتغالي واما القتل والتدمير.

ولم يمهل البوكيرك مفاوضيه مزيداً من الوقت حيث أمر سفنه بفتح نيران مدافعها على السفن الهرمزية مدمراً العديد منها وغرق بعضها. كما أمر بعض سراياه بالهجوم البري مقتحمين التعزيزات الأمامية على الشاطئ. فما كان من حاكمها (خوجا عطار) إلا ان رفع الراية البيضاء للتفاوض مجددا. وفي نهاية

١ - الغزو البرتغالي للجنوب العربي ص١٧٠.

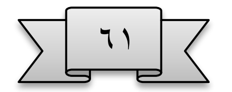


هذا التفاوض تم عقد معاهدة صلح بين الطرفين تضمنت ان يقوم حاكمها بقطع تبعيته لإيران (الدولة الصفوية) وان يدفع لملك البرتغال إتاوة سنوية مقدارها خمسة عشر ألف أشرفي ذهبا. وان تفتح الجزيرة ميناءها أمام التجارة البرتغالية بدون دفع أية رسوم جمركية(١). وكان هذا في سبتمبر عام ١٥٠٧م/٩١٣هـ . ليرفع العلم البرتغالي على سارية قصر الحاكم.

ومثلما فعله البوكيرك في سقطرى نجده هنا يأمر ببناء قلعة محصنة على الساحل لتكون قاعدة لأساطيلهم التي ستعمل في الخليج اطلق عليها اسم (سيدة النصر). وقبيل استكمال بنائها واجه البوكيرك ما يشبه التمرد من بعض ضباطه وجنوده لمخالفته الأوامر الملكية التي كلف بها وإصراره على التفرد بالقرارات. إلا ان البوكيرك استطاع وبمشقة إقناعهم للامتثال لأوامره فكان له هذا. خاصة بعد ان علم الجميع ببوادر تمرد لحاكم هرمز والتي من شانها قد تنسف كل جهودهم السابقة وخسائرهم للسيطرة على هرمز. فما كان من البوكيرك إلا ان أمر بقصف المدينة كما أرسل سرية من جنوده إلى آبار الشرب لقتل الحراس ومن ثم رميهم في تلك الآبار بعد ان يتزودوا منها.

وخلال ذلك القصف فرت عدد من السفن البرتغالية باتجاه الهند تاركة البوكيرك يواجه مصيره وبصحبته سفينتان فقط. فما كان منه إلا ان سحب أدراجه من الخليج عائدا إلى جزيرة سقطرى. ليجد أن الحامية التي تركها بقيادة ابن أخيه في حالة مزرية وكادوا ان يهلكوا بعد أن ثار عليهم الأهالي وحاصروهم في القلعة. وقد اشرنا مسبقاً لمحاولة المهرة انتزاعها منهم سنة ٩١٦هـ/ ١٥١٠م. فباشر البوكيرك بإطلاق نيران مدفعيته على بيوت الأهالي وأجبرهم على الاستسلام. كما بعث رسالة لقواتهم في ماليندي بإفريقيا لإرسال تعزيزات

١ - للمزيد الغزو البرتغالي للجنوب العربي ص١٨٠.



عسكرية. وما ان وصلته تلك التعزيزات حتى ترك الجزيرة وأسرع بقواته إلى هرمز لإعادة السيطرة عليها. وحينما كان محاصرا لهرمز وصلته معلومات بأن (شاه إيران) أرسل قوة في طريقها إليه لحماية هرمز والتي كان يعتبرها ملكا من أملاكه. فعمل البوكيرك كمين لها قضى عليها. وهناك من يرى ان حاكم البحرين دفع أيضاً بأسطول آخر لحماية مدخل الخليج وأيضاً تعرض لكمين آخر وتم القضاء عليه.

ونتيجة لهذه الهزيمة مع ما سبقها من هزائم، فقد قرر شاه إيران مهادنة البرتغاليين والتنازل لهم عن هرمز مع ترك الحرية لهم للإبحار والمتاجرة في الخليج فضلا عن الدخول معهم في تحالفات ضد الدولة العثمانية والمماليك في مصر. إلا ان البوكيرك غادر المنطقة متوجها الى الهند حاملا معه الوعد السابق من ملك البرتغال بتعيينه نائباً له في الهند. ليحتدم الصراع بين القائدين (دا الميدا) و (البوكيرك) وكلا منهما يدعي أحقيته في تولي المنصب ويقدم اتهامات للآخر بعدم القيام بمهامه وواجباته. وكادت ان تنشب بينهم حرب لولا ان جاءتهم رسالة من ملك البرتغال تأمر فيها (دا الميدا) بالتنحي وتنصيب (البوكيرك) محله كنائبا لملك البرتغال في الهند.

وعليه فبعد القضاء على أسطول المماليك في الهند وحرق الكثير من الموانئ كالدابول والديو واستسلام بعض الممالك الهندية لهم. صفى للبرتغاليين الجو هناك وبدؤوا يتطلعون لمد نفوذهم ومستعمراتهم في بلدان جنوب شرق اسيا. ففي سنة ٩١١هـ/ ١٥٠٥م احتل البرتغاليون سيلان. وفي سنة ٩١٥هـ/١٥٠٩م استطاعوا احتلال جزيرة جوة (كوة) التابعة لمملكة كوجرات. وفي سنة ٩١٧هـ/ ١٥١١م احتلوا مالقا بماليزيا.

وبالنسبة للبوكيرك فبعد تعيينه نائبا للملك في الهند ، استمر في ممارسة سياساته العداونية تجاه العرب والمسلمين ومصالحهم. بل وحاول مرتين غزو عدن والولوج للبحر الاحمر. لكنه فشل فيهن. لتصله فيما بعد رسالة من ملك البرتغال تأمره بالتنحي وتعيين بدلا عنه القائد البرتغالي (لوبو سواريز دي البير جاريا).

وتذهب بعض الروايات بموت (البوكيرك) كمدا على ظهر سفينته أمام ميناء جوا في ١٦ ديسمبر ١٥١٥م/ ٩٢١هـ(١). في حين ان روايات اخرى تذهب إلى ان مقتله كان في عدن على يد الأمير (مرجان الظافري) وهو الذي تسميه المصادر المحلية (أي البوكيرك)(عين البقر) وهذه المعركة وقعت سنة ٩١٧هـ/١٥١١م(٢) في حين ان المواجهة التي قادها البوكيرك مع (مرجان الظافري) وذكرت في سجلاته (مذكراته) فكانت سنة ٩١٩هـ/ ١٥١٣م. وسنأتي لتفصيلها.

١ - موسى، محمد علي، الهجوم البرتغالي على عدن، مجلة اليمن، العدد ٢٣، مايو ٢٠٠٦م ص١٢٦.

٢ - ذكر مقتل البرتغالي عين البقر، العيدروس، عبدالقادر، النور السافر ص١٤٤؛ المرجع السابق الصفحة نفسها.



احتلال البرتغاليين للبحرين

في الفترة التي وطئت أقدام البرتغاليين على مدخل الخليج العربي وإخضاع مملكة هرمز لهم (١٨ جمادى الأول ٩١٣هـ/ ٢٦ سبتمبر ١٥٠٧م) كانت بلاد البحرين خاضعة لإمارة آل جبر أو الجبور وهي إمارة مترامية الأطراف ضمت أجزاء من نجد والقطيف والمناطق الشرقية لشبه الجزيرة العربية. وكانت في فترة سابقة خاضعة لمملكة هرمز وتدفع لها إتاوات سنوية.

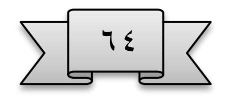
وما ان توطدت أقدام البرتغاليين على مدخل الخليج العربي بالسيطرة على هرمز وبناء قواعد بحرية لهم على مداخل الخليج. حتى باتوا يتطلعون لغزو البلدان الداخلية للخليج. وكانت تطلعاتهم تتجه الى جزيرة البحرين أكثر من غيرها نظراً لموقعها الإستراتيجي وسط الخليج العربي ولأهميتها الاقتصادية والتجارية.

لقد اشتهرت البحرين في تلك الفترة بصناعة السفن وتجارة اللؤلؤ والتي كانت تدر للبحرينيين أموالا طائلة. فكان (البرتغاليون) في بداية أمرهم يترصدون للسفن البحرينية المارة لسلبها ونهبها. ثم أوعزوا لحاكم هرمز المسمي (توران شاه) ووزيره (الخواجا عطار) لمهاجمة البحرين واحتلالها. فتم للهرامزة ذلك سنة ٩١٧هـ/ ١٥١١م. إلا ان أمير البحرين الشجاع (مقرن بن زامل)(١) استطاع طرد الهرامزة منها. ليوعز البوكيرك لابنه (بيرو البوكيرك) التحرك بأسطول واحتلالها سنة ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م. إلا انه فشل أيضاً في مهمته.

وفي سنة ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م عاود البرتغاليون هجومهم على البحرين بعد ان حشدوا لهذا الهجوم ثلاث سفن برتغالية كبيرة بكامل عتادها وحوالي ٤٠ سفينة صغيرة ذات المجاديف وقوة محاربة تضم مئات من الجنود وقرابة ١٢٠٠ هرمزي.

---

١ - للمزيد الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج ص١٢٤.



وكان قائد الحملة البرتغالي (جومز ديسوتا ماجور). وهذه الحملة أيضاً تصدى لها البحرينيون ببسالة نادرة واستطاعوا هزيمتها بعد ان كلفتهم المئات من القتلى والجرحى وكذلك عشرات القتلى من الطرف الآخر.

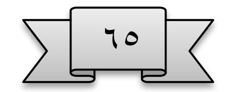
ثم عاود البرتغاليون بقيادة (دي سكويرا) ومعهم الهرامزة محاولاتهم لإخضاع البحرين إلى ان تمكنوا من ذلك سنة ٩٢٨هـ/ ١٥٢١م بعد استشهاد القائد (مقرن بن زامل) متأثراً بجراحه(١). ليتم التنكيل بجثته وحز رأسه إمعاناً في القسوة والوحشية على يد القائد البرتغالي (أنطونيو كوريا).

وظلت البحرين خاضعة للبرتغاليين إلى ان تم إجلاؤهم عنها سنة ١٠١١هـ/ ١٦٠٢م. وخلال تلك الفترة شهدت منطقة البحرين مقاومات عنيفة لهذا الغزو منها تلك الثورة التي حدثت سنة ٩٢٩هـ/ ١٥٢٢م أو تلك التي حدثت سنة ٩٣٦هـ/١٥٢٩م.

ولما تأكد للبرتغاليين في السنوات اللاحقة من السيطرة على هرمز أن العرب عادوا وانقسموا على أنفسهم في صراعاتهم الداخلية وصراعاتهم مع المماليك، ومن ثم مع العثمانيين في اليمن، بدؤوا مجدداً ينسلون إلى الشواطئ العربية، والاتجاه نحو حضرموت وخليج عدن لإتمام بقية مخططاتهم في السيطرة. ولكن هذه المرة مع تغير في بعض سياساتهم. والتي أظهروا فيها نوع من الليونة والمراوغة، ربما لكسب ود العرب أو على الأقل تحييدهم في صراعهم مع العثمانيين إلى أن تحين لهم الفرصة المناسبة لالتهام هؤلاء العرب.

---

١ - اشار المؤرخ ابن اياس الى ان الامير مقرن أسر في احدى المعارك وحاول افتداء نفسه بالمال، الا ان البرتغاليين رفضوا عرضه وقاموا بقتله. ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور (٤٣١/٥).



ومن الملاحظ أن سياسة حكام حضرموت مع البرتغاليين في تلك الفترة كانت تنسجم إلى حد ما مع تلك السياسة التي اتبعها الطاهريون في عدن وتتماشى معها. وهذا قد يعطى لنا بعض المؤشرات عن مدى تبعية الدولة الكثيرية للطاهريين. خاصة وان الطاهريين في فترات تاريخية سابقة مدوا نفوذهم إلى حضرموت واحتلوا مدينة الشحر بعد ان طردوا منها حكامها السابقين من أل أبي دجانة ومن ثم تسليم المدينة لآل كثير أعداء آل أبي دجانة بعد اضطرارهم سحب قواتهم منها.

كما أن الصلات المتبادلة والعلاقات الطيبة التي تربط بين الدولة الكثيرية والدولة الطاهرية ظلت مستمرة منذ سيطرتهم على حضرموت إلى انتهاء تلك الدولة في عدن كآخر معقل لهم على أيدي العثمانيين بقيادة سليمان باشا الخادم. مع وجود بعض الانفتاح من الدولة الكثيرية على الوجود العثماني باليمن حتى قبيل انتهاء دولة الطاهريين. دلت على ذلك الكثير من الأحداث منها تلك الزيارة للسلطان (محمد بن عبد الله الكثيري) أثناء سفره للحج سنة ٩٣٠هـ/١٥٢٣م واجتماعه بالأمير التركي (سلمان ريس) حاكم زبيد(١) وهذا بعد الهجوم البرتغالي الأول على مدينة الشحر. ومن ثم قدوم أسطول مصطفى بيرم (بهرام) للمدينة وهو ابن أخت الأمير سلمان. وتقديمه مساعدات حربية ومقاتلين لأبي طويرق ومغادرته المدينة للهند وسنأتي لتفصيل ذلك.

١ - باسنجله، عبد الله بن محمد، تاريخ الشحر المسمى العقد الثمين الفاخر ص٤١.

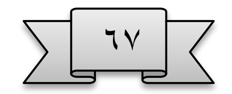
الهجوم على عدن

قبيل التطرق للاعتداءات البرتغالية على عدن نود ان نشير اولاً إلى تلك الحملة العسكرية المبكرة التي جهزها السلطان الطاهري عامر بن عبد الوهاب ذكرها المؤرخ عبد الرحمن ابن الديبع في حوادث سنة ٩١٢هـ/١٥٠٦م حين اشار: ((في هذه السنة قويت شوكة المفسدين، وقطاع طرق المسلمين في البحر بطريق الهند وهرموز وكان أعظمهم ضرراً طائفة الإفرنج فأنهم فعلوا بالمسلمين الأفاعيل. واخذوا كل سفينة غصبا. واستحلوا دماء المسلمين وأموالهم ونساءهم وأولادهم وفعلوا المنكر عياناً واستمروا على ذلك زماناً. فبعث أهل مدينة عدن الخبر إلى مولانا السلطان، فورد أمره الشريف بالتجهيز عليهم. وبذل الأموال العظيمة لمن يتوجه إليهم، فتوجه إليهم من مدينة عدن، أربعة عشر مركبا ما بين كبير وصغير فيها من المسلمين فوق ستمائة. وتوجه معهم من المسلمين إسماعيل الجرداني والشيخ عثمان العمودي وجماعة من طلبة العلم للجهاد في سبيل الله. وكان خروجهم من مدينة عدن في البحر يوم الخميس السابع والعشرين من شوال. واستمر القنوت عليهم في الصلوات الخمس وفي الخطبة يوم الجمعة في عدن وزبيد وغيرها))(١).

ولم تصلنا أية أخبار بعدها عن هذه الحملة العدنية ان كان قد نجحت في مراميها أو حققت بعض من أهدافها أم عادت أدراجها من دون اي التحام مع

---

١ - ابن الديبع، عبدالرحمن، الفضل المزيد على بغية المستفيد ص٣٠١؛ العرب والبرتغال ص١٥٩.



البرتغاليين. وثمة إشارة أخرى تفيد انه في سنة ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م فقد أسطول تابع للسلطان عامر بن عبد الوهاب قادم من الهند ولم يسلم من ذلك الأسطول إلا مركب واحد وطليعتان(١). ولم تبين لنا تلك المصادر ان كان هذا الأسطول خرج بدافع حربي ام لغرض التجارة مع ترجيحنا للأخير(٢). ومما يعزز ذلك انه في السنة التي تلتها ٩١٦هـ/ ١٥١٠م نجد إشارة تفيد بوصول ((العلم بوجود المركب العمري السلطاني المفقود من العام الماضي وانه انكسر على قرب من جزيرة سقطرى، وسلم نحو النصف من الحملة، ولم يفقد مما فيه سوى عشرة أنفس وان الإفرنج اخذوا ما سلم فيه من (إلى) جزيرة سقطرى))(٣). اللافت للنظر في تلك الحملة السابقة أن الشخصية المذكورة (الشيخ عثمان العمودي)(٤) تعد من الشخصيات الحضرمية البارزة وكان من اشد المعارضين لحكم أبي طويرق فضلا عن الخضوع لسلطته(٥). كما يعد من المتحمسين لجهاد البرتغاليين ومقاومتهم. وطبعا وجود العمودي (الحضرمي) في تلك الحملة ونظرا لما يتمتع به من نفوذ وأنصار في حضرموت وربما في عدن أيضاً والتي تعج في تلك الفترة

---

١ - المرجع السابق ص٣١٨. بامخرمة، قلادة النحر (٥٦٤/٦)؛ شرف الدين، عيسى لطف الله، روح الروح ص٢٤.

٢ -) بعض المراجع ترجح ان هذه الحملة (مجرد سفن تجارية) خرجت بغرض حربي تدفعها حماسة المسلمين للجهاد. ورجحت هزيمتها امام سفن البرتغاليين المزودة بالمدافع. الجعيدي، السلطنة الكثيرية الاولى ص١٢٤.

٣ - المرجع السابق ص٣٢٤.

٤ - من المحتمل جداً ان يكون الشخصية المعروفة باسم (عثمان بن احمد العمودي) انظر ترجمته باوزير، سعيد عوض، صفحات من التاريخ الحضرمي ص١٩٢- ٢٠١. ولم يشر المؤرخ باوزير الى تاريخ وفاته بدقة. وفي تاريخ الشحر لباسنجله انه في سنة ٩٤٨هـ/ ١٥٤١م ((توفي الفقيه العلامة الصالح عثمان بن محمد العمودي بسبيخ من دوعن ودفن بها)) باسنجله، تاريخ الشحر ص٧٥.

٥ - للتفصيل عن علاقة ال العمودي بالسلطنة الكثيرية انظر الجعيدي، السلطنة الكثيرية الاولى ص٩٣.

بالكثير من الحضارمة من طلاب علم ورجال دين وفقهاء وتجار وردت أخبار الكثير منهم في كتب التاريخ والتراجم. يجعلنا نميل للاعتقاد ان هناك حضارم آخرين شاركوه ذلك الحماس. وهذا ما سوف نلمسه في الفقرات القادمة.

ان أول ذكر للهجمات البرتغالية على عدن كما في بعض المصادر المحلية تلك التي أشار إليها مصنف كتاب النور السافر في أخبار القرن العاشر، ضمن أحداث سنة ٩١٧هـ/١٥١١م حينما أشار إلى أن فيها ((كان دخول الإفرنج عدن وقتل كبيرهم المسمى عين البقر على يد الأمير مرجان..))(١) ومن المحتمل ان هذه المعركة والتي قتل فيها قائد الحملة البرتغالية ان هذا ليس تاريخها. وان تاريخها هو شهر محرم سنة ٩١٩هـ/ ١٥١٣م وليس سنة ٩١٧هـ/ ١٥١١م وسناتي لتفاصيلها.

---

١ - العيدروس، عبد القادر، النور السافر ص١٤٤. وهذا الحدث لم تذكره المصادر المحلية الأخرى التي تنقل عنه كتاريخ الشحر للطيب بافقيه. وحتى تاريخ الشحر لباسنجله (نحو ٩١٠-٩٨٦هـ/ نحو ١٥٠٤- ١٥٧٨م) المسمى بالعقد الثمين الفاخر في تاريخ القرن العاشر لم يشر إلى هذه الحادثة وباسنجله مؤرخ معاصر للأحداث بالمنطقة. ومثلهما المؤرخ ابن الديبع لم يشر لهذه الحادثة ضمن حوادث سنة ٩١٧هـ.

البوكيرك يهاجم عدن

جاء في السجلات البرتغالية المنسوبة لألفونسو البوكيرك انه جهز حملة بقيادته لاحتلال عدن وولوج البحر الأحمر لبلوغ الحجاز والسويس. وهذه الحملة تحركت من ميناء جوه بالهند بقوة قدرت بـ (١٧٠٠) مقاتل برتغالي و(٨٠٠) من المالاباريين والكاناريين. وانه وبسبب الرياح ونقص الماء تأخر وصول الحملة في موعدها المحدد لعدن. فقد اضطروا المرور بسقطرى ليجدوا ان المهريين (٥٠ فرتكي) سيطروا عليها وشرعوا في ترميم القلعة. الأمر الذي استوقفهم لإعادة السيطرة على الجزيرة ومعاقبة السكان. وقد استعانوا بسفينة مارة قادمة من الهند محملة بالبهار لترشدهم (قسراً) إلى طريق عدن. ليتفاجأ البرتغاليون بعد وصولهم بتحصين المدينة النسبي واستعداد الطاهريين لهم. وقد قدر البوكيرك القوة التابعة للطاهريين بحوالي ألف وخمسمائة فارس وأعدادا كثيرة من المشاة. ليبدأ الهجوم بعد تعثر المفاوضات ورفض الأمير مرجان الدخول في طاعتهم.

وقد قدم لنا البوكيرك في مذكراته تفاصيل خطته والمعركة التي دارت رحاها اثناء اقتحام عدن. وكيف انهم كادوا يحتلونها لولا ان بعض أموراً استجدت بهم لم تكن في حسبانهم اثناء سير المعركة. واعترف البوكيرك بمقتل الكثير من جنوده وقادته، منهم (جورج دي سيلفيرا) و(جراسيا دي سوزا). كما أشار إلى إصابة الأمير مرجان الظافري. وفي هذه المعركة إشارة إلى امتلاك البرتغاليين بنادق (ابو فتيلة) واستعمالها. كما أشار في مذكراته ان بقلعة صيرة

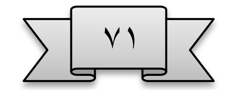
حوالي ٦٣ مدفعا كبيرا من نوع (الكاميلو) معرفاً اياها بأنها نفس المدافع التي كانوا يستخدمونها في سفنهم إلى جانب مدافع أخرى صغيرة. كما وضح انه آثر الانسحاب والتوجه إلى داخل البحر الأحمر لتنفيذ بقية مخططاته بعد ان قام رجاله بنهب كل السفن المتواجدة في الميناء ومن ثم إحراقها جميعا(١). اما عن هذه الحاثة كما في المصادر المحلية فأنه في يوم الجمعة ١٧ محرم سنة ٩١٩هـ/ ١٥١٣م وصل ميناء عدن ١٨ مركباً برتغالياً بين برشة وغراب(٢)، وكان أمير عدن (مرجان الظافري) ومعه جنوده والأهالي على دراية بمقدمهم واستعدوا لهم استعدادا جيدا بصنع التحصينات والكمائن. حيث بادر البرتغاليون بشن أول هجومهم على المدينة بإطلاق قذائف مدافعهم مدمرين التحصينات التي أمامهم واستطاعوا السيطرة على الميناء. وفي اليوم التالي بادروا بتسلق الأسوار واقتحام المدينة لتدور حرب ضارية عنيفة بين

الأزقة والطرقات استمرت كما في بعض المصادر (١٠) أيام متواصلة استشهد على أثرها الكثير من المدافعين. وكان ابرز المقاومين لذلك الهجوم هو (إسماعيل بن عمر بن موسى المهري)(٣) وإليه يعزو بعض المؤرخين تحقيق النصر في تلك المعركة والتي أصيب فيها ليستشهد بعدها بأيام متأثراً بجراحه. بينما

١ - دا البوكيرك، السجل الكامل لأعمال الفونسو دا لبوكيرك. ترجمة د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ. إصدارات المجمع الثقافي (٣-٤/٤٥٦-٤٦٨)؛ حنظل، فالح، العرب والبرتغال ص٢٢٢؛ الغزو البرتغالي للجنوب العربي ص٢٦٥.

٢ - للتفاصيل عن هذه المعركة ابن الديبع، الفضل المزيد ص٣٤٥- ٣٤٨. بامخرمة، قلادة النحر (٥٦٧/٦)، عيسى لطف الله، روح الروح ص٢٩.

٣ - جاء في تاريخ الشحر لباسنجله بأنه (إسماعيل بن عمر بن موسى المهري الرحيلي) انظر ص٣٥. بينما الاسم عند الطيب بافقيه والذي نقله عن الفقيه عبد الله بن عمر بامخرمه هو: (عمر بن موسى المحمدي) انظر تاريخ الشحر لبافقيه ص١٠٢.



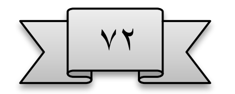
يعزو آخرون النصر لشجاعة الأمير (مرجان الظافري) وبسالته واندفاعه كالبرق في وجه أعدائه(١). وفي سجلات البوكيرك ان قوات الظافري كادت تنهزم وتنسحب من المعركة لولا ان (ابن مافرس، وابن المهيري) حثاه على الصمود والمقاومة(٢).

وقد تكبد البرتغاليون في هذه المعركة خسائر فادحة في الأرواح منهم عدد من كبار ضباط الحملة(٣). مما اضطروا للانسحاب من المعركة إلى حين يستعيدوا أنفاسهم ويعيدوا ترتيب صفوفهم من جديد. وكان عدد مقاتليهم المشاركين في هذه المعركة يزيد عن الألفين مقاتل وهم مسلحون تسليحاً جيداً(٤). واشار المؤرخ الحضرمي المعاصر للحملة (احمد شنبل) (ت: ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م) إلى ان قتلى البرتغاليين (١٠٠) و(٥٠) من العدانية (حسب قوله)(٥).

وكانتقام لقتلاهم قام البرتغاليون أثناء مغادرتهم ميناء عدن بحرق (٤٠) مركبا ليغادروها متجهين إلى الحديدة. ولم يتمكنوا من دخولها فاتجهوا إلى كمران حيث انتقموا من أهلها اشد انتقام وأزهقت فيها أرواح الكثير من الأبرياء. كما عملوا على تدمير البيوت والمساجد ودفن آبار الشرب. وأثناء مكوثهم بجزيرة كمران (قرابة الأربعين يوماً) أرسلوا سفينتين إلى ميناء زيلع

---

١ - بامخرمة، قلادة النحر (٥٦٧/٦).
٢ - حنظل، العرب والبرتغال ص٢٢٢.
٣ - ذكر الفونسو البوكيرك في مذكراته ان من قتل من قياداته في تلك المعركة هم جورج دي سيلفيرا، جراسيا دي سوزا. وعدد من السرايا. انظر سجل الأعمال الكاملة لالفونسو دا البوكيرك، مرجع سابق (٣-٤/ ٤٦٧)؛ حنظل، العرب والبرتغال ص٢٢٣.
٤ - بافقيه، الطيب محمد بن عمر، تاريخ الشحر ص١٠٢ – ١٠٣.
٥ - شنبل، تاريخ حضرموت ص٢٥٥.



بالبر الإفريقي واحرقوا فيه قرابة ١٠ مراكب. ليغادروا الميناء وينضموا إلى أسطولهم بكمران.

غادر البرتغاليون كمران بعد إقامتهم فيها من أوائل شهر صفر وحتى منتصف جمادى الأول ليعاودوا هجومهم الثاني على عدن (١) فوصلوها بتاريخ الجمعة ١٨ جمادى الأول ٩١٩هـ/ ١٥١٣م وعلى الفور باشروا المدينة بإطلاق قذائف مدافعهم من على سفنهم دون أن يتجرأ أحد منهم للنزول إلى الشاطئ. في حين رد المقاومون بقذائف مدافعهم واستطاعوا هذه المرة تدمير عدد من السفن البرتغالية فلاذوا بعدها بالفرار باتجاه هرمز والهند يجرون خلفهم أذيال الهزيمة.

١ - في تاريخ الشحر لباسنجله ان البرتغاليون وبعد مغادرتهم كمران مروا بعدن وجاوزوها.. انظر ص٣٥. وتبعه الطيب بافقيه في تاريخ الشحر وأشار إلى ان قائد الحملة البرتغالية (عين البقر) انظر ص١٠٣، وانظر شرف الدين، عيسى، روح الروح ص٢٩.

بداية الصراع الطاهري المملوكي العثماني

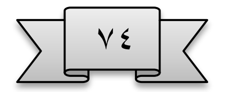
وفي هذه الفترة (بداية العقد الثالث من القرن العاشر الهجري) بدأت طلائع الحملة المملوكية/ العثمانية التي اشرنا إليها سابقا بقيادة حسين الكردي والريس سلمان الرومي تلوح في الأفق بعد مغادرتها ميناء جدة وذلك بوصولها جزيرة كمران سنة ٩٢١هـ/١٥١٥م والشروع بتحصينها من الهجمات. وهي فترة حرجة طال أمدها وتأذت من تأخرها الكثير من الشعوب والبلدان الإسلامية المطلة على المحيط الهندي والبحر الأحمر. وقد زاد من أذيتها ان هذه الحملة كما أشرت سابقاً وبدلا من أن تنطلق لتحقيق هدفها في مطاردة البرتغاليين وطردهم من المياه الإقليمية العربية والإسلامية وبالتالي تخليص العالم الإسلامي من شرهم. تورطت في مشاكل وحروب لا تنتهي سواء في الحجاز أو اليمن.

ومن المحتمل ان تكون العلاقة التي بدأت تسوء بين المماليك والعثمانيين أثراً على علاقة قائدي الحملة (حسين الكردي) الموالي للمماليك و (سلمان ريس) الموالي للعثمانيين ببعضهما. وانعكاس ذلك على قرارتهم وتقديراتهم للمواقف.

وفي هذه الفترة بالذات بدأ يظهر في ساحات المعارك سلاح جديد لم يكن معروفاً من قبل وهو سلاح (البندق أبو فتيلة) وكان الجيش العثماني الأكثر حظاً في حيازته واستعماله. ولعل هذا ما ساعد العثمانيين على حسم الكثير من معاركهم سواء كانت تلك المعارك التي خاضوها مع المماليك في الشام ومصر أو تلك المعارك التي خاضوها في الحجاز واليمن. إلا أن هذا السلاح سرعان ما انتشر وأصبح هو السمة البارزة لسلاح المشاة والفرسان والحاسم في المعارك البرية(١).

---

١ - وقد اشار المؤرخ عيسى بن لطف الله شرف الدين في كتابه روح الروح فيما حدث بعض المائة التاسعة من الفتن والفتوح إلى ان المماليك عندما قدموا اليمن بقيادة حسين الكردي في حملتهم



وقد وصف لنا المؤرخ اليمني ابن الديبع هذا السلاح وأول وصوله اليمن على أيدي الجنود العثمانيين حين كتب يقول: ((أكثرهم من رماة البندق (يقصد جنود سلمان الرومي) وهو شيء عجيب، لا يكاد أحد يقاتل أصحابه إلا غُلب. وهو شيء شبه المدفع، إلا أنه أطول منه وأدق، مجوف، ويجعل في جوفه قطعة رصاص كحبة النبق، ويحشى من البارود، ويدفع بنار في فتيلة، من أسفل البندقية. فلا يصيب احد إلا هلك أو كاد. وربما أصابت البندقة شخصا ونفذت منه إلى آخر فقتلتهما))(١).

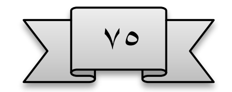
ففي يوم الأربعاء ٧ ذو القعدة ٩٢١هـ/ ديسمبر ١٥١٥م وصل التجهيز المملوكي/ العثماني جزيرة كمران من دون علم السلطان (عامر بن عبد الوهاب) والذي ارتاب من حقيقة أهداف هذه القوة ونواياها(٢). وشجعه في ارتيابه هذا بعض وزرائه ومستشاريه فأعطى أوامره بحجب المساعدات والمؤن التي أعدها مسبقاً لهذه الحملة. ولما طالت فترة مكوث قادة هذه الحملة على سواحل البحر الأحمر من دون مؤن. اضطروا لمهاجمة بعض المدن والموانئ اليمنية في الحديدة وتعز وكمران للحصول على المؤن والتزود بالماء والخشب.

ان تلك التصرفات التي قام بها قادة الحملة أكدت شكوك السلطان عامر بن عبد الوهاب وارتيابه في صدق نوايا هذه الحملة وتورط قادتها في صراعه مع أعدائه التقليديين (الزيود) وان هذه القوة عملت على دعمهم بالأسلحة بل

لنصرة مسلمي الهند سنة ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م كانوا يحملون البنادق. انظر المرجع المذكور، مؤسسة عبادي للدراسات والنشر، ط١، ٢٠٠٣م، ص٢٢.

١ - الفضل المزيد ص٣٦١.

٢ - للمزيد عن أخبار هذه الحملة انظر ابن الديبع، الفضل المزيد ص٣٥٨ وما بعدها. حنظل، العرب والبرتغال ص٢٥٢.



وتزويدهم بالمقاتلين من حملة البنادق(١). فضلا عما أحدثوه من قبل في الحجاز من مشاكل. وهي أمور جعلت من السلطان عامر يحجب عن مساعدتهم في اللحظات الاخيرة. كما اصدر تعليماته لجنوده بمقاومتهم ومحاربتهم ان تطلب منهم ذلك.

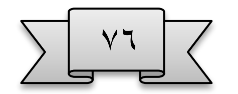
وفي تاريخ ١٣ رجب ٩٢٢هـ/ أغسطس ١٥١٦م وصل هذا الأسطول المملوكي/ العثماني عدن وكان يضم كما في بعض المصادر ١٩ غراب وبرشتين كما ضم جنودا من المصريين والعثمانيين والمغاربة والحجازيين والزيلعيين ومن قبائل يافع بعد ان ساءت علاقة هؤلاء الاخيرين مع السطان عامر. وقد طلبت الحملة من الأمير (مرجان الظافري) تزويدهم بالمؤن والعتاد إلا ان هذا الأخير رفض التعاون معهم أو تزويدهم بما يحتاجونه.

وهذا أدى إلى ان تسوء العلاقة أكثر بين الدولة الطاهرية من جهة وبين قادة هذه الحملة من جهة أخرى. والتي تطورت إلى مناوشات بين الطرفين فمعارك محتدة أزهقت فيها الكثير من أرواح الأبرياء. إلا ان دفاع الطاهريين عن عدن ساهم في ردع الهجوم وإحباطه(٢). ولم تفلح بعد هذه التطورات أية محاولات الصلح بين الطرفين.

ونود الإشارة هنا وكما دلت عليه بعض المصادر المحلية، فان السلطان عامر بن عبد الوهاب وبسبب هذا الصراع بدأ يفقد الكثير من مناطقه ورجاله مما اضطره للاستعانة بجنود من قبائل المهرة. وعلى الرغم من تقليل البعض من شأن هذه القوة الجديدة إلا ان الأحداث التي تلتها أكدت على صمود هذه القوة

١ - نود الإشارة هنا إلى ان من زود الزيود بالأسلحة والمقاتلين هو الأمير حسين الكردي، بعد ان أمدهم بمائتي مقاتل. المرجع السابق ص٣٦٠. وللإطلاع على الرسائل المتبادلة بين الإمام شرف الدين وحسين الكردي انظر، عيسى بن لطف الله، روح الروح ص٣٢.

٢ - بامخرمة، قلادة النحر (٥٧٧/٦)؛ الفضل المزيد ص٣٦٥؛ بافقيه تاريخ الشحر ص١١٥.



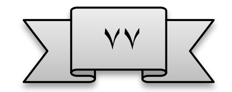
إلى جانب السلطان عامر في الوقت الذي تخلى عنه الكثير من أتباعه وجنوده الفعليين(١).

اما الحضارمة (الدولة الكثيرية) فموقفها على ما يبدو من هذا الصراع الطارئ يتمثل في انحيازها أكثر للعثمانيين على حساب الدولة الطاهرية التي ارتبطوا معها بعلاقات متينة استمرت لعقود. وان كان هذا الموقف غير واضح تماماً لقلة المصادر. إلا ان انحياز الحضارمة للعثمانيين تعزز لاحقا بعد مقتل السلطان عامر بن عبد الوهاب سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م (٢). وقد سبق واشرنا إلى زيارة السلطان محمد بن عبد الله الكثيري للحج ولقائه بالأمير سلمان ريس. كما أشارت بعض المصادر في فترات لاحقة إلى إرسال بدر أبي طويرق مساعدات للعثمانيين المحاصرين في عدن من قبل القوات الزيدية. وكان القائد العثماني على عدن (مصفى آغا)(٣).

اما عن الحضارمة المتواجدين في عدن منهم من كانوا قضاة وفقهاء ورجال دولة في سلطة الكثيريين. فقد ظلوا على ولائهم وانحيازهم للدولة الطاهرية منهم على سبيل المثال الفقيه العلامة (محمد بن عمر بحرق) (ت: ٩٣٠هـ/١٥٢٣م)(٤) والذي غادر مدينة الشحر ومنصبه الرفيع في القضاء للتوجه إلى الدولة الطاهرية(٥). وكان من المقربين من امير عدن (مرجان الظافري). فقد أشارت بعض المصادر المحلية ان مرجان الظافري طلب من الفقيه بحرق ان يصيغ

---

١ - بامخرمة، مرجع سابق (٥٨١/٦)؛ بافقيه، تاريخ الشحر ص١٢٤.
٢ - توفي السلطان عامر بن عبد الوهاب يوم الخميس ٢٤ ربيع أول ٩٢٣هـ/ ١٥ ابريل ١٥١٧م انظر تفصيل خبر موته بافقيه، تاريخ الشحر ص١٢٤.
٣ - البرق اليماني في الفتح العثماني ص١٩٠.
٤ - انظر ترجمته بافقيه، تاريخ الشحر ص١٦٤.
٥ - اشار مصنف السناء الباهر الى ان امير الشحر مطران بن منصور كان يبغض الفقيه بحرق ويضايقه. انظر الشلي، السناء الباهر ص٢١٤.



بخط يده الجميل ((رسالة مزورة)) للسلطان العثماني (سليم الأول) على لسان السلطان (عامر بن عبد الوهاب) (هذا بعد مقتله) يخبره فيها بما فعله أصحابه (الكردي وسلمان) من سفك للدماء وتدمير للبيوت ونهب لأموال الناس. وسنأتي إليها(١). كما سبق واشرنا إلى الشيخ (عثمان العمودي) وانضمامه لحملة السلطان عامر بن عبد الوهاب لمحاربة البرتغاليين.

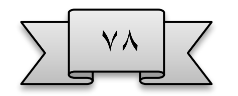
ومن الممكن أيضاً ان يكون من أنصار هذا الاتجاه المنحاز للدولة الطاهرية، الفقيه الصوفي عمر بن عبد الله بامخرمة (٨٨٤ - ٩٥٢هـ/ ١٤٧٩ - ١٥٤٥م)(٢). فقد غادر الشيخ بامخرمة مدينة الشحر في ربيع أول سنة ٩٢٢هـ/ ابريل عام ١٥١٦م وبصحبته ابنه الفتي الفقيه عبد الله متوجها إلى مدينة عدن! ولا ندري عن سبب ذهابه هناك؟! أو كم الفترة التي مكث فيها في عدن؟! أو ما الذي فعله فيها؟! أو متى كان رجوعه؟! ولكن بعض المصادر أشارت إلى ان رجوع ابنه الفقيه عبد الله كان بعد انقضاء سنة كاملة من سفره بصحبة والده. عاد الأبن (عبدالله) لمدينته الشحر في ربيع أول سنة ٩٢٣هـ/ ابريل ١٥١٧م(٣). ومن المعروف عن الفقيه الصوفي عمر بامخرمة ولعه بالسياسة وهذا ينافي مزاعم البعض بعزوف المتصوفة عن السياسة. وقد دخل لاحقاً في مصادمات مع سلطان حضرموت بدر الكثيري لوقوفه الى جانب منافسه في الحكم وهو علي بن عمر بن جعفر الكثيري ابن عم السلطان بدر. كما ان مدينتي عدن وزبيد في تلك الفترة تكاد تكون منتجعا لرجال الفقه والتصوف لما يجدوه من حفاوة وتبجيل وتكريم من سلاطينها وأمرائها ورجالاتها. ومن يتتبع كتب التراجم الحضرمية او

---

١ - انظر خبرها بامخرمة، قلادة النحر (٦/ ٥٨٥).

٢ - للمزيد عنه انظر بن عقيل، عبد الرحمن جعفر، عمر بامخرمة السيباني، حياته وتصوفه وشعره، دار الفكر، دمشق، ط١، ٢٠٠٠م.

٣ - باسنجله، تاريخ الشحر ص٣٦ – ٣٧.



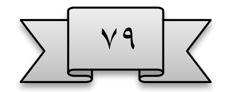
اليمنية سيحظى بأسماء العشرات من الاعلام الحضرمية ممن ولدوا او عاشوا في تلك البقاع التي عجت بهم.

وممن كان لهم أدوارا فعلية إلى جانب الطاهريين ألتمسنا أسماء بعضهم من المراجع التي بحوزتنا نشير إلى الشيخ (عبدالله بن شيخ العيدروس)(١) والفقيه (عبدالله بن محمد بن أحمد بافضل) والشيخ (عبد القادر بن محمد العمودي) والشيخ (عبدالكريم بانافع) وهذا الاخير تم إرساله الى حضرموت لإقناع الدولة الكثيرية إرسال جزء من جنودها للمساهمة في حماية عدن من هجمات البرتغاليين(٢).

ونود ان ننوه هنا فأن زمام الدولة الكثيرية في هذه الفترة (رسمياً) كانت بيد السلطان (محمد بن عبدالله الكثيري) والمعروف عنه محافظته على الطريقة التقليدية في السياسة والإدارة والتمسك بعلاقاته ووعوده التي يقطعها مع الغير. على العكس من اخيه السلطان بدر الاكثر تحرراً وتقلباً في مواقفه السياسية إلى حيثما تكون المصلحة والغاية عنده تبرر الوسيلة. لذلك فسياسة الاول كانت متمسكة بعلاقاته القديمة مع الطاهريين اما الثاني فكانت منحازة إلى من يملك المدفع والبندقية ونقصد بهم العثمانيين و(البرتغاليين).

١ - اشار المؤرخ بامطرف في هامش كتابه الشهداء السبعة ان الامير عامر بن داؤد الطاهري حاكم عدن استعان بالسيد عبد الله بن شيخ العيدروس ليستعمل نفوذه في تجنيد بعض رجال المشرق للخدمة في عدن. واشار بامطرف الى ان معلومته هذه استقاها من كتاب المشرع الروي (٢/ ١٧٥) لمحمد بن ابي بكر الشلي. انظر الشهداء السبعة ط١، ص١٠٤؛ بافقيه، تاريخ الشحر ص٢٣١.

٢ - الجعيدي، السلطنة الكثيرية الاولى ص١٢٧.



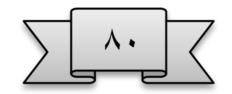
المهادنة بين الطاهريين والبرتغاليين

من الواضح ان البرتغاليين في تلك الفترة كانوا يراقبون عن كثب تطورات الأوضاع في عدن وما حدث فيها من معارك بين الدولة الطاهرية من جهة والعثمانيين من جهة أخرى وانسحاب الأخيرين إلى جدة بعد ان فشلت محاولاتهم السيطرة على عدن.

لم يتأخر البرتغاليون لاستغلال هذا الوضع إذ سرعان ما قدموا بسفنهم وأساطيلهم (٣٠ سفينة ما بين برشة وغراب) إلى ميناء عدن رافعين أعلام المهادنة والسلام عارضين للطاهريين الدعم والمساعدة ضد العثمانيين وربما حتى مساعدتهم في قمع التمردات الداخلية.

كان قائد هذا الأسطول هو البرتغالي (لوبو سواريز) المعروف عنه ميله لسياسة المهادنة والليونة مع العرب والدخول معهم في علاقات تجارية متبادلة. وقد استقبله وبحفاوة كبيرة الأمير (مرجان الظافري) والذي قدم له كل ما يحتاجه من مؤن وطعام بل وزوده بربابنة مهرة يعرفون جيدا مسالك البحر الأحمر بعد ان تم اغراء الربابنة بالمال بل وأرغم الرافضين منهم على القيام بتلك المهمة المحرجة والتي قد تستهدف ليس الأسطول العثماني وحده وانما حتى الأماكن المقدسة بالحجاز(١). وكان هذا سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م. وببعض المراجع وصول البرتغاليين

١ - بامخرمة، قلادة النحر (٥٨٤/٦)؛ الصراع البرتغالي العثماني ص١٥٣؛ وقد أشار إلى هذه الحادثة المؤرخ الشحري محمد بن عمر بافقيه في كتابه تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر وأوضح ان الأسطول البرتغالي وصل أول أمره عدن في (٣٠ خشبة مابين غربان وبرش)، وان الأمير الطاهري مرجان الظافري قدم لهم كل ما يحتاجونه من مؤن، بل وزودهم بربابنة يرشدونهم في مسالك البحر الأحمر لبلوغ جده. انظر تفاصيلها بافقيه، محمد بن عمر، تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر ص١٣٣.

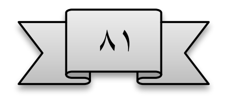


عدن كان في ٤ فبراير ١٥١٦م(١). وقد دار كثير من الجدل حول موقف الظافري هذا ، وهناك من ألتمس له العذر(٢).

وفي احد الوثائق العثمانية رسالة من الأمير (سلمان ريس) قائد الحملة العثمانية الى جانب شريكه القائد المملوكي (حسين الكردي) موجهه إلى السلطان العثماني سليم الأول(٣) يشرح له فيها مستجدات الأوضاع في الحجاز واليمن وما قد تحقق من مهمته وتبرير ما اخفق فيها. وفي ذيلها يتهم الطاهريين بالتواطؤ مع البرتغاليين ومساعدتهم. مشيراً فيها إلى ان البرتغاليين باتوا مهددين الأماكن المقدسة بالحجاز. طالبا من السلطان العثماني أمداده بالرجال والسلاح لقلة مالديه من إمكانيات(٤).

من المحتمل ان تكون هذه الرسالة التي بعثها الأمير سلمان بمثابة رد فعل للرسالة السابقة التي بعثها الأمير مرجان الظافري على لسان السلطان عامر بن عبد الوهاب بخط يد الفقيه محمد بحرق. فقد أشارت بعض المصادر الى وصول تلك الرسالة للسلطان العثماني سليم الأول وانه ابدأ تفهماً كبيراً لما فعله أصحابه. وانه أرسل جوابا جيداً للأمير عامر يطمئنه فيها مع ارساله هدايا له. وان هذا الجواب (الرسالة) والهدايا تم الاستيلاء عليها من قبل بعض العثمانيين المتمركزين في جزيرة كمران أثناء عودة الوفد من اسطنبول(٥).

١ - الجعيدي، عبد الله، السلطنة الكثيرية الاولى ص١٢٧.
٢ - انظر الجعيدي، المرجع السابق ص ١٢٨؛ لقمان، حمزة علي، تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية ص١١٠؛ حنظل، العرب والبرتغال ص٢٥٣-٢٦٠.
٣ - خليل، د. محمد محمود، وثائق بحرية عن قبودان السويس والدور العثماني في مواجهة البرتغاليين. ص٢٣٢- ٢٣٤. والرسالة او الوثيقة كما هو مبين تحمل رقم (٧٣)، دفتر المهمة، الديوان الهمايوني: حكم رقم ٨٣٣٧، التاريخ ٢٥ ربيع الاول سنة ٩٢٣هـ. الراسل سلمان باشا ريس. المرسل له السلطان العثماني.
٤ - المرجع السابق.
٥ - قلادة النحر (٦/ ٥٨٥).



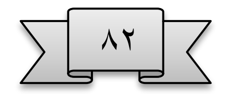
اما الأسطول البرتغالي فما ان وصل إلى جدة بعد مغادرته عدن حتى تفاجأ بتحصيناتها واستعدادات العثمانيين له. واستطاع (سلمان ريس) مواجهتهم ببراعة فائقة والقيام بمناورة مذهلة بسفينته (تسانده كما ببعض المراجع سفينة اخرى)، أخافت البرتغاليين واضطرتهم للانسحاب. لتتم مطاردتهم والاستيلاء على احد سفنهم وأسر بحارتها(١). اما بقية الأسطول البرتغالي فواصل فراره إلى ان وصل إلى عدن حيث كان في استقبالهم مجددا الأمير (مرجان الظافري) والذي قدم لهم ما كل يحتاجونه من مؤن مقابل استفكاك بعض أسرى مسلمين على مايبدو تم أسرهم أثناء فرارهم إلى عدن. ليغادر هذا الأسطول عدن مبحرا في طريق هرمز(٢).

ان مثل هذا التكتيك الدبلوماسي في التعامل مع البرتغاليين أتبعه فيما بعد السلطان بدر الكثيري (أبو طويرق) وسنأتي لتفاصيله في الفصل الثالث.

وعلى ما يبدو فان العلاقة الجديدة بين الطاهريين والبرتغاليين قد أثمرت، حيث أصبحت السفن التجارية المبحرة من عدن باتجاه الهند بمأمن من ان يتعرض لها أحد. وكذلك السفن القادمة من الهند. وخاصة التابعة للطاهريين أو تلك التي تحمل تصاريح من قبلهم. ففي سنة ٩٢٥هـ/١٥١٩م على سبيل المثال وصلت ميناء عدن عدة سفن قادمة من الهند محملة بمختلف المواد الغذائية وتسببت برخص الأسعار(٣).

وفي سنة ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م وصل أسطول برتغالي فيه ((نيف وعشرون خشبة ما بين غارب وغليون وبرشة وفيها برشة كبيرة جدا فيها غالب أموالهم وزادهم ومدافعهم. وكان غرضهم الوصول إلى بندر عدن. وغلط معلمهم ووقع مندخه على

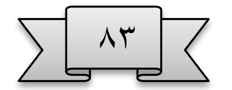
١ - بافقيه، تاريخ الشحر ص١٣٣.
٢ - المرجع السابق ص١٣٤.
٣ - قلادة النحر (٦/ ٥٨٩).



العارة والريح أزيب لم يمكنهم معه الرجوع إلى عدن. وعربت عليهم البرشة الكبيرة فحملوا ما خف منها إلى بقية الخشب وتركوها وتوجهوا بزعمهم إلى جدة....))(١).

ولم تنتهِ الأحداث في عدن والبحر الأحمر بعد اتفاقات الصلح بين الطاهريين والبرتغاليين وعودة الهدوء النسبي لمياه بحر العرب وخليج عدن. فسرعان ما عادت الأمور إلى الفوضى في صراعات داخلية وصراعات مع العثمانيين. وسرعان ما عاد البرتغاليون إلى سابق عهدهم في السلب والنهب. ولكن هذه المرة بدأ الدور الحضرمي يلوح في الأفق ويدخل في خط المواجهة المباشرة مع البرتغاليين والعثمانيين أيضاً. وهذا سوف نتناوله في الفصل القادم.

١ - المرجع السابق (٦/ ٥٩١).



الفصل الثالث

البرتغاليون قبالة السواحل الحضرميَّة

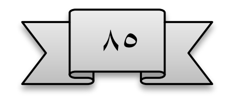
بامطرف وكتابه "الشهداء السبعة"

قبيل الحديث عن التواجد البرتغالي على سواحل حضرموت ومقاومة الأهالي له أو كيف تعاملوا مع اعتداءاتهم وتطاولهم على سيادة البلاد. وقبيل الحديث عن المقاومة الباسلة التي سطرها أهالي مدينة الشحر في تصديهم لاعتداءات البرتغاليين. يجب أن نتوقف لحظات لاستجلاء بعض الهرج والمرج الذي أثير في مرحلة متأخرة من نشر المؤرخ محمد عبد القادر بامطرف كتابه الأثير الموسوم بـ(الشهداء السبعة)(١) والذي سطر فيه تفاصيل الملحمة البطولية التي خاضها أهالي مدينة الشحر وماحواليها في تصديهم للاعتداء البرتغالي الذي شن عليهم سنة ٩٢٩هـ/ ١٥٢٣م. وهي الواقعة التي اشتهرت بأسم (الشهداء السبعة). حيث شكك البعض في هذه الحادثة واتهموا المؤرخ بامطرف أنها من نسج خياله وانه يكذب فيها وغيرها من اتهامات باطلة لا ترقى حتى لمصاف النقد وأصوله. وانه (أي بامطرف) حاول ان يدمج في مصنفه السالف الذكر الواقع بالخيال وان ما تظمنه كتابه الرائع يصنف ضمن مجال الأدب القصصي وليس مجال التاريخ. وهم في هذا يهدفون لضرب نزاهة وأمانة المؤرخ بامطرف ونزع الثقة منه وليس عن هذا الكتاب فقط وانما عن كل عن كتاباته الملهمة والقيّمة.

وهناك أيضاً من قلل من شأن هذه الحادثة واتهم أهلها بالجبن وان بامطرف بالغ في رسم شجاعة أبناء الشحر بحكم انتمائه للمدينة وغيرها من اتهامات فاقدة للحجج والبراهين وهي أقرب لأن تكون مجرد شرشرة كلام وتشويش متعمد لأحداث تاريخية لا يمكن لأحد إنكارها.

---

١ - صدر الكتاب لاول مرة باشراف وزارة الثقافة والسياحة جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية بالتعاون مع حكومة الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٤م. ثم اعيد طباعته عن طريق دار الهمداني، عدن. سنة ١٩٨٣م.



وعليه فضلت هنا ان أقف عند هذه المسألة ولو قليلا وأفند بعض ما أثير عنها من شكوك، معتمدا على الأدلة التاريخية والشواهد الدامغة التي لا يستطيع عاقل إنكارها. خاصة وان المرحوم بامطرف قد أنتقل لجوار ربه ولا يمكنه الرد على أي شبهات تثار هنا او هناك(١). وللعلم لست هنا في موقع المدافع عنه أو المحامي فالمؤرخ بامطرف لا يحتاج من أحد ان يدافع عنه فكتاباته المتنوعة لخير شاهد على غزارة علمه وأمانته وموضوعيته وكفى.

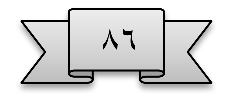
وما هذه إلا محاولة مني لدرء الشبهات وإغلاق هذا الباب الذي لطالما تردد في نقاشات العوام وبين أنصاف المثقفين ما بين تهويل أو تقليل من قيمة ذلك الحدث الملحمي وكلا يهرف بما لا يعرف لدرجة ان اصبحت تلك الملحمة اقرب لأن تكون في نظر البعض حديث خرافة.

ولو ان هذا الأمر اقتصر على مجرد أحاديث عابرة في الأسمار أو دردشات المقاهي والغرف. لما اهتمينا لأمرها. ولكن ان يأتي ويتبناها بعض أنصاف المثقفين ويصول ويجول فيما لا طائل منه. ويقلل من قيمة الحادثة ويهاجم فيها المؤرخ بامطرف. لا لشيء، إلا لغرض في نفسه وينشر هذا في الكتب والمجلات لتتداوله من بعده الركبان تصديقا لما يقول. فهذا ما لا يمكن ان نرضى به والساكت عن الحق شيطان أخرس. وان من واجبنا الأخلاقي وضميرنا الإنساني ان ننصف هذا الرجل الذي حُرم من الدفاع عن نفسه ونرد عنه كيد الكائدين وبالحق والحجة وهذا أقل ما يمكن ان نقدمه لأستاذنا وقدوتنا ومؤرخنا محمد عبد القادر بامطرف.

وبناء عليه سأتعرض هنا لبعض ما يطرح والرد عليها بإيجاز. تاركاً تفاصيل الأحداث لما سأطرحه عن هذه الحادثة (الهجوم البرتغالي الاول) في

---

١ - توفي الفقيد المؤرخ محمد عبد القادر بامطرف سنة ١٩٨٨م. عن عمر ناهز ٧٣ عاماً.



الصفحات القادمة مع الإشارة انني لن ألجأ كثيراً للاستعانة بما قدمه المؤرخ بامطرف في كتابه الشهداء السبعة. وانما لمصادر ومراجع اخرى. وليس هذا تقليلا من شأنها وانما تأكيداً بأن ما قدمه بامطرف ليس من بنات افكاره وابتداعات خياله وانما هو واقعا اشارت اليه مختلف المصادر والمراجع.

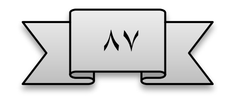
أولاً: من حيث الواقعة التاريخية لاعتداءات البرتغاليين على مدينة الشحر سنة ٩٢٩هـ/ ١٥٢٣م فهذه ثابته تاريخيا لا يمكن لأحد إنكارها وقد أشارت لها الكثير من المصادر بعضها كان معاصرا لها وآخرين جاءوا بعدها بقليل. وجميعهم كانوا سابقين على بامطرف في إثباتها(١). وهناك مؤرخون آخرون معاصرون لبامطرف(٢) ومنهم من جاء بعده اثبتوا جميعاً تلك الواقعة وأفاضوا فيها بصورة أو أخرى(٣).

ثانياً: عدم ذكر هذه الحادثة أو غيرها من الحوادث في المصادر البرتغالية والتي ترجم البعض منها للعربية لا يعني عدم حدوثها. فثمة الكثير من السجلات الموضوعة في الأرشيف البرتغالي لم تظهر للنور بعد أو تترجم للعربية. ومثلها في هذا الكثير من الأحداث التي وقعت مع البرتغاليين في هرمز أو سقطرى أو البحرين أو عدن وغيرها لم تذكرها المصادر البرتغالية في حين أشارت لها

١ - منهم على سبيل المثال لا الحصر: المؤرخ عبد الله باسنجله، صاحب تاريخ الشحر المسمى العقد الثمين الفاخر (ت: ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م) المؤرخ محمد بن عمر الطيب بافقيه وكتابه تاريخ الشحر واخبار القرن العاشر، المؤرخ عبد القادر بن شيخ العيدروس صاحب النور السافر. المؤرخ سالم بن محمد بن حميد وكتابه العدة المفيدة.

٢ - منهم المؤرخ عبد الله بن محمد باحسن جمل اليل ومصنفه نشر النفحات المسكية في اخبار الشحر المحمية، والمؤرخ محمد بن هاشم ومصنفه تاريخ الدولة الكثيرية. والمؤرخ سعيد عوض باوزير وكتابه صفحات من التاريخ الحضرمي، روبرت سارجنت، البرتغاليون قبالة ساحل جنوب بلاد العرب. وغيرهم.

٣ - الجعيدي، عبد الله، السلطنة الكثيرية الاولى.



وأكدتها المصادر المحلية المعاصرة لها. واحياناً يكون العكس كان تذكر وقائعها المصادر المحلية في حين تتحاشى ذكرها المصادر البرتغالية.

ان تلك المصادر (البرتغالية) كما هو ملاحظ انما اهتمت بتدوين وتوثيق البدايات الأولى للتواجد البرتغالي في المنطقة وأول الحملات التي قاموا بها للسيطرة على البلدان والموانئ. وهي فترة لم تصل فيها السفن البرتغالية إلى سواحل حضرموت. وهذا سنبينه في الفقرة التالية. حيث ظلت حضرموت بمنأى عن السفن البرتغالية لعدم وقوع البلاد على خط سيرهم الملاحي المباشر. وبالتالي فمن الطبيعي ان يغيب ذكرها من مدونات مغامريهم ومرافقي أساطيلهم الأوائل. وهذا على العكس مع جزيرة سقطرى على سبيل المثال والتي كانت هدفاً مباشراً لهم منذ بدء تواجدهم في المحيط الهندي.

وبامطرف في كتابه وبعد الرجوع إليه وجدناه يستقي غالب معلوماته من مصادرها سواء البرتغالية المترجمة للعربية او تلك الانجليزية او من مصادر ومراجع عربية مختلفة. مع العلم ان غالبية المصادر المحلية (المعاصرة) التي استقى منها بامطرف معلوماته أثناء كتابته لكتابه "الشهداء السبعة" كانت مجهولة للكثير لأنها كانت مجرد مخطوطات حبيسة المخازن والصناديق لا يعلم أحد شيئاً عنها. كما لم تنشر أو تخضع للتحقيق في وقته. إلا ان بامطرف وسعة بحثه، حاول جاهدا الاطلاع على تلك المخطوطات والإلمام بمحتواها والتعريف بها. لما لهذا الأمر من جهد وعناء وإرهاق شديد قلَّ أن يوجد في مؤرخ مثله. هذا فضلاً عن ان المصادر المحلية، تعد من كتب الحوليات التي تهتم بذكر أهم الأحداث ووفيات الأعيان وهي ((لا تعطي سوى القليل من المعلومات المعزولة بعضها عن بعض.

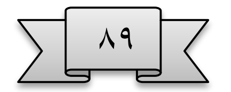
وعلاوة على ذلك فهي شحيحة في ذكر أسباب الحوادث التاريخية وبالتالي نتائجها))(١).

ثالثاً: ان بعض الأحداث الواقعة التي سجلت في المصادر البرتغالية تنطلق من رؤية برتغالية عنصرية بحته للحدث تحاول ان تزيف الواقع وتظهر البرتغاليين في صورة المنقذ والمنتصر دائماً. وليس كما هو حاصل في أرض الواقع. وخاصة فيما يتعلق بأهداف حملاتهم الصليبية الإستعمارية أو عند تبرير وحشيتهم وانتهاكاتهم للإنسانية أو فيما يتعلق بالتقليل من هزائمهم وخسائرهم. وقد تعمدوا إغفال العديد من الأحداث التي وقعت في الشرق وباعترافهم أنفسهم.

رابعاً: ان ما قام به أبناء مدينة الشحر في الدفاع عن مدينتهم وتصديهم للاعتداءات البرتغالية بشجاعة وبسالة ليس بدعا من البدع أو حكرا على أبناء المدينة دون سواهم من العرب حتى يقال ان بامطرف أراد أن يتباهى ويتفاخر بأهله ومدينته فأخترع لهم هذه الحكاية. بينما الحقيقة تؤكد أن ما قام به أبناء المدينة من بطولات تكاد تكون طبع وسجية محفورة في قلب ووجدان كل حر شريف يرفض المحتل أياً كانت جنسيته أو ديانته أو لونه. ففي كل منطقة وبلد وطأتها أقدام البرتغاليين لاحتلالها (عربية أو غير عربية، مسلمة أو غير مسلمة) إلا ومقاومة الشعوب لهذا المعتدي الغازي حاضرة وهي التي تستقبلهم عند ظهورهم وبعد اكتشاف نواياهم. إلا في النادر الشاذ وأسباب ذلك معروفة. وعليه فأن ما قام به أبناء المدينة من شجاعة واستبسال كما ذكره بامطرف يعد أمراً طبيعيا في التعامل مع هكذا حالات وليس خرقا للعادة. كما انه ابرز مقاومة الحضارمة عامة في تلك المواجهات وليس الشحريين وحدهم. بل وتخطاها الى المهرة وعدن وبلدان الخليج وغيرها من اماكن استهدفتها الحملات البرتغالية.

---

١ - الجعيدي، د. عبد الله سعيد، السلطنة الكثيرية الأولى في حضرموت ص١١.



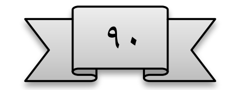
خامساً: فيما يتعلق بتفاصيل الأحداث لبعض الشخصيات التي اوردها بامطرف، كشخصية الفقيه الشهيد احمد بن عبد الرحمن بافضل ودوره، أو الأمير مطران بن منصور القائم بأعمال المدينة نيابة عن سلاطين آل كثير. او السلطان بدر أبي طويرق نفسه او أخيه او شخصيات أخرى عديدة وردت في متون (الشهداء السبعة) انما هي شخصيات حقيقية والأدوار التي قاموا بها أيضاً أدوار حقيقية أشارت إليها العديد من المصادر بصورة مباشرة أو غير مباشرة. وهذا نجده في تراجمهم او ضمن إشارات عنهم تظهر هنا او هناك في تلك المصادر. وما على الباحث الا ان يجمّع كل ما لديه من معلومات عنهم ليكوّن فكرة متكاملة وواضحة عن شخصية كل واحد وما احدثوه في كل مواقف او ما يتوقع منهم حدوثه. وهذا ما فعله المؤرخ بامطرف مستفيدا من حس المؤرخ وحدسه. وقد اشار في مقدمة كتابه الشهداء السبعة بالقول: ((..ولم يكشف التاريخ النقاب عن كل شيء متعلق بالشهداء السبعة، ولم نشعر نحن لدى إعدادنا هذا الكتاب اننا قد أوفينا هذه الحادثة التاريخية الشهيرة حقها من الإيضاح. أو اننا قد اولينا ابطالها الخالدين ما هم جديرون به من انصاف أو اننا ذكرناهم بما هم جديرون به من ثناء وتمجيد..))(١).

أما عن الطابع الدرامي القصصي الذي انتهجه بامطرف في سرده للأحداث فهذا لا يعيب أو يقلل من القيمة التاريخية لعمله. خاصة وان بامطرف إلى جانب كونه مؤرخاً، هو أيضاً أديبا لامعاً له العديد من الروايات والمسرحيات الجيدة. وهناك الكثير من المؤرخين

في تناولهم لا حداث تاريخية معينة او شخصيات عظيمة في التاريخ انتهجوا الأسلوب القصصي دون ان ينتقدهم أحد او يعيب عليهم مسلكهم هذا أو يقلل من

---

١ - بامطرف، الشهداء السبعة، دار الهمداني، ٢، مرجع سابق ص٩.



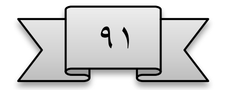
قيمة أعمالهم تلك. والمكتبات مليئة بمثل هكذا مؤلفات. كما ان بامطرف وغيره من مؤرخين حضارمة معاصرين له كسعيد عوض باوزير، محمد بن هاشم العلوي، محمد أحمد الشاطري، صلاح البكري اليافعي وآخرين غيرهم. جميعهم كما يعدهم البروفيسور عبد الله الجعيدي: ((لم يتبعوا الأساليب الحديثه في التدوين التاريخي، فإنهم كانوا مرحلة وسطى بين الأسلوبين القديم والحديث. فقد تجاوزوا نسبياً الأساليب القديمة. وجاءت مؤلفاتهم أكثر تماسكاً ورصانة. وهم بذلك يعدون بحق الرعيل الأول لكتاب تاريخ حضرموت الحديث والمعاصر))(١).

سادساً: الطعن في بعض المصادر التي استقى منها بامطرف معلوماته وخاصة مخطوطتي (بهجة السمر في اخبار بندر سعاد المشتهر) للمؤرخ الربان سالم عوض باسباع (ت: ٩٥٠هـ/ ١٥٤٣م) والآخر (زاد الأسفار في اخبار الشحر وعدن ومالابار) للمؤرخ سعيد بن علي بامعيبد. والزعم بأن هذين الكتابين (المخطوطين) لا وجود لهما بحجة انه لم يشر إليهما او لمؤلفيهما أحد من قبل ممن سبق بامطرف من مؤرخي الاعلام في حضرموت. وبالتالي الادعاء بأن هذين الكتابين انما هما من خلق وابتداع بامطرف الذي ادعى وجودهم والاستعانة بما فيهم كي يسد النقص في الفراغات التي ابتدعها في حكايته (الشهداء السبعة) ليضفي لروايته تلك صفة الواقعية ولتكون اكثر إثارة ودراماتيكية.

في حقيقة الامر وبغض النظر عن وجود او عدم وجود هذين الكتابين. لنقف اولا عن محتواهما وما الذي استعان به بامطرف منهما لنقول انه ابتدع مايحتاجه من معلومات ليسد الفراغ والنقص. فبالعودة الى كتاب الشهداء السبعة والنظر فيما استعان به بامطرف من هذين المصدرين نجد ان غالبيتها مجرد

---

١ - الجعيدي، د. عبد الله، السلطنة الكثيرية الاولى ص١٥.



معلومات ثانوية لتأكيد المؤكد أصلاً ولأعطائه التفصيل الاوضح. كأن يكون المؤكد على سبيل المثال ان نتيجة المعركة سقوط عدد من القتلى والجرحى. فتأتي المعلومة اكثر تفصيلا لتجمل العدد. أو كأن يتم ذكر اسماء لبعض من استشهد او اماكن استشهادهم وغيرها.

ان مثل هذه المعلومات المستقاة من المصدرين، على اهميتها وقيمتها التاريخية الا انها تعد خبر فرعي وليس رئيسي لكي نؤكد بها او ننفي حدث اساساً قد أكدته المصادر بوضوح. وبالتالي فالقول بخلق بامطرف لهذين الكتابين لتدعيم بعض الفراغات. ليس له أي اساس من القوة للأخذ به. ذلك ان مايهمنا اولا اثبات وقائع واحداث تاريخية. اما تفاصيلها فتأتي في المرتبة الثانية.

كما ان القول بعدم وجود هذين المخطوطين في الواقع. لعدم ظهور أي أثر عنهن. فهذا غير كاف لنفيهن. ذلك ان غالبية المصادر التي استقى منها المؤرخ بامطرف معلوماته، كانت اثناء كتابته كتابه "الشهداء السبعة" مخطوطة والكثير لا يعلم عنهن شيئاً ولا عن محتواهن، ثم ظهرن للعيان تباعا. ومن المحتمل ان تظهر في الايام او الاشهر او السنوات القادمة دلائل وجود تلك المصادر الضائعة.

والحيث في مثل هذا كثير ولكن نكتفي بهذا القدر حتى لا نبتعد عن موضوع كتابنا هذا.

البرتغاليون قبالة السواحل الحضرمية

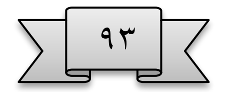
لماذا تأخر التواجد البرتغالي على سواحل حضرموت؟

لا يعرف تحديدا متى كان أول ظهور فعلي للبرتغاليين أمام السواحل الحضرمية. ذلك ان غالبية المصادر المحلية المعاصرة لتلك الأحداث أو القريبة منها اشارت إلى ان أول ظهور فعلي للبرتغاليين على مياه الخليج وبحر العرب كان سنة ٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م ففيها ((ظهرت مراكب الإفرنج في البحر بطريق الهند وهرموز وتلك النواحي وأخذوا سبعة مراكب وقتلوا أهلها وأسروا بعضهم. وهذا أول فعل لهم لعنهم الله تعالى))(١). وتلك المصادر لم تحدد بالضبط مناطق الظهور المبكر هذا. ان كانت سواحل حضرموت على سبيل المثال داخلة ضمن هذا الظهور والذي حدد بـ(طريق الهند وهرموز). ولكن كنتيجة للاحداث التي توالت بعد ذلك التاريخ اتجهت انظار المؤرخين نحو المناطق الأكثر سخونة بعيداً عن السواحل الحضرمية كبلاد الهند ومناطق وجزر الخليج العربي أو عدن سقطرى..الخ. بينما ظلت سواحل حضرموت (لحسن حظها) بمنأى عن أخبار كل تلك الأحداث المبكرة.

ذلك ان طرق الملاحة البحرية التي سلكها البرتغاليون في بداياتهم الأولى أثناء إبحارهم عبر المحيط الهندي للوصول الى الهند، لا تمر بمحاذاة السواحل الحضرمية مباشرة. انما تتخذ مسارها بعد الدوران حول رأس الرجأ الصالح إلى شرق إفريقيا ومن ثم اما مباشرة من ماليندي إلى الهند أو من ماليندي إلى جزيرة سقطرى ومنها أما إلى الخليج العربي أو بلاد الهند والعكس. او من سقطرى إلى خليج عدن بمحاذاة البر الصومالي فوصولاً إلى عدن فالبحر الأحمر. لذلك نرى ان

---

١ - بافقيه، تاريخ الشحر ص٥٩.



معظم الصراع المبكر كان يدور في مناطق هذا المسار. في حين ان مدن وقرى الساحل الحضرمي كما أشرت ظلت بمعزل عن تواجدهم أو اعتداءاتهم المباشرة. فلا عجب هنا ان لم تطرق المصادر المحلية (المعاصرة)، لأية اخبار للبرتغاليين على الشواطئ الحضرمية في بداياتهم الأولى والتي حددناها بقرابة الربع قرن بعد ظهورهم الاول. وبالمثل بالنسبة للمصادر البرتغالية.

هذا جانب ومن جانب آخر جهل البرتغاليين بالمسالك الرئيسية والفرعية التي تسلكها السفن الشراعية الماخرة عباب المحيط الهندي. لذلك نجدهم في أي تحرك لهم يحاولون قدر الإمكان الاستعانة بمرشدين محليين لكي يدلوهم الطرق والمسالك البحرية. كما فعلوه في بداية أمرهم للوصول إلى الهند والاستعانة بربان مسلم يدعى (معلم كانا).

فإذا كان البرتغاليون كما أشرت سابقا يجهلون الطريق البحري من سقطرى إلى الخليج العربي (الاتجاه الشمالي الشرقي) أو من سقطرى إلى خليج عدن (الاتجاه الشمالي الغربي) فضلا عن مسالك البحر الأحمر إلا بعد الإستعانة بمرشدين وربابنة متمرسين. وتلك تعد طرق ملاحة رئيسية (رسمية). فما بال لو كان الأمر مع طرق ملاحة (فرعية) وغير واقعة ضمن مخططاتهم التي رسموا لها بدقة منذ أول تحرك لهم بقيادة (فاسكو داجاما) مرورا بمغامرات (الفونسو دا البوكيرك). ولعل هذا يمكن ان نقدمه كأفضل تفسير لتأخر تواجدهم على سواحل حضرموت.

ونود ان ننوه هنا الى اشارة وردت في كتاب تاريخ الشحر لبافقيه عندما تحدث عن اول ظهور للبرتغاليين في الهند. فبعدما اشار الى ان هذا الظهور كان على رأس السنة التسعمائة من القرن العاشر الهجري. أشار أيضاً بقوله: ((وكذلك أول ظهوره بجهة بر العرب، خذله الله تعالى انه توه بحصن غراب

قريباً من الشحر أو سنة ثمان أو تسع في القرن العاشر))(١) هكذا. فبافقيه قدم لنا في روايته هذه عن أول ظهور لهم بسواحل حضرموت في ثلاثة احتمالات بين ان تكون في سنة ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م أو سنة ٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م أو سنة ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م. وهذه الاحتمالات وفي كل أحوالها تفيد إلى ان هذا الوجود المبكر(سفينة/ سفن) انما كان بالغلط بعد ان (توه) نحو السواحل الحضرمية. و(توه) لفظة محلية تعني انه (أضاع الطريق)(٢) ليصل إلى منطقة حصن الغراب (ميناء قنا) وهذا الموقع حاليا بمحافظة شبوة والتي كانت تاريخيا ضمن إقليم حضرموت.

ومن المحتمل أيضاً ان تكون هذه السفينة الضائعة احدى سفن القائد البرتغالي (فنسنت سودرا) فقد اشارت المصادر البرتغالية ان هذا القائد في ذلك العام (٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م) وبعد ان احرق سفينتين عربيتين بركابها الأحياء امام سواحل مدينة كمبايا الهندية. ابحر بعدة سفن باتجاه البحر العربي وفي نيته تدمير أي سفينة عربية اسلامية يلاقيها. وانه بعد ان تجاوز جزر كوريا موريا هبت عليهم ريح عاصفة أغرقت سفنهم واهلكتهم جميعاً(٣). والمصادر العربية التي اشارت لتلك السفينة الضائعة لم تبين لنا مصير افرادها (المتوهين).

والحديث عن غرق هذا الاسطول والسفينة الضائعة يجرنا للحديث عن غرق اسطول القائد البرتغالي (فرانسيسكو البوكيرك) في السنة التي تلتها بسبب الرياح الشديدة. كما ان حملة القائد البرتغالي (لوبو سواريز دي البركاريا) التي غادرت لشبونه سنة ٩١٠هـ/ ١٥٠٤م في طريقها للهند ان مرت قريبا من السواحل العربية وهناك ألتقت بالقائد (انطونيو دي سلدانا) الذي كان

---

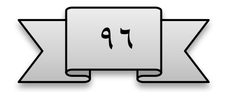
١ - بافقيه، محمد بن عمر، تاريخ الشحر ص٤٧.
٢ - توه: من تاه، أي اضاع الطريق. وقد تعني كمصطلح بحري اضاع الرياح التي تحمل مركبه ليمكث بعيدا عن موطنه (متوه) حتى تعود الرياح لتحمله.
٣ - العرب والبرتغال، مرجع سابق ص١٣٣.

في مهمة ترصد للسفن العربية الاسلامية عند مدخل البحر الاحمر واغراقها(١). وهذا الاخير سيهاجم بأسطوله مدينة الشحر في رمضان سنة ٩٣٨هـ/ ابريل ١٥٣٢م لولا ان تصدى له القائد (يوسف التركي) وسنأتي لتفاصيلها.

نعود لحديثنا ونقول ان ثمة احتمال كبير على ان بعض السفن البرتغالية أثناء استطلاعاتها الاستكشافية وقرصنتها ان قدموا تقارير لقياداتها تفيد بأن هذه الأماكن (السواحل الحضرمية ومعها السواحل الجنوبية لعمان) غير ذات أهمية مقارنة بأماكن أخرى يتهافتون لبلوغها والسيطرة عليها. فالسواحل الحضرمية وداخلة معها ظفار من جهة الشرق لا تمتلك على سواحلها تلك المدن الكبيرة باستثناء مدينة الشحر والتي تعد الأكبر نوعاً ما مقارنة بمدن أخرى كقشن في بلاد المهرة. اما بقية الأماكن الحضرمية فلا تعدُ ان تكون قرى صغيرة متناثرة على امتداد الشريط الساحلي تمتلك بعضها مرافئ صغيرة كبروم وشرمة وحيريج.

وأيضاً ليس في مدينة الشحر والتي كانت تعد أهم مدينة على ساحل حضرموت ذلك الذي يغري الطامعين باستثناء دورها كميناء ترتاده السفن من مختلف البلدان الواقعة بالمحيط الهندي اما للتزود بالماء وبعض الوقود أو لإصلاح بعض الاعطاب التي تقع بالمركب. أو لتصريف بعض البضائع للتجارة الداخلية مقابل بعض منتوجات محلية بسيطة. أو احياناً دورها كميناء ترانزيت. فأهميتها يتمثل فقط في الميناء والسوق. بل حتى هذا الميناء نفسه الذي تملكه المدينة والذي كان سبباً في انتعاشها وانتعاش ما حولها من مناطق في فترات قديمة، يعد في نظر الكثيرين غير ذي أهمية كبيرة. ذلك ان السفن لا ترسو فيه إلا بعيدا عن الشاطئ لضحالة عمقه ويتم الاتصال بالبر عبر القوارب الصغيرة. كما ان بحر

١ - المرجع السابق ص١٣٥-١٣٦.



المدينة مفتوح امام الرياح والامواج العاتية. وبالتالي فهذه الأهمية لم تكن غير ذي بال كبير لدى الطامعين الأوائل الذين كان جل اهتمامهم الأول نهب الثروات والخيرات الموجودة في البلدان التي تصل إليها أيديهم من ذهب وفضة وتوابل ولآلئ وغيرها مما يغري ويسيل له اللعاب. حتى موقعها لإنشاء قاعدة عسكرية او ما شابه للتحكم في حركة الملاحة الدولية غير مفيد. فكل هذه المزايا المفترضة لم يجدوها في المدينة وفي سواحل حضرموت عموماً.

ولعل في هذا ما يفسر ان الظهور الأول للبرتغاليين على سواحل حضرموت كان لاحقاً وبغرض التجارة من خلال بيع منهوباتهم في أسواقها أو لممارسة القرصنة على سواحلها. وهذا تحديدا بعد أن تغيرت سياسة البرتغاليين في عهد القائد البرتغالي (لوبو سواريز) بعد ان عين نائباً لملك البرتغال في الهند. حيث تحولت سياستهم من الاحتلال المباشر باستعمال القوة وفرض الهيمنة على الشعوب إلى استعمال أساليب التودد والترغيب و(فرض) الصداقة وتبادل المصالح التجارية. وهذا ما فعلوه في بداية أمرهم مع أمير عدن (مرجان الظافري) بعدما ساءت علاقته بالمماليك والعثمانيين سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م وسناتي لتفاصيل هذاً. وهذا ما فعلوه أيضاً مع سلاطين حضرموت وظفار الأخوين محمد وبدر أبناء السلطان عبد الله بن جعفر الكثيري. وقد سبق واشرنا إلى تماشي السياسة وانسجامها بين الدولة الطاهرية والدولة الكثيرية في الكثير من القضايا لدرجة افترض البعض فيها ان حضرموت في تلك الفترة كانت تابعة للطاهريين أو على الأقل تدين ببعض الولاء لهم.

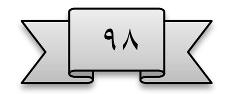
كما نشير هنا إلى ان الواقع الجديد الذي فرض نفسه على الجميع وخاصة بظهور سلاح (البندق) غيّر الكثير من قواعد الاشتباكات التقليدية. فهذا السلاح سرعان ما امتلكته الدول والشعوب وأصبح هو الفاعل في الحسم.

فلم تعد تلك الخود أو الدروع الحديدية أو الرماح الطويلة فضلاً عن سلاح (القلة)(١) التي أمتلكها الجندي البرتغالي وتباهى بها ، بقادرة على حمايته من وقع الرصاص واختراق جسده. اما عن المدافع فكان الجميع يمتلكها لظهورها وانتشارها منذ زمن بعيد. إلا ان هذه المدافع تتفاوت في احجامها ومدى قطر قذيفتها وسرعة شحنها فضلا عن حملها والسير بها. وكل هذه مزايا تعطي لمن يمتلك الافضلية فيها. الافضلية في احداث خسائره بالآخر. وكلما كانت المدافع خفيفة وسهلة الشحن والتنقل وذات مدى ابعد مع دقة في التصويب كلما كانت الافضل.

لذلك كان التردد والتمهل في خوض أي اشتباكات مستقبلية ، إستراتيجية جديدة اضطرت لإتباعها القوات البرتغالية. فضلا عن اللجوء للتودد والدفع للقبول بعلاقات صداقة معها. خاصة كما أشرت سابقاً بأنه قد بدأ يظهر على ساحات الخطوط الملاحية منافسون جدد لم تكن ضمن حسابات البرتغاليين كهولندا وانجلترا وقبلهما العثمانيين. بل وظهور لاحقاً قوة بحرية عربية جديدة عملت على مطاردة السفن البرتغالية وتطهير المحيط الهندي منها ونقصد بها القوة البحرية العمانية وتحديدا في عهد حكامها اليعاربة(٢) واسهاماتهم في تحرير مناطقهم وتلك الواقعة في الهند وفي شرق افريقيا.

١- القلة: سلاح استعمله الجنود البرتغاليون في معاركهم الاولى بهدف تحطيم رؤوس وتروس الخصم. وهي عبارة عن كرة حديدية ضخمة مسننة، مربوطة بسلسلة حديدية. يهوي بها المقاتل البرتغالي على خصمة.

٢ - انظر على سبيل المثال شهاب، حسن صالح، من تاريخ بحرية عمان التقليدية، حقوق الطبع لوزارة التراث القومي والثقافة، مسقط، سلطنة عمان، ط١، ٢٠٠١م ص١٤٥؛ السلمان الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج ص٣١٢.



واقع مدينة الشحر أثناء مقدم البرتغاليين ومهاجمتها لأول مرة

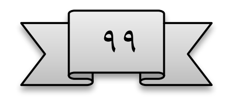
سبق واستعرضنا واقع المدينة في القرن العاشر الهجري أثناء تقديمنا لمحة موجزة عن تاريخ حضرموت واهم المحطات التاريخية التي مرت بها. واستعرضنا خلالها بعض الأحداث التاريخية التي خصت بها مدينة الشحر. ويمكن هنا أن نوجز أيضاً بعض المحطات الأخرى في تاريخ المدينة وواقعها أثناء مقدم البرتغاليين كمدخل لفهم الأحداث التي تلتها وتطوراتها.

فمع بداية القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي كما اشرت سابقاً استطاع آل كثير المسيطرين على ظفار وأجزاء من حضرموت من حسم أمرهم حول مدينة الشحر ووضع اليد عليها بقوة حتى لا تضيع عليهم مرة أخرى.

فقد تمكن السلطان الكثيري (جعفر بن عبدالله بن علي الكثيري) وبصورة نهائية طرد آل أبي دجانة منها ونفي حاكمها (سعد بن مبارك بادجانة)(١) إلى ممباسا بشرق إفريقيا حيث قتل هناك(٢). وكانت سيطرتة على المدينة كما في بعض المصادر المحلية يوم الاثنين ٦ شوال سنة ٩٠١هـ/ أكتوبر ١٤٩٥م(٣). وقد توفي السلطان جعفر حوالي سنة ٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م والبعض يقول (قتل). ليستلم الحكم ابنه السلطان عبد الله بن جعفر الكثيري.

وكنتيجة للخلافات والنزاعات الدائمة بين افراد الاسرة الكثيرية نجد ان أول ما فعله هذا السلطان بعد توليه الحكم ان قام بقتل اثنين من اخوته

١ - ببعض المراجع سعيد بن مبارك بادجانة.
٢ - قتل سعد بن مبارك بادجانه سنة٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م باسنجله، تاريخ الشحر ص٢٣؛ بافقيه، تاريخ الشحر ص٣٨.
٣ - بافقيه، تاريخ الشحر ص١٥.



لأسباب لم تفصح عنها المصادر الحولية(١). وفي عهده كان أمير مدينة الشحر (مطران بن منصور) والذي أوكل إليه مهمة رعاية وتربية أبنائه (محمد وبدر) وحفظ المدينة وإدارتها ليتفرغ هو لصراعاته الداخلية مع منافسيه من الأسرة الكثيرية نفسها أو مع القبائل الحضرمية الأخرى التي تجاذبه السيطرة والنفوذ(٢).

وفي عهد هذا السلطان (عبدالله) بدأت طلائع السفن البرتغالية تجوب المحيط الهندي وتمارس قرصنتها وإرهابها على السفن العربية والإسلامية. إلا انها لم تقترب من الشواطئ الحضرمية لأسباب بيناها سابقا باستثناء ذلك المركب البرتغالي الذي (توه) واضاع طريقه لتدفع به الرياح قريباً من حصن الغراب (بئر علي) وافترضنا انه من بقايا اسطول فنسنت سودرا الذي اغرقته الرياح بالقرب من جزر كوريا موريا.

وقد اثر التواجد البرتغالي المتزايد على مياه المحيط الهندي في تدهور الاقتصاد بحضرموت مما دفع بالدولة إلى ان تصادر اموال الاوقاف بعد ان كانت مستقلة عنها(٣) فضلاً عن رفع سقف الضرائب على التجار. وهذا ما حدث أيضاً في عدن والحجاز ومصر بل وفي كل الاماكن التي كان اعتمادها على التجارة عبر المحيط الهندي. وتوفي هذا السلطان في مدينة الشحر ودفن فيها سنة ٩١٠هـ/ ١٥٠٤م. ليتقلد الحكم بعده ابنه الأكبر السلطان محمد والذي ورث عنه سلطنة مليئة بالنزاعات والحروب مع افراد الاسرة الكثيرية نفسها ومع القبائل الاخرى التي تنازعه حكم حضرموت.

---

١ - الجعيدي، السلطنة الكثيرية الاولى ص٤٣.
٢ - المختصر في تاريخ مدينة الشحر العام ص٢٣٧.
٣ - في ترجمة قاضي الشحر الفقيه عبد الله بن محمد بن عبسين اشارة لمحاولات هذا القاضي لانتزاع وقف الجامع الخاص للتدريس والدرسة (طلاب العلم) من ايدي الدولة التي استولت عليه. بافقيه، تاريخ الشحر ص٥٤.

وفي العام الذي احتل فيه البرتغاليون جزيرة سقطرى (٩١٣هـ/ ١٥٠٧م) وانطلاقتهم بإتجاه الخليج العربي لإحكام السيطرة على مداخله باحتلال جزيرة هرمز. نجد الاوضاع في حضرموت تعج بالفوضى والاضطرابات الداخلية وكأن لا علم لأحد بما يدور أو يخطط لهم وعلى مقربة منهم. ففي العام نفسه على سبيل المثال تمت محاصرة مدينة الشحر من قبل بعض القبائل المحلية. إلا أن تحصينات المدينة وشجاعة أميرها (مطران بن منصور) حالت دون اقتحامها لينتهي الحصار بعقد صلح مع المهاجمين.

وهكذا تمضي الاعوام إلى ان ظهر على الساحة الحضرمية السلطان بدر بن عبد اللّه الكثيري(١) المكنى بـ(بأبي طويرق). وقد قيل انه دعي بهذه الكنية لأنه طرق أراضي حضرموت من ذمار إلى ظفار(٢). ومن المحتمل ان تكون الكنية محرفة عن اسم القائد البرتغالي (الفونسو دا البوكيرك) او (البوكويرك). فهذا القائد وكما قيل عنه لم يفتر لحظة في مساعيه التوسعية وخوض المعارك في بلدان المحيط الهندي. كما ان بدايات هذا السلطان على حداثة سنة (ولد سنة ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م)(٣) في المعترك السياسي تكاد تكون في سن مبكرة قبل ان يبلغ سن العشرين من عمره(٤). وهي الفترة التي كان فيها البوكيرك يصول ويجول بأساطيله في البحار العربية ناشراً الخوف والرعب في نفوس الآمنين.

ان أول عمل سياسي اشارت اليه المصادر وقبيل حتى ان يكون سلطاناً رسميا ان عزل أمير الشحر (مطران بن منصور) من منصبه وحبسه وصادر أمواله

---

١ - لمعرفة المزيد عنه انظر الجعيدي، السلطنة الكثيرية الاولى ص٧٢ ؛ باوزير، سعيد، صفحات من التاريخ الحضرمي ص١٥٥- ١٧٤؛ السكوتي، المختصر في تاريخ مدينة الشحر العام ص٢٤٠- ٣٠١.

٢ - باوزير، سعيد عوض، صفحات من التاريخ الحضرمي ص١٥٦.

٣ - بافقيه، تاريخ الشحر ص٣٦. وعند باوزير ولد السلطان بدر سنة ٩٠٢هـ. انظر المرجع السابق ص١٥٥.

٤ - باوزير، صفحات، مرجع سابق ص١٥٥.

ثم نفاه إلى لحج. وكان هذا بعد صلاة المغرب ١٠ ربيع الثاني ٩٢٦هـ/ مارس ١٥٢٠م. وتعيين بدلاً عنه الامير (عطيف بن علي بن دحدح). وكذلك ما فعله لاحقاً مع حاكم غيل باوزير (أحمد بن النقيب) وتسميل عينيه. ومن ثم إعادة كل واحد منهم إلى مكانة مع رد الاعتبار لهم. وقد يكون للصراع الخفي ما بين السلطان بدر واخيه السلطان محمد دورا في احداث هذا الاضطراب في الدولة وفي قرارات السلطان بدر الأولى. وربما في هذا ان دفع بالبعض لوصف أبي طويرق بالمصاب بجنون العظمة، كثير النزوات والقلق(١). وآخرين قالوا عنه بامتلاكه عزيمة الجبابرة وإقدام الطامحين. ينفذ برنامجه الضخم بكل وسيلة ويعمل لتحقيق اهدافه في غير كلل ولا ملل(٢).

إلا أن أهم ما فعله السلطان بدر وفي بدايات عهده من تولي الحكم وقبيل حتى ان يكون سلطانا رسمياً، ان عمل على تحديث جيشه وتدريبه وتطعيمه بعناصر من خارج القبيلة الكثيرية. بل ومن خارج حضرموت نفسها. فقد استقدم مجاميع من يافع ومن قبائل الجوف ومن الأفارقة ومن قبيلة المهرة (بيت محمد او محامد) بل وحتى من البرتغاليين أنفسهم في فترات لاحقة. إلا ان أهم ما فعله في هذا الشأن ان قام سنة ٩٢٦هـ / ١٥١٩م (وربما قبلها) باستقدام قوة عسكرية من المماليك الجراكسة من حاملي البنادق بقيادة ضابط يدعى (رجب التركي)(٣) وجعلها بمثابة قوات خاصة له. وبهذه القوات الجديدة استطاع ابو طويرق ان يحقق لسلطنته انتصارات عدة ويفتتح مدنا حضرمية جديدة كشبام وتريم بعدها.

---

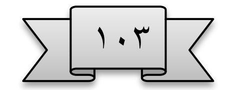
١ - العرب والبرتغال ص٣١٩.
٢ - باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص١٥٦.
٣ - بافقيه، تاريخ الشحر ص١٤٩- ١٥٠. انظر خبر هذه القوة تفرد به المؤرخ بن حميد في العدة المفيدة (١/ ١٦٣).

وعن هذه القوة الاخيرة من حاملي البنادق. فيكاد لا يعلم عن هويتها ان كانت من المماليك الجراكسة الفارين من مصر أو من اليمن بعد انهيار دولتهم المملوكية. او انهم من الاتراك العثمانيين (اللوند) او (الانكشارية) خاصة وان هؤلاء الاخيرين اقترن اول ظهورهم في اليمن بالبنادق (الروميات) والتي سرعان ما انتشرت في كل البقاع انتشار النار في الهشيم. كما لا نعلم ان كانت هذه القوة العثمانية (افتراضاً) جاءت بناء على تكليف رسمي من قيادتها في اليمن أو من الباب العالي في اسطنبول. ام انها مجرد قوات مرتزقة. ذلك ان معظم القوى التي كانت تتقاسم الاراضي اليمنية في تلك الفترة بما فيها الزيود. تملكت لنفسها اعداداً من هذه القوة الجديدة (الاجانب حاملي البنادق).

ان ما يهمنا هنا ان الفترة التي بدأت فيها السفن البرتغالية تظهر أمام السواحل الحضرمية كان السلطان الأبرز على حضرموت صاحب الكلمة والامر هو السلطان بدر بن عبد الله الكثيري بعد ان تنازل له أخوه الأكبر (محمد) رسمياً ليحكم اجزاء حضرموت وتقام الخطبة باسمه. ففي سنة ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م كتب السلطان (محمد بن عبدالله الكثيري) رسالة بخط يده الى خطيب جامع الشحر الشيخ (أحمد بن محمد السبتي) مفادها ان يسقط اسمه من خطبة الجمعة وان يخطب لأخيه بدر(١). فتم له ما اراد. وقد كان للأمير مطران دورا بارزا في وأد تلك الفتنة الناشئة بين الاخوين بإقناع السلطان محمد التنازل عن نصف مملكته لأخيه. على الرغم مما تعرض له هذا الامير من قبل السلطان بدر سابقا(٢).

ان هذه الفترة التي اصبح فيها ابو طويرق الحاكم الفعلي على حضرموت بعد ان تمت له رسميا الخطبة باسمه. هي فترة كما اشرت سابقاً تغيرت فيها

١ - بافقيه، المرجع السابق ص١٥٤.
٢ - المختصر في تاريخ مدينة الشحر العام ص٢٣٩.



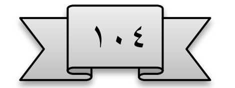
سياسة البرتغاليين بعد موت الفونسو البوكيرك (٩٢١هـ/ ١٥١٥م) وتسلم القيادة البحرية للقائد البرتغالي (لوبو سواريز) والذي كما اشرت سابقا تغيرت معه سياسة البرتغاليين وخاصة مع الدولة الطاهرية بعد ان عقد معها اتفاقات صلح سمحت من خلالها للسفن التابعة للطاهريين الابحار للهند او شرق افريقيا مقابل صكوك برتغالية تمنح لهذه السفن كي لا يعترضها احد.

ومن المحتمل جداً ان ما جرى على عدن جرى أيضاً على حضرموت لاعتقاد البرتغاليين ان حضرموت واقعة ضمن مملكة عدن (الدولة الطاهرية). كما ان البرتغاليين في هذه الفترة كانوا بحاجة ماسة الى أسواق عربية لبيع منهوباتهم ومسروقاتهم والتنعم بها.

ومن الطبيعي جداً ان تكون مدينة الشحر بمينائها أحدى مراسي سفنهم. ومما يعزز هذا ، ان الذريعة التي تذرع بها البرتغاليون لاحقاً للاعتداء على المدينة ونهبها. مطالبتهم باستعادة أموال لتاجر برتغالي مات في المدينة. متهمين السلطان بدر استيلائه عليها.

ان وجود هذا البرتغالي التاجر (الفونس دي فيجا) بالمدينة وبغض النظر ان كان البرتغاليون صادقين في دعواهم تلك. ام انها مجرد ذريعة لفقت. إلا انها تدل على وجود تبادل تجاري سابق مع البرتغاليين في المدينة. وإن السلطان بدر سمح لهم بالمتاجرة. ومما يرجح احتمالية هذا الفرض ان الوكيل التجاري للبرتغاليين على ساحل عمان في تلك الفترة يدعى (فاز دي فيجا)(١) فلعل هذا قريبا له خاصة وان معظم قادة البرتغال يصطحبون معهم ابناءهم واقرباءهم واشراكهم في المهام التجارية او القتالية وهذا نجده بوضوح عند فاسكو داجاما واشراكه اثنين من

١ - الغزو البرتغالي للجنوب العربي ص٢٩٩.



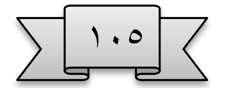
ابنائه في المهام القتالية. وكذلك عند القائد داالميدا والقائد البوكيرك وذي منزيس وغيرهم.

وفي حقيقة الامر فأن تلك المهادنة المفترضة والعلاقات التجارية المتبادلة بين البرتغاليين من جهة والحضارم من جهة اخرى. لم تستمر طويلاً.

فما ان تغير القائد البرتغالي لوبو سواريز(١) من منصبه كنائب لملك البرتغال في الهند. وتعيين بدلا عنه (دييكو لوبيز دي سكويرا) حتى تغيرت معه السياسة البرتغالية في التعامل مع بلدان جنوب الجزيرة العربية والخليج. إذ عادت اعمال القرصنة والنهب لسابق عهدها. كما عادت الغطرسة والاستعلاء كسمة في تعاملهم مع الغير وعادت مجددا الرغبة في السيطرة على البلدان العربية المطلة على البحر العربي. ومن المحتمل أيضاً ان يكون تغير هذه السياسة بعد وفاة ملك البرتغال (مانويل الاول) في سنة ٩٢٨هـ/ ديسمبر ١٥٢١م/ وتسلم ابنه (دون جوان الثالث) مقاليد الحكم. والذي اراد بعد توليته الحكم مباشرة ان يثبت نفوذ مملكة والده وراء البحار من خلال قمع الثورات والتمردات التي بدأت تظهر هنا و هناك في مستعمراتهم. فما ان تولى الحكم حتى اصدر امراً بتعيين القائد(دون دورات ذي منزيس) كنائبا له في الهند ويستحثه على جمع الثروات وارسالها فورا إلى لشبونة. فضلاً عن قمع الثورات العربية في البلدان الواقعة تحت سيطرتهم. وهذا بدوره عين اخاه (لويس ذي منزيس) حاكماً على هرمز وارسله إليها.

من الملاحظ هنا ان البرتغاليين استفادوا من المعارف الجديدة التي اكتسبوها خلال ابحارهم قبالة سواحل جنوب الجزيرة العربية. ولم يعودوا بحاجة إلى أدلاء. كما استفادوا من تقارير المخبرين والتجار الذين يرتادون المدن

١ - تم تغيير لوبو سواريز كنائب لملك البرتغال في الهند سنة ٩٢٤هـ/ ١٥١٨م وتعيين بدلاً عنه القائد دييكو لوبيز دي سكويرا.



العربية وتزويدهم بالمعلومات الكافية لتنفيذ استراتيجياتهم الجديدة. وفيما يتعلق بالتجار والمخبرين فان الاسم السابق للتاجر البرتغالي (الفونسو دي فيجا) يقودنا الى اسم آخر مشابه له يدعى (فرناندس جو دي فيجا) وكان هذا قائدا لاحدى السفن الست المصاحبة لألفونسو البوكيرك وواحداً من قادة جيشه اثناء هجومهم الفاشل على عدن(١). وهو القائد الذي ارسله البوكيرك لتدمير حصن سقطرى. كما سبق واشرنا للوكيل التجاري للبرتغاليين المعين في هرمز (فاز دي فيجا).

وهكذا وإلى أن تحين للبرتغاليين الفرصة المناسبة، فقد دخلوا في علاقات ودية مع امير الشحر(مطران بن منصور) نيابة عن السلطان بدر أبي طويرق. ومع سلطان ظفار (محمد بن عبدالله الكثيري) وكان هدفهم تزويد سفنهم ومراكبهم بالماء والطعام وبيع منهوباتهم في أسواق المدن الحضرمية.

ولم يجد السلطان الفتي (بدر بن عبدالله) إلا ان يهادنهم ويتفاوض معهم الى ان يجد الوسيلة المناسبة التي بها سيتغلب عليهم. إذ كان يعلم تماماً وهو أمر ليس بخافٍ، ان هذه السفن الوافدة على سواحله انما هي طلائع لأساطيل أخرى ستقدم حتماً إليه. وان رفضه التعامل معهم يعني تصادم وعداء. وربما يفسر اعلان حرب. خاصة وانه لا يملك القوة القادرة على ردع أي اعتداء نتيجة للتفوق العسكري الواضح للبرتغاليين. وله العبرة فيما حدث مع بلدان الخليج العربي وشرق افريقيا. فرأى ان الأنسب له القبول بالمهادنة والمراوغة.

١ - ان وجود البرتغاليين في المدن العربية بغرض ممارسة التجارة خاصة بعد تقاعدهم أو هروبهم من الجيش، اصبح شيئاً عادياً فعلى سبيل المثال القائد البرتغالي (ذي مينزيس) والذي عين من قبل ملك البرتغال (دون جوان ابن الملك مانويل) كنائباً له في الهند سنة ٩٢٩هـ/ ١٥٢٣م فبعد تقاعده أرتحل إلى هرمز لممارسة التجارة هناك. ثم استدعي لاحقاً من قبل ملك البرتغال ليحاكم ويحبس بعدها.

الهجوم الأول على مدينة الشحر

كعادة أي استعمار في صياغة الذرائع والحجج لفرض سيطرته أو نفوذه على بلد ما تمهيداً لاحتلالها. حاول هنا البرتغاليون تسويق بعض الحجج التي تمهد لهم التدخل المباشر في شؤون مدينة الشحر وربما احتلالها كاحتلالهما السابق لسقطرى وهرمز.

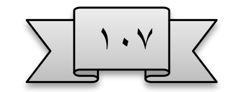
من هذه الذرائع تلك التي استغلوا فيها غياب السلطان بدر وقواته الخاصة عن المدينة فأدعوا سنة ٩٢٩هـ/١٥٢٣م ((ان تاجراً برتغالياً اسمه (الفونسو دي فيجا) مات في الشحر منذ خمسة أشهر وان السلطان بدر استولى على امواله. وان قائد الأسطول يطلب تسليم تلك الأموال إليه بدون تأخير))(١). وهذه مجرد حجة وإبتزاز تخفي وراءها الدافع الحقيقي للتدخل في شؤون البلاد. وربما للانتقام من الاهالي بعد ان علموا مدى الدعم والمساندة التي يقدمها ابناء ساحل حضرموت والمهرة (الشحارية) ومعهم العمانيون (آل صور) للمقاومين في عدن لصد أي محاولات احتلالها(٢).

لم يغب عن ذهن الامير (مطران بن منصور) كذب هذا الادعاء، فقد اوقن ان البرتغاليين ما أدعوا مثل هذا الإدعاء الباطل. إلا وهم يبيتون شراً بالمدينة

---

١ - بامطرف،الشهداء السبعة ص٦٨. وبالمناسبة، حول اسم التاجر البرتغالي (دي فيجا). ثمة افتراض ذهب إليه البعض يفيد ان قرية (دفيقة) التي تبعد ٢كم شمال شرق مدينة الشحر، وحالياً جزء من المدينة، نسبت لهذا البرتغالي (دي فيجا) وانه دفن فيها، ولا ندري من اين أتوا بهذه الإفتراضات. ذلك ان هناك العديد من الوثائق تؤكد ورود هذا الاسم قبل مجئ البرتغاليين بمئات السنين.

٢ - الشهداء السبعة، ص٥٤، الجدحي، تاريخ المهرة، ص٢٠٨.



واهلها. خاصة وان علائم اسطولهم الحربي بدأت تلوح في الافق(١). فما كان من هذا الامير إلا ان اجتمع بكافة الأعيان والمشائخ وعقال الحارات الست لتدارس الموقف وتشكيل لجنة (للمقاومة الشعبية) كان هو رئيسها والشروع في وضع خطة دفاعية وتنفيذها. كما قام بالتواصل مع السلطان بدر ومع امير المشقاص (عطيف بن دحدح) طالباً اياهما إرسال مدد فوري. كما أعطى أوامره بنقل جميع النساء والأطفال ومايخافون عليه من اموال ومن ذهب وفضة إلى قرية تبالة وتعيين حراسة عليها(٢) وهذه اموراً إحترازية.

ومن الطبيعي ان يكون لرجال الدين والفقهاء دورا في هكذا ظروف من حيث تأليب العامة وتشجيعهم وبث فيهم روح الحماسة والإقدام وتذكيرهم بالثبات والنصر وحثهم على الجهاد والمقاومة. ولعل أكثر من قام بهذا الدور هو الشهيد أحمد بن عبد الله بافضل فقد قام خطيباً في الناس ((ووعظهم وحثهم على القتال فخرج وخرج الناس معه لقتالهم، وحصل النصر للمسلمين. واستشهد الشيخ صاحب الترجمة وستة غيره من المسلمين في حربهم. ودفن بجانب قبر والده))(٣). وزاد مصنف كتاب صلة الاهل، الشيخ محمد بن عوض بافضل (ت ١٣٦٩هـ/ ١٩٤٩م) في حديثه عن مناقب هذا الشهيد. ان هذا الشهيد عندما اقترب البرتغاليون من مدرسته ((قام وقام معه طلابه واقتلعوا ابواب المدرسة واقتسموها

---

١ - كان وصول الاسطول البرتغالي يوم الخميس ٩ ربيع آخر ٩٢٩هـ/ ٢٦ فبراير ١٥٢٣م. وعددها اربعة عشر سفينة حربية مختلفة الاحجام. باسنجلة، العقد الثمين، ص٤١. اما بافقيه فذكر تسع خشب من نوع البرش والغربان. انظر تاريخ الشحر ص١٥٧.

٢ - بامطرف، الشهداء السبعة، ص٧٠-٧١. الجدحي، تاريخ المهرة، ص٢١٢.

٣ - الشلي، محمد، السناء الباهر بتكميل النور السافر، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الارشاد، صنعاء، ط١، ٢٠٠٤م، ص٢٠١-٢٠٢.

عودا عودا ، حيث انهم لا سلاح معهم وتقدمهم صاحب الترجمة بعد ان خطبهم وحفظهم على الجهاد وقابلوهم بقلوب صابرة واقدام ثابته. وكتب صاحب الترجمة وقد أتخنته الجراح كتاباً لأهل تريم يستنجدهم ويستحثهم ويستمدهم واستشهد في جماعة من اصحابه في تلك المعركة منهم الشيخ أحمد بن رضوان واخوه فضل كما ذكره الطيب بامخرمة ، ولما بلغ البريد إلى حضرموت جمعوا جندا عظيماً مدداً يبلغ عددهم خمسة آلاف فوصلوا الى الشحر على خمسة أيام))(١).

هذه أحد المواقف التي سجلت قبيل ابتدأ المعركة. ومن الواضح ان الفقيه الشهيد (أحمد) صاحب المصنفات الكثيرة ، له تأثيره القوي على الناس وانه قدوة لهم فقد (خرج وخرج الناس معه لقتال البرتغاليين). ومن البديهي ان يكون اول من سيخرج معه هم طلابه وتلاميذه. وان كنا لا نعلم الكثير عنهم لكن بعض المصادر اشارت الى اسماء بعض طلابه مثل: الشيخ (محمد بن ابي بكر بلفقيه). توفي سنة ٩٣٧هـ/ ١٥٣٠م(٢). والشيخ (ابراهيم بن علي بن علوي خرد) توفي في مكة سنة ٩٣٨هـ/ ١٥٣١م(٣). والشيخ (عبد الله بن محمد باجمال) توفي سنة ٩٤٤هـ/ ١٥٣٧م. وقد جاء في ترجمة هذا الاخير انه يمارس التجارة ويقيم بالشحر

---

١ - بافضل، محمد بن عوض، صلة الاهل بتدوين ماتفرق من مناقب بني فضل، عني بطبعه ونشره ابن المؤلف علي بن محمد بن عوض بافضل. ط١، ١٤٢٠هـ ص١٧٢.
٢ - ترجمته الشلي، السناء الباهر، مرجع سابق ص٢٧٦.
٣ - ترجمته، السناء الباهر ص٢٧٩.

كثيراً. وان له بها جاه وسيع وصيت رفيع وله قبول تام عند السلطان عبد اللّه بن جعفر بن عبد اللّه الكثيري. وكان يستشيره في الكثير من اموره وغيرها(١).

ولا يعلم ان كان هؤلاء متواجدين في المدينة عندما وقع اعتداء البرتغاليين وشاركوا في المقاومة ام لا ؟ وفقاً وللمصادر المتاحة.

كما لعب الشيخ (مبروك بن سلمان حنين) وهو من اعيان المدينة في هذه الأحداث دوراً كبيراً وخاصة في ترتيب امور الساحل والميناء وتشديد الحراسات بها. وكان هذا الشيخ في تلك الفترة يتولى منصب (امير بحر) في دولة أبي طويرق(٢). كما كان احد المفاوضين مع قيادة الأسطول البرتغالي. ولانعلم عن مصيره شيئاً بعد هذه المعركة التي وقعت مع البرتغاليين سنة ٩٢٩هـ/١٥٢٣م.

---

١ - ترجمته المرجع السابق ص٣٣٠.

٢ - بامطرف، الشهداء السبعة، ص٧١. وأهالي الشحر يطلقون على هذه اللفظة (مير بحر).

بداية المعركة (ملحمة الشهداء السَّبعة)

قبيل التطرق الى هذه المعركة لنقف اولاً عند توقيتها (فجر الجمعة) وهو يوم عطلة واجازة عند المسلمين. فعلى ما يبدو ان هذه استراتيجية اتبعها البرتغاليون منذ بداية اعتداءاتهم على البلدان العربية والاسلامية. فغالبية الاعتداءات التي يشنها هؤلاء البرتغاليون كانت فجر الجمعة. فعلى سبيل المثال كان هجوم البوكيرك الأول على عدن فجر الجمعة ١٧ محرم ٩١٩هـ/ ١٥١٣م. والهجوم الاخر يوم الجمعة ١٨ جمادى الاول ٩١٩هـ/ ١٥١٣م. وقس على ذلك توقيت هجومهم على مناطق أخرى. رغم انه ليس بالضرورة ان يصدق هذا على كل اعتداءاتهم انما هي استراتيجية وحيثما تقتضي تكتيكات الهجوم.

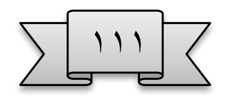
ما ان بزغ فجر يوم الجمعة ١٠ ربيع ثاني سنة ٩٢٩هـ/ ٢٦ فبراير ١٥٢٣م(١)، إلا وابتدأ البرتغاليون شن هجومهم العنيف على المدينة بقصف اولاً الشاطئ والمراكب الراسية قبالته(٢) وخلال عملية القصف هذه قام البرتغاليون بإنزال بري بزوارقهم المحملة بالجنود وبكامل عتادهم العسكري بما فيه من بنادق ومدافع هاون صغيرة. ومعهم فرقة من حاملي السلالم. لتبتدئ المعركة اولاً على الشاطئ، ثم امتدت اكثر إلى داخل المدينة بين ازقتها وبيوتها ومحلاتها التجارية(٣).

---

١ - بافقيه، تاريخ الشحر، ص١٥٧. العقد الثمين الفاخر، ص٣٩. وانظر عنها ايفانوف، الفتح العثماني، ص١٢٩. وعند المؤرخ بامطرف بالميلادي ٢٨ فبراير ١٥٢٣م.

٢ - قدر عدد سفن البرتغاليين في تلك الحملة (١٤) خشبة. العقد الثمين، ص٣٩. بينما في تاريخ الشحر لبافقيه نحو تسع خشب برش وغربان. انظر ص١٥٧.

٣ - أفاض المؤرخ محمد عبدالقادر بامطرف في تفاصيل هذه الحادثة بما يغني هنا. انظر كتابه الشهداء السبعة.

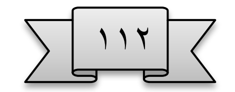


وقد تصدى لهم ابناء المدينة بشجاعة وبسالة نادرة وغير معهودة جعلت من هذه المعركة غير المتكافئة، تسطر كإحدى الملاحم البطولية التي سطرتها الشعوب في تصديها للغزاة(١). فالبرتغاليون كانوا يمتلكون مختلف انواع الاسلحة النارية والمدافع طويلة المدى مقارنة بالمدافع (العربية/المملوكية) قصيرة المدى وهي التي تسمى في بعض المصادر (طربزانات)(٢) وعددها محدود. فضلاً عن امتلاك البرتغاليين القنابل وتسمى محلياً (القنابر او المكاحل) والدروع والخوذ التي يرتديها جنودهم النظاميون. في حين لا تمتلك المقاومة الشعبية الشحرية غير السيوف والخناجر والرماح والنبال والعصي. وهم غير متمرسين على القتال. وإلى جانبهم قلة قليلة من الجنود اليافعيين (التلد)(٣) ومن الأفارقة. وحتى القوة التركية الخاصة التابعة لابي طويرق والتي كانت مستأثرة بسلاح البندقية، لم تكن موجودة عند نشوب هذه المعركة. مما عقّد وصعّب هذه المعركة على المقاومين ورفع من حجم خسائرهم.

١ - لمعرفة دقة تفاصيل هذه المعركة بحيثياتها المختلفة، انظر الشهداء السبعة. بن هاشم، تاريخ الدولة الكثيرية (٤١/١)،باوزير، سعيد، صفحات من التاريخ الحضرمي، ص١٦٢. الجدحي، تاريخ المهرة ص٢٠٨-٢١٨. وقد انفرد المؤرخ الطيب بافقيه الشحري في كتابه (تاريخ الشحر) بتهميش دور المقاومة الشعبية بالقول ((ولم يثبت له احد من الناس(يقصد البرتغاليين)، بل انهزموا انهزاماً قبيحاً. انظر تاريخ الشحر ص١٥٧. وهو في هذا خالف العديد من المؤرخين، بل ان نتائجها وكما ذكر بافقيه بنفسه تفيد عكس ذلك حينما اثبت استشهاد الامير مطران خلال تصديه للبرتغاليين، واشار ان معه عدد من الفقهاء والاعيان وذكر اسماء بعضهم.

٢ - الطربزانات: جمع طربزانة، نوع من المدافع القديمة تحشي ببارود وتشعل فيها النار فترمي قذيفتها.

٣ - عن مشاركة يافع في هذه المعركة انظر ديان، وقائع من تاريخ يافع ص٢٤٣.



وقفة لابد منها:

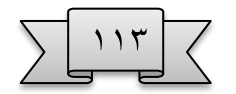
ان عدم تكافؤ القوتين (المهاجمة والمدافعة) والتي كما اشرت عقّدت وصعبّت الموقف على المقاومين ورفعت من حجم خسائرهم. هذا ما دفع ببعض المؤرخين عند تقييمهم لهذه المعركة للقول: ((ولم يثبت له احد من الناس [أي للبرتغاليين] بل انهزموا انهزاماً قبيحاً))(١). وهذا التقييم للمؤرخ محمد بن عمر بافقيه وهناك كثيرون اخذوها عنه.

وبافقيه مؤرخ لم يكن معاصراً للحدث وانما نقلها من مصادر اخرى. في حين ان مصدراً اخراً معاصراً للحدث وهو من المصادر التي ينقل منها بافقيه في تاريخه ونقصد به المؤرخ عبدالله باسنجله فقد اشار في مصنفه لهذه المعركة وسجل بعض تفاصيلها. ولم يشره فيها الى ما قيل: (لم يثبت له أحد أو الانهزام القبيح)(٢). وانما اشار بكل وضوح: (ان النصر كان للمسلمين)(٣). وتبعه فيها آخرون جاؤوا بعده.

ان مقولة المؤرخ بافقيه السابقة (لم يثبت له احد من الناس) تفيد بفرار الناس كما تفيد ضمنياً عدم المقاومة. فالناس كما يفهم هنا في النص يقصد بهم العوام. وهذا فعل غير مستغرب في مثل هكذا حروب يكتسح فيها العدو مدناً وهو مدجج بالسلاح والدروع المحصنة(٤) ويهاجم بغرض القتل والتدمير ولا يفرق بين عسكري او مدني، شيخ او طفل، رجلاً كان او امرأة. مقاوم او

---

١ - بافقيه، تاريخ الشحر ص١٥٧.
٢ - انظر تفاصيل الرواية عند باسنجله في كتابه تاريخ الشحر المسمى العقد الثمين الفاخر ص٤١.
٣ - انظر في ترجمة الشهيد أحمد بافضل عند الشلي وكتابه السناء الباهر ص٢٠٢.
٤ - للمزيد عن اسلحة البرتغاليين انظر العرب والبرتغال ص١٦٩.



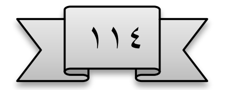
مسالم. سمعته السيئة بالغة الآفاق. وهذا ما فعله البرتغاليون في اول هجومهم على المدينة. بينما من كان يواجههم أناس مدنيين بسطاء لم يعهد بهم قتال من قبل. فلا بد من ان يفر منه الناس ولكن لن يثبت له إلا الشجعان. وهذا ما واجهه البرتغاليون. وخير دليل على ذلك سقوط عدد من زعماء المقاومة شهداء ومعهم العشرات من القتلى والجرحى من الأهالي. بل ونلاحظ ان اولئك الشهداء السبعة يشكلون فئات اجتماعية تشمل: (رجال دولة، فقهاء ، معلمين، تجار). وطبعا مثل هؤلاء يصعب عليهم مغادرة المدينة في وضع كهذا بحكم مهنهم وادوارهم في المجتمع التي تستوجب منهم البقاء.

وثمة اشارة اوردها المؤرخ (سالم بن حميد الكندي) (ت: ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م) في مصنفه (العدة المفيدة) لعله انفرد بها تفيد بأن هذا الهجوم البرتغالي على مدينة الشحر كان بمساعدة رجال من المهرة(١). دون ان يقدم لنا تفاصيل أكثر لهذا.

ولولا ان لاح للبرتغاليين قدوم طلائع النجدة من المشقاص بقيادة الأمير (عطيف بن دحدح)(٢) واشتراكها فور وصولها في هذه المعركة لطالت ايامها وزادت من خسائرها. فكان الانسحاب البرتغالي اسلم لهم بعد ان امعنوا في القتل والحرق والنهب والتدمير.

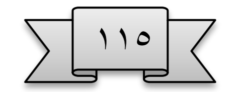
---

١ - بن حميد، سالم بن محمد، مرجع سابق العدة المفيدة (١/ ١٦٥).
٢ - ذكر ان في هذه القوة التي قدمت من المشقاص مقاتلين من قبيلة ثعين والسماح والمناهيل والحموم. انظر الجدحي، تاريخ المهرة ص٢١٩.



وفي بعض الإحصائيات (غير الرسمية) التي قدمت كحصيلة لهذه المعركة فقد بلغ عدد القتلى من اهالي الشحر (٧١١) منهم عدد (٥٨) من الأجانب المقيمين. غالبيتهم هنود وصوماليون. اما من المقيمين فيها من مختلف مناطق حضرموت فبلغ عددهم (٢١٦) رجلاً. اما عدد المنازل التي تهدمت من الحرائق بلغ (٣٢٠) داراً وكوخاً. أما عدد الحوانيت والمحال التي أحرقت او نهبت فعددها (٧٠٠) حانوتاً. ومن المعاصر (معامل إنتاج زيت السمسم) التي احرقت مع الإبل العاملة فيها فبلغ عددها (٣٢) معصرة(١). كما تم اسر الكثير من ابناء المدينة لم يعرف عددهم. إلا ان المؤرخ الشحري (عبدالله بن محمد باسنجلة) اشار بقوله بعد هذه الحادثة وقتل ((خلق كثير وأسر خلق كثير. فممن أسر وافتك في الحال الفقيه أحمد بن عبد الله بالرعية (برعية)))(٢).

١ - بامطرف، الشهداء السبعة، ص٧٩. نقلاً عن رواية الربان المعاصر للاحداث، باسباع وكتابه (المفقود) (بهجة السمر في اخبار بندر سعاد المشتهر).
٢ - باسنجلة، العقد الثمين الفاخر، ص٤١.



الشهداء السَّبعة رموز المقاومة الشعبية

ان من نتائج هذه الملحمة والتي استمرت ثلاثة ايام متواصلة ، ان استشهد فيها عدد من المقاومين وعلى رأسهم:

١ - الأمير (مطران بن منصور) حاكم مدينة الشحر نيابة عن السلطان بدر الكثيري.

٢ - الفقيه الشيخ (أحمد بن عبدالله بلحاج بافضل)(١) مدير مدرسة بافضل

٣ - الفقيه الشيخ (فضل بن رضوان بافضل) مدير مدرسة بابهير في مدينة الشحر.

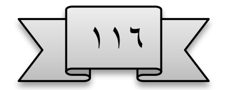
٤ - الشيخ (أحمد بن رضوان بافضل) تاجر وهو أخو الشيخ فضل.

٥ - الفقيه العلاّمة (يعقوب بن صالح الحريضي) مدير مدرسة باهارون في مدينة الشحر.

٦ - الشيخ (حسين بن عبدالله الجمحي) الملقب بـ(العيدروس) وكان أيضاً تاجراً.

٧ - الشيخ (سالم بن صالح باعوين المهري) وهو كذلك تاجر(١).

١ - انظر ترجمته عند العيدروس، النور السافر، ص١٩٣؛ بافقيه، تاريخ الشحر، ص١٥٨.



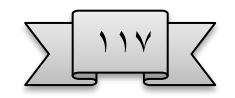
ان هؤلاء السبعة(٢) كانوا هم أعمدة المقاومة وقادتها. صحيح لم يكن وحدهم من استشهد في تلك المعركة. فهناك بالضرورة الكثير غيرهم نظراً لضراوة المعركة وشدتها. ولكن نظراً للمكانة الاجتماعية التي يتمتع بها كل واحد منهم في نفوس الناس. فضلاً عن ادوارهم القيادية والبطولية التي قاموا بها قبيل المعركة واثنائها. جعلت الأهالي تمجدهم وتحيي ذكراهم وقد اضحوا رموزاً للمقاومة الشعبية داخل المدينة.

وهؤلاء السبعة دفنوا جميعاً في قبر واحد (ضريح) باستثناء الفقيه الشهيد (أحمد بن عبدالله بافضل) الذي اوصى قبل مماته بدفنه في مقبرة والده المعروفة بمقبرة بالحاج وهي مجاورة لمسجد بن عتيق بمدينة الشحر.

---

١ - انظر اماكن استشهادهم في الشهداء السبعة، ص٧٣-٧٥؛ وخبر استشهاد بعضهم عند بافقيه، تاريخ الشحر، ص١٥٧؛ باسنجلة، العقد الثمين الفاخر، ص٤١؛ الجدحي، تاريخ المهرة، ص٢٢٠؛ باوزير، صفحات، ص١٦٢.

٢ - اشار المؤرخ الشلي في ترجمته للشهيد أحمد بافضل بالقول انه استشهد (.. وستة غيره من المسلمين في حربهم). انظر السناء الباهر ص٢٠٢. اما المؤرخ بافقيه فذكر اسماء اربعة شهداء وزاد (وجماعة سواهم) انظر تاريخ الشحر ص١٥٧. اما نص المؤرخ باسنجلة فذكر الأسماء هكذا: ((.. قتل بها الامير مطران وعجيره. وقتل بها الفقيه أحمد بن عبد الله فضل. واخوه فضل، والفقيه المعلم يعقوب ابن رحمة، وعمر بن دحران، وخلق كثير، واسر خلق كثير..)). باسنجلة، تاريخ الشحر ص٤١.



شهداء آخرون نساهم التاريخ

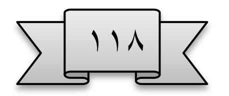
كما اشرت كثيرون هم شهداء تلك المعركة. إلا ان المصادر المحلية خلدت فقط أسماء اولئك السبعة لشهرتهم ومكانتهم. بينما هناك شهداء آخرون غفلت عنهم المصادر. وقليل من المحظوظين نالتهم اشارة هنا او هناك بالذكر منهم على سبيل المثال الشهيد (عمر بن دحران)(١). كما نجد في نص المؤرخ باسنجلة اشارة تفيد الى ان تلك المعركة السابقة، قتل فيها الأمير مطران (وعجيره) !(٢) ولم يقف أحد عند هذه اللفظة او مدلولها. فالعجير لغوياً هو العاجز جنسياً. وكأن باسنجلة اراد ان يقول ان الامير مطران قتل ومعه حارسه الشخصي (الخصي/ العجير). وهناك شهداء اخرون قتلوا في معارك لاحقة منهم على سبيل المثال الشهيد (محرم بامختيار) واخر (عدني) لم يفصح عن اسمه، قتلوا سنة ٩٣٨هـ/ ١٥٣١م بقذيفة مدفع من سفينة برتغالية بينما كانوا على الساحل(٣).

---

١ - ذكره المؤرخ باسنجلة في كتابه، العقد الثمين الفاخر، ص٤١. ومن المحتمل ان في الاسم تصحيف ما. فلا يوجد في الشحر اسرة عرفت بهذا الاسم، فلعله بن دحمان. وبن دحمان من الاسر الحضرمية العريقة التي سكنت مدينة الشحر. واحتمال كبير ان يكون بن دحران هذا مهرياً وليس شحرياً.

٢ - باسنجلة، تاريخ الشحر ص٤١.

٣ - بافقيه، تاريخ الشحر ص٢٠٦.



قائد الحملة البرتغالية على مدينة الشحر

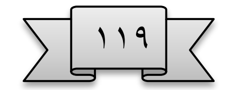
أشارت بعض المراجع أن القائد البرتغالي (دييكو لوبيز دي سكويرا) وبعد ان تم تعيينه نائباً لملك البرتغال في الهند بدلاً عن القائد (لوبو سواريز) سنة ٩٢٤هـ/ ١٥١٨م عين هذا القائد (انطونيو دي سلدانا) ليكون مسؤلاً ومشرفاً في السيطرة على سواحل الجنوب العربي(١).

كما اشارت أيضاً الى ان (دي سكويرا) حرك بنفسه أسطولاً سنة ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م للذهاب إلى هرمز والسواحل العربية وباب المندب والسواحل الافريقية لتأذيبهم. وكان اسطوله مكون من ٢٤ سفينة حربية عليها ١٨٠٠ جندي برتغالي و ١٨٠٠ جندي هندي. وانه أبحر أولاً إلى هرمز. وان حاكم هرمز اشار اليه بتمرد (البحرين والاحساء) بقيادة الامير (مقرن بن زامل). فأمر دي سكويرا القائد البرتغالي سابق الذكر (انطونيو كوريا) بتجهيز حملة اولاه قيادتها وزوده بـ(٤٠٠) مقاتل برتغالي للذهاب الى البحرين والقضاء على تمرد اميرهم (مقرن). وقد رافقت (كوريا) وتحت امرته عدد (٢٠٠) سفينة هرمزية تضم (٣٠٠٠) جندي هرمزي(٢).

اما (دي سكويرا) فأتجه نحو خليج عدن. وعند مروره بمنطقة الحامي القريبة من مدينة الشحر شرقاً قام بإحراق خمس سفن ليواصل تحركه إلى

---

١ - حنظل، العرب والبرتغال، مرجع سابق ص٣٠٩.
٢ - المرجع السابق ص٣١٠.



مدينة الشحر. حيث حدث ذلك الاعتداء الغاشم(١). ليتحرك بعدها الاسطول إلى عدن. وعلى مقربة من عدن غرقت احدى سفن اسطوله فغير اتجاهه إلى الحبشة ووصل ارخبيل دهلك فميناء مصوع حيث امر بإحراقه وتدميره. وهناك صادف اسطول آخر يقوده القائد (جورجي دي البوكيرك) فتحركوا معا بطريق العودة الى هرمز وقلهات. حيث أمر دي سكويرا من جورجي دي البوكيرك البقاء في مسقط واتجه هو الى الهند(٢).

ومن الأرجح ان لا يكون (دي سكويرا) هو قائد الهجوم. ذلك ان قرار اعفائه كان في شهر صفر سنة ٩٢٨هـ/ يناير عام ١٥٢٢م. أي قبيل هجومه (المفترض) على مدينة الشحر بحوالي عام. وعليه فالأرجح ان يكون ذلك الهجوم على مدينة الشحر في عهد خلفه القائد (دون دورات دي منزيس) بعد تعيينه من قبل ملك البرتغال الجديد (دون جوان الثالث). ودي منزيس هذا كما اشرت له في فقرة سابقة عين اخاه (لويس دي منزيس) قائدا للعمليات العسكرية في السواحل العربية. وان هذا القائد محتمل جدا ان يكون هو من قام بذلك الهجوم على مدينة الشحر. وهذا أكده أيضاً المؤرخ محمد عبدالقادر بامطرف(٣).

وهناك احتمال ضعيف في ان يكون المهاجم قراصنة برتغاليين لا يخضعون رسمياً لملك البرتغال وانما يعملون لحسابهم الخاص او لحساب بعض

---

١ - المرجع السابق ص٣١٩ نقلا عن الشهداء السبعة لمحمد بامطرف.

٢ - المرجع السابق ص٣١٤. وثمة اشارة تفيد الى ان الاب (الفارز) حول جامع مصوع الى كنيسة اطلق عليها (شافعة مريم العذراء).

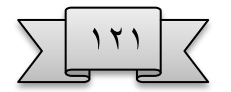
٣ - بامطرف، محمد، الشهداء السبعة ط١، ص٦٦. وانظر أيضاً الجعيدي، السلطنة الكثيرية الاولى ص١٢٩ – ١٣٠.

قادة الاساطيل البرتغالية الذين يغضون الطرف عنهم ويسمحون لهم بممارسة أعمال القرصنة لاقتسام المنهوبات فيما بعد(١). في حين ان عدد السفن المهاجمة لا يوحي بأنهم قراصنة.

وقد تولى الأمير (عطيف بن دحدح) حفظ المدينة وترتيب اوضاعها بعد انسحاب المعتدين البرتغاليين منها. كما وضع حداً للنهب والسلب الذي اقترفه بعض الجنود والمماليك المفسدين ومن العوام ضعاف النفوس ممن استغل حالة الانفلات الأمني(٢).

---

١ - ايفانوف، الفتح العثماني للاقطار العربية. ص١٢٦.
٢ - بافقيه، تاريخ الشحر، ص١٥٧.



موقف السلطان بدر بعد الهجوم البرتغالي الاول

ما ان وصل السلطان (بدر أبو طويرق) لاحقاً إلى مدينة الشحر وعاين حجم الخسائر والدمار الذي لحق بالناس وممتلكاتهم. حتى ادرك بفطنته ان القادم لا محالة سيكون اسوأ ان لم يتداركه من الآن. كما ادرك حجم الدمار الذي تحدثه مدافع السفن البرتغالية الأبعد مدى وتأثيراً، ومدى ضعف تحصيناته ومدافعه. فكان ان فكر اولاً في ضرورة تأمين البلاد والاستعانة بقوات مدربة من الخارج يعول عليها ردع هذه القوة الغاشمة. ولم يفته تلك الاستعدادات والتجهيزات التي يجريها الأتراك العثمانيون لصد هجمات البرتغاليين في البحار ووضع حداً لها. فكأن الأتراك بالنسبة لأبي طويرق طوق النجاة في انقاذ سلطنته من الدمار والخراب القادم. فعزم على التواصل معهم.

فكان أن أرسل أخاه محمد (سلطان ظفار) للقيام بهذه المهمة سنة ٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م. أي بعد عام من ذلك الاعتداء. مفضلاً أن لا يكون هذا الاتصال مباشراً معه كي لا يثير شكوك البرتغاليين ويزيد من نقمتهم على سلطنته. ذلك ان العثمانيين في تلك الفترة وان كانوا بالنسبة له طوق نجاة. إلا انهم لايزالون منشغلين بتثبيت سلطتهم على المناطق اليمنية التي سيطروا عليها. وانهم ما فتئوا إلا ويتنازعوا فيما بينهم على السلطة والنفوذ. وان تلك الحملات التي روجوا لها سابقاً لمطاردة البرتغاليين. لازالت بالنسبة لأبي طويرق في حكم المجهول. لذلك رأى السلطان بدر ان من الانسب مهادنة البرتغاليين ومراوغتهم طوال الفترات القادمة بالرغم مما حدث. وإرجاء أمر الانتقام مما فعلوه بسلطنته وشعبه إلى أن

تحين له الفرصة المناسبة. وبعد ان يكون قد أعدّ لهم العدة الكافية. بل ويلاحظ ان السلطان محمد أيضاً في مهمته تلك حاول ان يموه هدفها بحيث لا يشعر بها أحد. حينما اعلن نيته السفر للحج. وفي طريقه بزبيد قابل الريس سلمان التركي الذي استقبله استقبالا حافلا. وفي زبيد أعلن عن نيته بالزواج واشاع الخبر!. وفي الحج التقى أيضاً بالشريف بركات(١). واستقر فترة هناك، بل وشهد لاحقا موت الشريف بركات وحضر جنازته.

وثمة فرضية لسبر اغوار بعض المشاهد الضبابية من التاريخ، ان يكون من ضمن مرافقي السلطان محمد، الضابط العثماني (رجب التركي) والذي كان قائد اول قوة عثمانية تأتي لحضرموت. ليتولى وساطة اللقاء ويثمره. ذلك ان الأحداث اللاحقة اشارت الى مقتل سلمان ريس وابن اخته ويدعى (رجب) على يد (خير الدين باشا) سنة ٩٣٤هـ/ ١٥٢٧م. ورجب هذا الذي لا نملك الكثير عنه، هو اخ القائد (مصطفى بيرم) او قريباً له. ولعل هذا ما يفسر لاحقا عند قدوم (مصطفى بيرم) لحضرموت استجابته السريعة لطلب السلطان بدر وتزويد الحامية العثمانية بمقاتلين واسلحة. وسنأتي إليها عندما نتطرق لحملة مصطفى بيرم للهند بشيء من التفصيل.

١ - ذكرت بعض المصادر انه في ٢٧ ربيع ثاني سنة ٩٣٠هـ/ مارس ١٩٢٤م ((سافر السلطان محمد بن عبدالله بن جعفر الكثيري إلى الحج من طريق البحر، ودخل زبيد، واخرج له الامير سلمان ابن اخيه المظفر بالعسكر للقائه، واعزه أعزازاً لائقاً به، وتزوج بزبيد، وعزم إلى مكة وحج وجاور بمكة، واجتمع بالشريف بركات بن محمد صاحب مكة))، بافقيه، تاريخ الشحر، ص١٦٠؛ باسنجلة، العقد الثمين، ص٤١.

اما السلطان بدر الكثيري فحاول وبكل هدوء تعزيز امن مدنه الساحلية عن طريق شراء عدد من السفن التجارية بعد أن قلت اثمانها لعزوف ملاكيها عن الإبحار بها خوفاً من غرقها على ايدي البرتغاليين. كما حاول أيضاً تجنيد قوة اخرى من الاتراك وشراء عدد من المدافع. كما عمل على تعزيز اقتصاد بلاده وتقوية التداول المالي. حين امر في شهر ربيع اول سنة ٩٣٤هـ/١٥٢٧م بضرب عملة نقدية جديدة(١). وبعدها سنة ٩٣٧هـ/١٥٣٠م امر بضرب عملة اخرى فضية تحمل اسمه من فئة الريال وفئة النصف والربع ونقود نحاسية صغيرة وكبيرة(٢).

اما احوال هذا السلطان مع الداخل الحضرمي، فقد استمر في نزاعاته مع القبائل المتمردة وصراعاتها التي لا تنتهي. وكلما قضى على تمرد هنا فاجأه تمرد هناك. ولعل اشهر هذه التمردات في هذا العقد، تلك التي حدثت سنة ٩٣٦هـ/١٥٢٩م في غيل بن يمين حينما اعلنت احدى القبائل تمردها الرسمي على الدولة. وبدأت بأعمال النهب والتقطع للقوافل الذاهبة إلى حضرموت الداخل او القادمة منها. كما اغاروا على بعض القرى التابعة للسلطان بدر والتي يحتفظ فيها اهالي المدينة بممتلكاتهم الثمينة خوفاً من البرتغاليين. كإغارتهم على قرية تبالة. او إجلائهم لأهالي قرية خرد شمال شرق المدينة ونزوح اهلها إلى مدينة الشحر القريبة(٣). ولم تقدم لنا المصادر اسباب هذا التمرد. وتلك الأحداث اثارت حفيظة السلطان بدر الذي أرسل قوة كبيرة إلى منطقة غيل بن يمين للقضاء على

---

١ - بافقية، تاريخ الشحر، ص١٨٦؛ باسنجلة، العقد الثمين الفاخر، ص٤٤.

٢ - تاريخ الدولة الكثيرية (٣٨/١)، الشهداء السبعة، ص٦٣. ولعله كان هذا سنة ٩٣٤هـ، خاصة وان المصدرين السابقين لم يشيرا إلى هذا الحدث.

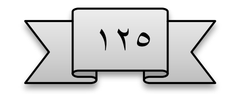
٣ - بافقيه، تاريخ الشحر، ص١٩٢.

هذا التمرد وتشريد الكثير منهم(١). كما تمكن من اخراجهم من قرية خرد واعادة اهلها إليها. كما تمردت عليه قبيلتا نهد وبني هلال مما اضطر بالسلطان بدر الى تجهيز حملة لقمعهم والتي ضمت مائة جندي من العثمانيين إلى جانب قواته. واستطاع فيها التغلب على قبيلة نهد وأسر زعيمها محمد بن علي بن فارس النهدي(٢). وكذلك كان الحال مع قبائل المهرة وآل العمودي(٣).

ان تلك الإجراءات التي اتبعها السلطان (أبو طويرق) مع بعض القبائل بالإضافة الى سياساته الإدارية الاخرى، أثارت مجدداً حنق أخيه السلطان (محمد) والذي تربطه علاقات حميمية بتلك القبائل. حيث كاتب هذا السلطان أخاه بشأنهم. إلا أن أبا طويرق تجاهل طلبه. مما جعل العلاقة بينهم تسوء. ثم ما لبث ان اعتذر السلطان (بدر) لأخيه الاكبر السلطان (محمد) وسعى لرأب الصدع بينهما.

---

١ - تاريخ الدولة الكثيرية (٣٨/١-٣٩). بافقيه، تاريخ الشحر، ص١٩٢.
٢ - للتفصيل الجعيدي، السلطنة الكثيرية الاولى ص٨٩ – ٩٠.
٣ - المرجع السابق ص٩٣.



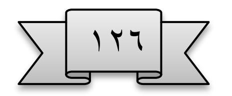
علاقة السلطان بدر بالبرتغاليين

ان علاقة السلطان بدر مع البرتغاليين وبالرغم من توترها بعد هذا الحادثة. إلا انه حاول التملق للبرتغاليين وكسب ودهم وكأن شيئاً لم يكن. وبالرغم أيضاً من استمرارية استفزازاتهم في المياة الاقليمية لمملكته. وهذا نجده من خلال السماح لسفنهم ومراكبهم التزود بالوقود. كما سمح لهم بالبيع والشراء في اسواق المدينة. وليس هذا ببدعة. فقد فعلها حكام عدن من قبل وهاهم يفعلونها مجدداً سنة ٩٣١هـ / ١٥٢٤م بعد ان وافق حاكم عدن الامير (عبد الملك بن محمد الطاهري) على عقد اتفاق صلح مع القائد البرتغالي (هايتور دي سلفيرا)(١). وقد أشرت مسبقاً عن مدى انسجام السياسة الخارجية للدولة الكثيرية مع السياسة الخارجية للدولة الطاهرية في عدن. ففي هذا العام او الذي قبله تم تغيير نائب ملك البرتغال بالهند القائد (دي منزيس) وعين بدلاً عنه القائد العجوز سابق الذكر (فاسكو داجاما) والذي اسرع الخطى عام ١٥٢٤م/ ٩٣١هـ لأستلام منصبه الجديد في الهند وهي رحلته الثالثة للهند. مصطحباً معه اثنان من ابنائه هما (استيفاو داجاما) و (كريستوفا داجاما) وهما لا يقلان وحشية ودموية عن والدهما في ادوارهما القادمة.

فبعد تعيين (داجاما الاب) نائبا لملك البرتغال في الهند. كلف هذا مباشرة القائد البرتغالي (دي سلفيرا) سابق الذكر بقيادة حملة برتغالية إلى عدن بقوة قدر عددها بـ(٧٠٠ جندي برتغالي) وكان من مهامها إلى جانب السيطرة على

---

١ - العرب والبرتغال ص٣٢١.



عدن ان يقوم بقرصنة ونهب السفن التي تصادفهم على السواحل العربية. وعند وصول هذه القوة إلى عدن تم ابرام اتفاق صلح مع حاكمها الامير (عبد الملك الطاهري) جاء في بنوده: ((ان يقوم حاكم عدن بدفع ضريبة للتاج البرتغالي مقدارها ألفا أشرفي ذهب وان يفتح ميناء المدينة للسفن البرتغالية وان يقيم في البلدة ممثل برتغالي بصورة دائمة))(١). ان اسم هذا القائد (دي سلفيرا) يقودنا لاسم قائد برتغالي آخر قتل في عدن على يد الامير مرجان الظافري اثناء حملة البوكيرك لغزو عدن. فهل هي مصادفة؟.

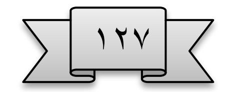
ولم تعجب بنود الصلح (داجاما) فقد كانت طموحاته أكبر لولا ان الموت عاجله(٢) مبدداً طموحاته تلك وآماله في غزو البحر الاحمر وتدمير مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم. ليخلفه بصورة مؤقته (لوبو فاز دي سامبايو). وهذا فور توليه المنصب حرك حملة بقيادته مكونة من خمس سفن عليها ٣٠٠ جندي برتغالي وابحر بهم نحو هرمز وتوقف عند قلهات ومسقط بعد ان علم بوجود تمردات هناك على حاكم هرمز التابع لهم .فقام بقصف المدينتين وتدميرها.

ان كل هذه الاعتداءات تهدف إلى ارغام البلدان العربية القبول بالسيادة البرتغالية على اراضيها وان تدفع لهم اتاوات سنوية من ثرواتها وخيراتها. حيث نجد ان محاولاتهم لفرض السيطرة لم تتوقف بالرغم من تغير قياداتها. فالسياسة التي يسيرون عليها تكاد تكون واحدة لا تتغير مما يبعث بالعجب!.

---

١ - العرب والبرتغال ص٣٢١.

٢ - مات فاسكو داجاما في ديسمبر ١٥٢٤م ودفن في كوتشي بالهند.



كما فرض البرتغاليون صلح اخر مع امير عدن سنة ٩٣٦هـ/١٥٣٠م(١). وأيضاً مع حكام (قلهات) التابعة لمملكة هرمز على الساحل العماني وفي السنة نفسها(٢). ومن المحتمل ان تكون تلك الاتفاقات شملت سلطنة حضرموت وظفار أيضاً. وبالمقابل لم يعترض البرتغاليون السفن المبحرة في اعالي البحار التابعة لأبي طويرق او رعاياه ولكن اكتفوا فقط بأخذ بعض الضرائب عليها واعطاء تلك السفن (صك/تأشيرة) بعدم الاعتراض. مع تحديدهم لنوعية وكمية السلع التي ينبغي على التجار الحضارمة الإتجار بها.

وهذه الإجراءات على الرغم من تعسفها وقسوتها واعترافها الضمني بالسيادة البرتغالية على البحار إلا انها ساعدت على عودة الإنتعاش الإقتصادي للبلد وبدأت الاحوال المعيشية تزدهر.

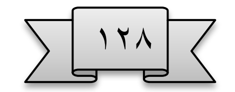
ومن الطبيعي ان يلاقى السلطان بدر من العامة عدم ارتياح لهذه العلاقة خاصة وان جروح تلك المعركة الدامية مع البرتغاليين لم تلتئم بعد. إلا ان الناس قبلوا بها عن مضض خوفاً من بطش السلطان الذي تولى الحماية لهم. اما التجار واصحاب المصالح والإنتهازيين فهم إلى جانب هذه الطريقة الجديدة في التعامل بالرغم مما فيها من ابتزاز لمصالحهم.

نرى ان هدف السلطان (بدر) من هذه العلاقة وتلك المعاملة مع البرتغاليين، إلى جانب تجنيب بلاده مدافعهم. ان يثير في نفوسهم شهوة الطمع والجشع بدلاً من الإنجرار وراء القسوة وسفك الدماء. ذلك ان التعامل مع هؤلاء

---

١ - انظر بافقيه، تاريخ الشحر، ص١٩٤-١٩٥.

٢ - انظر للتفصيل، الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج، ص١٥٣.



الوحوش وفتح الباب بمصراعيه لهم للمتاجرة داخل الاراضي الحضرمية، من شأنه ان يثنيهم عن قتل المسافرين العرب وغير العرب عبر البحار. وتفضيل بيعهم في الاسواق التابعة لسلطنته كعبيد وارقاء. وكذلك الحال مع السفن المملوكة للتجار العرب وغير العرب. فبدلاً من قيام البرتغاليين بإحراقها او إغراقها يقوم هو (أي السلطان بدر) بشرائها منهم او يسمح لمالكيها السابقين بالشراء وبثمن (دون) قيمتها الحقيقية. وهذا يعني خسارة اقل للملاك. ويعني أيضاً اثارة شهوة البرتغاليين لطلب المزيد والمزيد من أعمال القرصنة. وهذا ما فعلوه.

ونلاحظ انه على الرغم من ان هذا التعامل الجديد قد شكل مصدر ربح بالنسبة للبرتغاليين. إلا انه في الوقت نفسه يُعد مخالفة صريحة للأوامر التي يتلقونها من قادتهم وملوكهم والتي تأمرهم بالقتل والحرق والتدمير دون تهاون(١) واقامة المستعمرات لهم. ولكن هذه هي السياسة وهكذا هي افعال تجار الحروب.

ومن الملاحظ أيضاً ان السلطان بدر بحنكته هذه وبدهائه السياسي وقدرته على ضبط النفس مقارنة باستفزازات البرتغاليين. ان جنب المدينة مزيداً من الدمار. ومصيراً كان ينتظرها كمصير جزيرة سقطرى أو مصير قلهات

١ - أول من انتهج هذه السياسة هو القائد البرتغالي (لوبو سواريز) حين سمح رسمياً لكل البرتغاليين بالاشتغال في التجارة. وهي سياسة معاكسة لسياسة سلفه البوكيرك التي تطرقنا إليها سابقا. وكنتيجة لهذا عجت البحار بالتجار القراصنة. روبرت سارجنت، البرتغاليون قبالة ساحل جنوب بلاد العرب،مجلة اليمن، العدد ٢٦، نوفمبر ٢٠٠٧م، ص١٨٥.

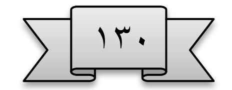
وقريات ومسقط وصحار والبحرين على السواحل العمانية وعلى مياه الخليج العربي(١).

وكما قلنا فالعلاقة بين السلطان بدر والبرتغاليين متأرجحة ومتذبذبة، فالأحداث القادمة على سبيل المثال ما بين (٩٤٠ – ٩٥٠هـ/ ١٥٣٣ – ١٥٤٣م) والتي تم فيها انضواء حضرموت تحت راية العثمانيين. ان العلاقة تلك ظلت على تأرجحها فتارةً تستمر العلاقات والتبادلات التجارية بينهما كسابقاتها، وتارة اخرى اعتداءات واستفزازات برتغالية على السواحل الحضرمية بل وداخل ميناء الشحر نفسه دون ان يتصدى لها السلطان بدر. وتارة أخرى يبطش بالبرتغاليين ويأسر العديد منهم. بل واحيانا أخرى يسخّر اولئك البرتغاليين ليستفيد من مهاراتهم وخبراتهم في دحر اعدائه في الداخل الحضرمي. وهكذا حيثما تكون المصلحة والمنفعة.

ولعل هذا ما يفسر لاحقا واثناء مرور حملة بيري ريس على سواحل حضرموت. ان وجه رسالة انذار للسلطان بدر محذراً إياه من مغبة التعامل مع البرتغاليين(٢).

---

١ - المرجع السابق، ص١٥٣-١٦١.
٢ - خليل، محمد محمود، وثائق بحرية عن قبودان السويس ص٨.



نماذج من القرصنة البرتغالية

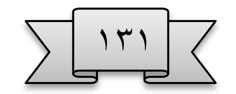
في اشارة للمؤرخ الروسي (نيقولاي ايفانوف) أن الاسطول البرتغالي بسفنه التي ترفع شارة الصليب على اشرعتها شنت في الفترة من (٩٢٣ - ٩٣٨هـ) (١٥١٧ - ١٥٣١م) ((تسع حملات عسكرية كبيرة على الشواطئ الجنوبية لشبه الجزيرة العربية والقرن الافريقي. كما شنت مجموعات مسلحة صغيرة من الزوارق الحربية البرتغالية وقراصنة البحر وبعض السفن المنفردة التي كانت تمخر عباب البحر بإذن ملكي خاص. عدداً اكبر من الهجمات على تلك المناطق. ومنذ عام ١٥٢٣م (٩٣٠هـ) بدأ القراصنة البرتغاليون يظهرون على شواطئ شبه الجزيرة العربية ويتعاطون مهنة القرصنة لحسابهم الخاص دون إذن من احد. فكانت السلطات الشرعية تلاحقهم شكلياً. لكنهم في الحقيقة كانوا يستندون إلى تأييد ممثلي الملك ويتقاسمون الغنائم معهم، كما كانوا عند الضرورة يجدون الملاذ لهم في المرافئ الملكية..))(١).

فمن تلك الاعمال نشير على سبيل المثال انه في شهر شعبان سنة ٩٣٠هـ/ يونيو ١٥٢٤م اعترض البرتغاليون عدد من السفن الحضرمية القادمة من شرق افريقيا واغراق ثلاث سفن منها يملكها تجار من الحامي. واربع سفن يملكها اهالي صور العمانية وتجار الكويت(٢).

وفي شهر جماد الاولى سنة ٩٣١هـ/ مارس ١٥٢٥م هاجم البرتغاليون مدينة قصيعر المشقاصية واحرقوا عدد من السفن الراسية فيها، كما اسروا بعض

---

١ - ايفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية، ص١٢٦.
٢ - بامطرف، الشهداء السبعة، ص٨٤.



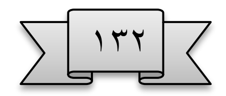
بحارتها(١). من المحتمل ان يكون قائد هذه العملية البرتغالي (هايتور سلفيرا) فقد اشارت بعض المراجع إلى ان أوامر جاءت له من الهند تأمره بالتوجه إلى مدينة ظفار وتدميرها(٢).

وفي شهر محرم سنة ٩٣٢هـ/ اكتوبر ١٥٢٥م تم اعتراض سفن قادمة من الهند، تابعة لتجار من الشحر. واغراق خمس منها بعد أسر بحارتها. وقد تم افتداؤهم في مدينة الشحر(٣).

في شهر شعبان سنة ٩٣٣هـ/ مايو ١٥٢٧م ((اغار البرتغاليون على زوارق السمك بقرية روكب واغرقوا ودمروا عدداً منها. ثم اتجهوا إلى مرسى خلف (المكلا) حيث احرقوا عدداً من هواري أهل المكلا وثلاث سفن صومالية صغيرة كانت محملة بالأغنام))(٤).

في جمادي الاولى سنة ٩٣٤هـ/ يناير ١٥٢٨م اعترض البرتغاليون سفن حضرمية قادمة من الخليج العربي في منطقة المشقاص (الاطراف الشرقية لحضرموت) واغرقوا سفن يملكها اهالي الحامي(٥). وقد اشار المؤرخ بافقيه لهذه الحادثة ولكن باختصار شديد فقد ذكر وصول الاسطول البرتغالي وعدده (١٤ خشبة/ سفينة) ومكث برهة في منطقة المشقاص (دون ذكر أي اعتداء). كما

١ - الشهداء السبعة، ص٨٤.
٢ - العرب والبرتغال ص٣٢٢.
٣ - الشهداء السبعة، مرجع سابق، ص٨٤.
٤ - المرجع السابق، الصفحة نفسها.
٥ - عددها ١٤ سفينة تابعة لأهالي الحامي. بامطرف، المرجع السابق، الصفحة نفسها. اشار المؤرخ بافقيه لوصول البرتغاليين لمنطقة المشقاص بأسطول مكون من ١٤ سفينة. ولم يذكر حادث الاغراق. بافقيه، تاريخ الشحر ص١٨٦.



ذكر انه قدم للساحل (مدينة الشحر) الشيخ الفقيه (عمر بن محمد العمودي)(١) ومعه جماعة من فقهاء قيدون وجماعة من أولاده وأقاربه بنية الجهاد. بعد ان تنامى لأسماعهم اقتراب اسطول برتغالي من ساحل مدينة الشحر ومن المحتمل مهاجمتها.

في يوم الاحد ١٩ جمادي الثاني سنة ٩٣٥هـ/ ٢٨فبراير١٥٢٩م وصلت ميناء الشحر احدى السفن البرتغالية من نوع الغراب(٢). وصادف في الميناء مركباً محمل (فوة) وغيرها يريد الهند فاستولوا عليها واتجهوا بها إلى ميناء حيريج وهناك دفع لهم صاحب المركب مبلغ قدره (ألف وثمانمائة أشرفي) بغرض إعادته له(٣).

ونلاحظ في هذه الحادثة الأخيرة ان جنود السلطان بدر لم يعترضوا السفينة البرتغالية المهاجمة ولم يمنعوها من اخذ المركب المشحون بالفوة. وهذا يضع تساؤلات عن السر وراء ذلك. فهل سمح السلطان بدر على سبيل المثال للسفن البرتغالية بدخول الميناء من دون اعتراض؟ وإذا كان كذلك فلماذا أخذ البرتغاليون ذلك المركب دون غيره؟ من المحتمل تجدد العلاقة بين البرتغاليين والسلطان بدر. ومن المحتمل أيضاً ان يكون المركب بما فيه من بضاعة غير تابع لرعايا السلطان. وانه وجوده بالميناء كان مخالفاً للتعليمات المتفق عليها مع

---

١ - بافقيه، تاريخ الشحر ص١٨٦. ولا ندري ان كان ما اورده بافقيه من حيث الاسم صحيحاً او ان المقصود به الشيخ عمر بن أحمد العمودي اخو الشيخ عثمان بن أحمد. انظر ترجمة الشيخ عمر بن أحمد العمودي في السناء الباهر ص٣٥٧.

٢ - الغراب : مفرد غربان، وهي سفينة حربية قديمة مدببة الحيزوم ذات اشرعة ومجاديف انظر معجم الالفاظ التاريخية في العصر المملوكي ص١١٥، وهي ((تعد من اقدم السفن الحربية التي كانت معروفة عند القرطاجيين والرومان وغيرهم، ولم تزل معروفة حتى ايام الدولة العثمانية ولم يتغير شكلها فكانت تسمى فيها بالغراب أو (القدرغة) وكانت من اشهر انواع سفنها الحربية)) انظر، عبادة، عبدالفتاح سفن الاسطول الاسلامي وانواعها ومعداتها، مطبعة الهلال، مصر،١٩١٣م، ص٧. وقد سميت بالغراب لان مقدمتها تشبه رأس الطائر او الغراب.

٣ - بافقيه، تاريخ الشحر، ص١٨٩. الشهداء السبعة، ص٨٤.

البرتغاليين والتي تفترض ان أي مركب يجول في البحر او في الموانئ التي تحت ايديهم ان يحمل معه صك (تأشيرة) صادرة منهم. مالم فيصادر بحمولته. ومما يقرب هذا الاحتمال ان المركب شاحن بضاعة (فوة) ومصدر الفوة اليمن التي تشتهر به. وان وجهته الهند. يعني ان مروره بالميناء انما لغرض التسوق او التزود ببعض المؤن وصادف وصول السفينة البرتغالية. ومن المحتمل أيضاً ان يكون دخول السفينة البرتغالية ميناء الشحر والاستيلاء على مركب فيها. فيه نوع من الاستفزاز والتحدي واختبار ردة فعل السلطان بدر. وقد تكون تلك السفينة البرتغالية من السفن المنفردة التي تمارس اعمال القرصنة لحسابها الخاص بعيداً عن الاوامر الرسمية. وقد اشرنا لهذا مسبقا.

ومما يؤكد سماح السلطان بدر للبرتغاليين بالتجارة نشير إلى انه في شهر جمادى الأول أو الآخر من سنة ٩٣٦هـ/ يناير - فبراير١٥٣٠م((وصل مركب بادقل وفيه رجل من الافرنج. طلب الامان على نفسه على انه تاجر خرج للبيع والشراء فأعطي الأمان وابتاع واشترى))(١). وبعدها في يوم ١٩ رجب ٩٣٦هـ/ ١٩مارس ١٥٣٠م وصل غراب برتغالي وفيه اعداداً من الأسرى المسلمين. وطلبوا الامان من السلطان ليخرجوا إلى البلاد للبيع والشراء. واعطاهم السلطان الامان. ثم ارتحلوا بمن معهم إلى سواحل افريقيا(٢).

وزاد المؤرخ محمد بامطرف في هذه الرواية بالقول ((وعند حدوث هذه الحادثة كان الشيخ (عبدالله بن عمر بامخرمة) (ت:٩٧٢هـ/١٥٦٤م) موجوداً في الشحر. وقد اعترض بشدة على عدم تدخل السلطان بدر لافتداء الأسرى المسلمين

---

١ - بافقيه، تاريخ الشحر، ص١٩٤.
٢ - المرجع السابق، نفس الصفحة. الشهداء السبعة، ص٨٥.



أو احتجاز السفينة البرتغالية لدية. وانه على أثر هذه المشادة التي صارت بينه وبين السلطان بدر انتقل الشيخ عبد الله إلى عدن محتجاً على موقف السلطان هذا(١).

ونرى ان هذا الفعل -ظاهرياً - قد يكون صحيحاً او انه قد أشيع بين العامة هكذا. ولكن وكما نرى من سياق الأحداث اللاحقة أن في أمر مغادرة بامخرمة الشحر لعدن، خفايا ما، فبامخرمة ليس بالشخصية البسيطة أو العادية وهو من اكثر المقربين من أبي طويرق والأعلم بسياسته. بل ويعد من كبار مستشاريه وكاتبه الخاص(٢). فغالب الظن ان ذهاب الفقيه بامخرمة إلى عدن كان لغاية اخرى وليس كما أشيع عنها من وجود خلاف. وهي استعجال التجريدة العثمانية أو على الاقل إرسال قوة مساندة على وجه السرعة. وقد اشيع غيرها حتى لا ينتبه لها الاعداء. وهذا ما حدث بالفعل لاحقاً وعودة بامخرمة لمنصبه.

وفي يوم الخميس ٨ محرم ٩٣٧هـ/ ٣١ اغسطس١٥٣٠م وصل لحضرموت (غراب برتغالي) قادماً من عدن. وعندما اقترب من مدينة الشحر صادف فيها مركباً فنهبه واستولى على ما فيه. ثم واصل ابحاره ولما اقترب من مدينة الحامي صادف سفينة حضرمية من نوع (جلبة) واراد الاستيلاء عليها. لكن ركاب الجلبة كانوا مستعدين له فاشتبكوا معه ليلوذ بعدها بالفرار بعد ان قتل بالرصاص ثلاثة من المقاومين (٣).

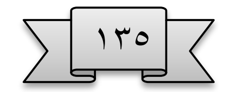
وفي جمادى الأخرى سنة ٩٣٨هـ/ ١٥٣١م أي بعد مغادرة القوة العثمانية بقيادة (مصطفى بيرم) وسناتي لها، وصل طراد من جهة المشقاص محملاً ارز

---

١ - الشهداء السبعة، ص٨٥.

٢- باوزير، سعيد، صفحات من التاريخ الحضرمي، ص١٧٧.

٣ - بافقيه، تاريخ الشحر، ص١٩٦. وللمؤرخ محمد بامطرف تفصيل آخر وتخريج لهذا الحدث، انظر الشهداء السبعة ص٨٥.

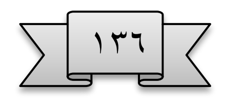


وغيره بغرض التجارة وفيه تاجر برتغالي طلب الامان. وفي هذا الشهر نفسه ظهر غراب برتغالي على بندر الشحر بهدف القرصنة(١). وقد اعترض مركبا قادما من الهند ودارت بين المركبين معركة بحرية تبادل فيها الطرفان النار بالمدافع والبنادق(٢). وهذه الحادثة عند باسنجلة تفيد بوصول مركب من الهند تابع لرجل من يافع وخلفه سفينة برتغالية تطارده وانه حالما وصولهما للميناء. قام البرتغاليون بقتل سبعة من الركاب واستولوا على ما في المركب وغادروا من دون ان يعترضهم احد(٣). وتكررت مثل هذه الاعتداءات قبالة ساحل المدينة وحضرموت عامة.

وفي شهر رمضان سنة ٩٣٩هـ/ مارس ١٥٣٣م هاجمت ثلاث سفن برتغالية ميفع بغرض الحصول على الماء ولكنهم منعوا. ثم انتقلوا الى بروم فالمكلا وتم مقاومتهم ومنعهم(٤). وفي نفس الشهر من السنة نفسها ، هاجمت سفينة برتغالية قريبا من الساحل الحضرمي طراداً قادماً من زيلع فيه دقيق ورقيق. فهرب من فيه الى البر تاركين له الطراد بما فيه من مواد غذائية. وفي اليوم التالي منه عاد اصحاب تلك السفينة البرتغالية ونزلوا الى البر اعتقاداً منهم ان الفارين من الطراد اخفوا ذهباً في ذلك المكان الذي فروا إليه. ولم يدر في خلدهم ان رجال حضرموت لهم بالمرصاد. فما ان وصلوا الى المكان المعلوم حتى تفاجؤوا بكمين نصبه لهم (آل بامحمد) فقتلوا منهم سبعة وجرحوا اثنين. وهرب الباقون إلى سفينتهم(٥).

---

١ - بافقيه، تاريخ الشحر ص٢٠٣.
٢ - المرجع السابق ص٢٠٤.
٣ - انظر الرواية بصيغتها في تاريخ الشحر لباسنجلة ص٤٨.
٤ - بافقيه، تاريخ الشحر ص٢١٤.
٥ - بافقيه، تاريخ الشحر ص٢١٥.



في رمضان ٩٤٠هـ/ مارس ١٥٣٤م استولى البرتغاليون على اربعة مراكب هندية تابعة لسلطنة كوجرات وأسر من فيها. وكذلك على مركب آخر يقوده الربان (ابن منقوش) فيه جماعة من المسافرين. وفي ميناء حيريج بالمشقاص. تم التفاوض على اطلاق سراح مركب ابن منقوش بمن فيه مقابل دفع (٢٢ ألف أشرفي). ووافق البرتغاليون على اطلاق سراح التجار والمسافرين فقط. أما بحارة المركب فرفضوا الإفراج عنهم(١).

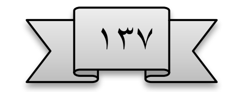
في شوال سنة ٩٤٠هـ/ مايو ١٥٣٤م صادفت سفينة برتغالية (سنبوقاً) يملكه اناس من الشحر محملا (بز اسود حضرمي وقرنفل وغير ذلك) في منطقة (عين بامعبد). فلما رأوا السفينة قادمة تقافز الشحريون من سنبوقهم تاركينه للبرتغاليين بما فيه من حمول. وبعدها بأيام وقريباً من منطقة (روكب) استولت السفينة نفسها على سنبوقا آخر يملكه اهالي الشحر. وهذه المرة أخذوا الركاب وما خف حمله. بينما تركوا السنبوق بما فيه من حمول في عرض البحر. وفي الشحر تم التفاوض معهم على اطلاق سراح الركاب مقابل المال(٢).

ان ما اوردناه مجرد نماذج فقط اوجزناها وخلال فترة عقد من الزمان. فهناك من دون شك الكثير من الحوادث بحاجة لمن ينقب عنها ويظهرها. كما ان اعمال القرصنة تلك لم تتوقف عند هذه الفترة التاريخية وانما استمرت بعدها لعقد آخر(٣) وسنأتي لطرف منها ضمن سياق الأحداث.

ويمكن ان نقول هنا انه وبعد نهاية هذه الفترة وابتداء من سنة (٩٤٠هـ وما بعدها / ١٥٣٣م وما بعدها) بدأت ملامح اللعبة تتغير. وبدأ تعامل السلطان بدر

---

١ - المرجع السابق ص٢٢٠.
٢ - المرجع السابق ص٢٢١.
٣ - للمزيد عن تلك النماذج، انظر الشهداء السبعة، ص٨٤-٨٨.



الكثيري مع البرتغاليين يختلف نوعا ما. وبدأت ملامح القوة ومواجهة التحديات تتجلى في تعامل السلطان بدر مع البرتغاليين. خاصة وان طلائع الامدادات العثمانية بدأت تتوافد على منطقته وهي وان كانت في بداياتها الاولى محدودة إلا انها عززت من سلطته وازداد بها قوة.

الفصل الرابع

الصراع البرتغالي العثماني

قبالة سواحل حضرموت

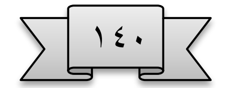
قدوم العثمانيين وبداية تغير السياسة

بعد تلك المعركة الاليمة التي مرت بها مدينة الشحر سنة ٩٢٩هـ/ ١٥٢٣م وعدم اتخاذ السلطان بدر الكثيري أي اجراءات ضد المعتدين البرتغاليين ترد للناس اعتبارهم. وتعيد لهم خسائرهم ومنهوباتهم. ازداد الضغط الشعبي على السلطان وبدأت الناس تظهر تذمرها وتضيق درعاً بسياساته. فكان لزاماً على السلطان التصرف سريعاً لرد الاعتبار للمدينة واهلها ولنفسه كسلطان مسؤول عن رعيته أولاً قبل كل شيء وإلا فأن الثورة عليه قادمة لامحالة وستفرض نفسها وتقوض عرشه. وبطبيعة الحال فإن اعداءه المحليين ومنافسيه سيستغلون وضعاً كهذا ويأججون العامة ضده.

ومما عقد الأمر عليه أكثر تلك الممارسات الاستفزازية للبرتغاليين التي لم تتوقف مع التزامه تجاهها بالصمت وعدم إبداء أي ردة فعل تجاههم. بل وسمح للبرتغاليين ممارسة حرية التجارة داخل البلاد وتكفل هو بحمايتهم وحماية منهوباتهم.

لقد اصبح الجميع ينظر إلى هذا السلطان نظرة العاجز، المسلوب الإرادة. الضعيف لدرجة ان الشعراء الشعبيين المعاصرين له، يستصغرونه في قصائدهم التي تذاع على الملأ في مساجلاتهم ومسامراتهم(١). ولعل هذا أيضاً ما دفع بالشيخ الفقيه (عمر العمودي) وعدد من افراد قبيلته القدوم من منطقتهم (دوعن) إلى

١ ـ للمزيد عنها، انظر الشهداء السبعة، ص٨٨-٩١.



مدينة الشحر معلنين الجهاد ضد البرتغاليين(١) ولو منفردين. مشكلين بهذا ضغط وزيادة إحراج للسلطان بدر. وكان هذا كما أشرت سنة ٩٣٤هـ/١٥٢٧م.

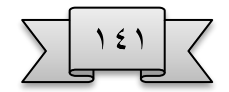
وعلى ما يبدو فإن السلطان بدر استطاع إقناع الشيخ العمودي بما يخطط له. بل وطلب منه مساعدته لاستعمال وجاهته ومكانته الروحية والتدخل مباشرة لحل مشاكله الداخلية مع القبائل المتمردة عليه كي يستتب له الأمر ويتفرغ لما هو أهم.

وبالفعل تدخل الشيخ (عمر العمودي) في وساطات لحل بعض تلك المشاكل والنزاعات(٢). الامر الذي لم يعجب الشيخ (عثمان بن أحمد العمودي) والذي بدوره مارس ضغوطات على الاخير ليتنازل له عن الزعامة. فاضطر الشيخ عمر للتنازل. وقد دخل (عثمان العمودي) في تحالفات مع المناهضين لسياسة وسلطة أبي طويرق، بل وحروب مستقبلية معه فضلاً عن تحالفه مع الزيود(٣).

ان مالم يدركه عامة الناس في تلك الفترة ان السلطان (بدر أبا طويرق) كان يعد عدته للانتقام من البرتغاليين عن طريق الإكثار من شراء الرقيق واستعمالهم كجنود في خدمته. فضلاً عن تأمين المدينة وتعزيز اسوارها. كما قام بشراء عدد من المدافع وتخزينها حتى لا يراها البرتغاليون فيرتابوا في أمرها. وأيضاً حاول تهدئة الداخل الحضرمي وإصلاح علاقته بأخيه محمد وحلفائه (الحموم). كما حاول ان ينعش اقتصاد بلاده. والاهم انه كان في تواصل دائم مع العثمانيين في اليمن وتتبع اخبارهم واخبار تلك الحملة التي صارت شبه جاهزة للانطلاق.

---

١ - بافقيه، تاريخ الشحر، ص١٨٦.
٢ - انظر بافقيه، تاريخ الشحر، ضمن حوادث سنة٩٣٥هـ/١٥٢٨م. ص١٩٠.
٣ - انظر بافقيه، تاريخ الشحر، ص١٩٨؛ باوزير، سعيد، صفحات من التاريخ الحضرمي، ص١٩٥-١٩٦؛ الجعيدي، السلطنة الكثيرية الاولى ص٩٣.

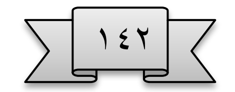


ومثلما حدث في عدد من المناطق اليمنية التي حاول فيها الجراكسة بعد انهيار دولتهم المملوكية العمل مع الحكام المحليين وتقديم الخدمات لهم مقابل أجراً مالياً. فعلها كذلك العثمانيون بعدهم ممن توافدوا افرادا وجماعات للعمل مع الحكام المحليين إلا ان هذا كان في الغالب برغبة واوامر الباب العالي(١). وأحيانا لرغباتهم الشخصية(٢). وقد حدث هذا أيضاً مع الدولة الكثيرية وسلطانها أبي طويرق. وقد سبق واشرنا للتواصل المبكر مع الباب العالي ولتلك القوة التركية التي استقدمها السلطان بدر بقيادة الضابط (رجب التركي) سنة ٩٢٦هـ/ ١٥١٩م. وهاهم العثمانيون الأن يتوافدون إليه فرادا وجماعات واحياناً في هيئة تجار حتى لا يشتبه في أمرهم أحد. وهذا ما حدث مع (يوسف التركي) والذي اصبح لاحقاً من كبار امراء أبي طويرق. وسنأتي لطرف من اخباره في السياق.

فليس صحيحاً ما قيل ان السلطان بدر كان (واقعا تحت عقدة الشعور بالعجز)(٣) امام استفزازات البرتغاليين وعنجهيتهم. مما دفعه لان يقبل مباشرة الدخول في طاعة بني عثمان عند تقديم اول عرض له. ذلك ان قدوم العثمانيين إلى حضرموت كان بناء على رغبة منه وليس أمر فرض عليه.

---

١ - ايفانوف، نيقولاي، الفتح العثماني للأقطار العربية، ص١٢٢.
٢ - قبيل مغادرة سليمان باشا الخادم الهند بعد فشل حملته في القضاء على البرتغاليين، هرب من جيشه الكثير من الجنود وانضموا الى الجيوش الهندية طمعاً في الرواتب المغرية التي عرضت لهم. النهروالي، البرق اليماني ص٨٤.
٣ - العرب والبرتغال ص٣٣٨.



حملة مصطفى بيرم

في سنة ٩٣٧هـ/١٥٣٠م(١) وصلت ميناء الشحر عدد من السفن التركية القادمة من زبيد بقيادة (مصطفى بيرم)(٢) ومعه نائباه الخواجا الايطالي (صفر آغا) المشهور بلقب (عبد سلمان) والآخر (قره حسين)(٣) ومعهم اعداد كبيرة من الجنود بأسلحتهم النارية ومدافعهم الكبيرة بعيدة المدى. وكان هدفهم المعلن مجاهدة البرتغاليين في الهند ومناصرة سلاطينها المستغيثين بهم وخاصة سلطان كوجرات (بهادر شاه)(٤). في حين ان هدفهم غير المعلن، هو الفرار بأموالهم وغنائمهم من القوات العثمانية الملاحقة لهم. بعد ان فشل انقلابهم على والي العثمانيين في اليمن (خير الدين باشا) وقتله(٥).

ولم يجد السلطان بدر الكثيري بُدّاً من استقبالهم بحفاوة كبيرة وتقديم كل ما يلزم وفي نيته عدم تفويت فرصة كهذه يمكن أن تغير موازين القوى وتقلب المعادلة مع البرتغاليين. حيث طلب من الأمير(مصطفى بيرم) تزويده بقوة مما معه من الجنود والأسلحة والمدافع.

---

١ - ذكر المؤرخ بافقيه هذه الحادثة أولا ضمن احداث سنة ٩٣٦هـ/ ١٥٢٩م ، ثم اعادها وبصيغة اخرى ضمن احداث سنة ٩٣٧هـ/ ١٥٣٠م. انظر تاريخ الشحر، ص١٩٤، ص١٩٦؛ باسنجلة تاريخ الشحر المسمى العقد الثمين الفاخر ص٤٦. اما مصنف (البرق اليماني) فأشار إلى ان وصول هذه الحملة الهند كان في سنة ٩٣٦هـ/ ١٥٢٩م . دون ان يشير الى وصولها مدينة الشحر بحضرموت. النهروالي، البرق اليماني ص٥٥.

٢ - بعض المصادر تذكره (مصطفى بهرام) ويقال انه ابن اخت سلمان الريس. وذكر العيدروس في النور السافر ان جده الشيخ (عبد الله العيدروس) ووالده كانوا في مدينة الشحر، اثناء قدوم هذه التجهيزة، وكانوا عازمين السفر للحج. انظر النور السافر ص٢٧٠.

٣ - باسنجلة، العقد الثمين، ص ٤٦. بافقيه، تاريخ الشحر، ص١٩٤، ص١٩٦. ايفانون، الفتح العثماني، ص١٢٤.

٤ - انظر ترجمة مفصله عنه في تحفة المجاهدين ص٢٠١؛ الحسني، عبد الحي، الاعلام بمن في تاريخ الهند من الاعلام ٣١٨/٠٤). وانظر خبر مصطفى بهرام والخواجا صفر مع السلطان بهادر شاه في السناء الباهر ص٣٣٩ على سبيل الاستشهاد.

٥ - ايفانوف، الفتح العثماني، ص١٢٤. لازال بعض اللبس والغموض يلف الاحداث التي بطلها مصطفى بيرم.

ووافق هذا الامير قبيل مغادرته على امداد (أبي طويرق) ببعض القوة التي تلزمه بقيادة نائبه (الخواجا صفر). والذي أُمره بالانتظار في المدينة ريثما يصل المركب الذي فيه عائلتهم وخدمهم وحاشيتهم. اما بيرم فقد تقدم ببقية القوة التي معه باتجاه الهند. وقبيل رحيله قدم للسلطان (بدر) عدد من الهدايا والخلع. اما مركبه العائلي فقد جنح في (المكلا) بسبب هبوب الرياح الموسمية الشرقية. مما اضطر بالسلطان بدر لإحضارهم عبر طريق البر بواسطة الجمال ذات الهوادج. واستضافهم في المدينة فترة الموسم.

ان تلك الرياح الموسمية التجارية الشرقية المعروفة بـ(الازيب)(١) لم تكن أيضاً في صالح ابحار الامير (مصطفى بيرم) للهند. حيث ارغمته تلك الرياح للعودة الى مدينة الشحر بعد ان بلغ سواحل (شرمة). فأضطر فيها الامير مصطفى المكوث في المدينة في ضيافة السلطان أبي طويرق طوال فترة الموسم(٢).

ولا يدرى أن كان لهذه الحملة أو لهذه الضيافة أية علاقة ببعض الإصلاحات الإدارية التي قام بها السلطان (أبو طويرق) منها عزله لأمير الشحر (عطيف بن دحدح) وتعيين بدلاً عنه الامير (أحمد بن ماقوس). كما جعل الحل والعقد بيد الفقيه (سعيد بن عبد الله الرنكي)(٣).

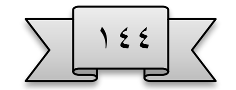
ومن المهم هنا ان نقف عند هذه الضيافة لنستجلي منها بعض الامور. فقد سبق واشرنا إلى رحلة السلطان محمد الكثيري للحج سنة ٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م ومقابلته في زبيد لسلمان ريس خال (مصطفى بيرم) وافترضنا انها لاغراض سياسية تهدف إلى ارسال المدد العاجل لحضرموت بعد الهجوم البرتغالي الاول على

---

١ - عن هذه الرياح ودورها في حركة الملاحة، الكسادي، بدر بن أحمد، القاموس البحري، ص٢٤١ ؛ الملاحي، عبدالرحمن، الحضارم في ممباسا ودار السلام، ص٣٨؛ وكتابه ملامح من التداخل المعرفي بين اليمن وربابنة عمان ص٣٦.

٢ - بافقيه، تاريخ الشحر، ص١٩٧.

٣ - باسنجلة، العقد الثمين الفاخر، ص٤٦. وعن الرنكي انظر المختصر في تاريخ مدينة الشحر العام ص٢٧٥.

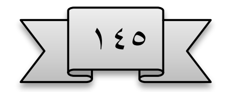


مدينة الشحر. كما افترضنا أيضاً ان تلك الرحلة كانت بصحبة القائد (رجب التركي) قائد اول قوة عثمانية تصل لحضرموت في خدمة الدولة الكثيرية. وان اصطحاب السلطان محمد لرجب، كان بغرض تسهيل المهمة. وكان اللقاء بسلمان ريس مثمرا يدل على ذلك فخامة الاستقبال الرسمي لوصولهم. كما أشرنا إلى أن (رجب) السابق ذكره وخاله (سلمان ريس) قتلوا على يد والي العثمانيين باليمن (خير الدين باشا)(١). الأمر الذي دفع بـ(قريبهم) (مصطفى بيرم) هذا لأن ينتقم لموتهم بقتل الوالي وشركائه في الجريمة ومنهم (سنان القنبطان). ليغادر بعدها إلى كوجرات بالهند مصطحباً معه القوات التابعة لخاله سلمان ريس وعلى رأسهم (الخواجا صفر) والمهندس (قرا حسن الرومي). بينما ترك في اليمن من اصحابه (علي الرومي) يساعده أحمد بك (احد مماليك سلمان ريس) ليتدبرا أمر اليمن. ومغادرته اليمن أشبه بالهروب منها. وهاهم اثناء سفرهم للهند وبعد ان شحنوا سفنهم بالأسلحة والمقاتلين وعائلاتهم(٢). تدفع بهم الاقدار للوصول إلى مدينة الشحر العاصمة الاقتصادية للسلطنة الكثيرية وبضيافة السلطان بدر أبي طويرق.

وخلال فترة مكوث هذه الحملة بحضرموت، استطاع السلطان أبو طويرق الاستفادة من القوة التي لدى (مصطفى بيرم) لإخضاع تمردات القبائل بالمناطق الداخلية. فهذا الاخير قدم للسلطان بدر ((٢٠٠ عسكري رومي من احسن عسكره وعلى رأسهم الخواجا صفر))(٣).

وثمة اشارة أخرى فيما يتعلق بمرافقي اسطول (مصطفى بيرام) وخاصة (قرا حسين) وفي بعض المراجع بـ(قرا حسن الرومي). فهذه الشخصية تعد من الشخصيات المميزة، وغير العادية. فقد عمل جنباً إلى جانب مع الخواجا صفر في

١ - انظر تفاصيله، النهروالي، قطب الدين محمد، البرق اليماني في الفتح العثماني ص٥٣.
٢ - النهروالي، البرق اليماني ص٥٤- ٥٥.
٣ - باسنجلة، تاريخ الشحر ص٤٧.



جيش بهادر شاه الكجراتي وخاضوا معا معارك عدة ضد البرتغاليين. وكذلك بعد استشهاد الخواجا صفر. خدم في جيش ابنه (رومي خان محرم) وانه بعد استشهاد الاب والابن في حروبهم بالهند(١). استدعاه السلطان (أحمد أباد) وعينه قائدا لسلاح المدفعية في جيشه واطلق عليه لقب (المجلس المنصور جنكيز خان).

وان هذا السلطان كلفه بالإشراف على صناعة السفن الحربية وصب المدافع. وقد قيل عنه انه استطاع في وقت قياسي بناء حوالي ٥٠٠ سفينة من نوع الغراب. واستطاع أيضاً في عام واحد صناعة ١٠٠ مدفع. كتب على كل مدفع منها (جنكيز محمود شاه)(٢). فهذا القائد نعده من خريجي مدرسة القائد العثماني (سلمان ريس) سابق الذكر والذي قيل في وصفه: ((فاتكاً شجاعاً ذا معرفة بالحروب. خصوصاً بالمدافع والبنادق))(٣) ويقصد بها على مانظن صناعتها وليس التصويب بها فقط. فوجود ذلك القائد ضمن قوة مصطفى بيرم ابن اخت (سلمان ريس) يعطينا مؤشرا عن دوره واهميته.

وهذا يدفعنا للتساؤل ان كان السلطان بدر استفاد من مهارة هذا الرجل كـ(مهندس حربي) وخبرته في صنع المدافع أو السفن أثناء مكوثه في حضرموت؟. ام ان امكانيات الارض الكثيرية لا تعطي؟ نقول ذلك لما عهدناه عن هذا السلطان الطموح من عدم تفويت اية فرصة تتاح له يمكن ان تعزز من قوته وقدراته الحربية.

---

١ - انظر خبرهما على سبيل المثال باسنجلة تاريخ الشحر ص٩٣.

٢ - انظر ترجمة قرا حسن الرومي، الحسني، عبد الحي، الاعلام بمن في تاريخ الهند من الاعلام، مرجع سابق (٤/ ٣٩٧).

٣ - النهروالي، البرق اليماني في الفتح العثماني ص٢٠.

أول تصادم بين العثمانيين والبرتغاليين أمام سواحل حضرموت

وما ان انقضى الموسم حتى ارتحل (مصطفى بيرم) من الشحر قاصداً الهند ليلة الاحد ١٣ ربيع الثاني سنة ٩٣٧هـ/ ديسمبر١٥٣٠هـ تاركاً قوة من الاتراك بقيادة (الخواجا صفر) على أن يتبعه هذا لاحقاً. وقد لعب الاثنان (مصطفى بيرم، الخواجا صفر) ومعهم القائد سابق الذكر (قرا حسن) أدوارا كبيرة في الهند لسنا في مجالها هنا(١).

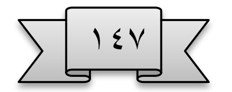
اما في مدينة الشحر فقد تم تعزيز الميناء بهذه القوة واوكل لها أمر حماية المدينة. وبالفعل ففي يوم الخميس ١٥ جماد الاولى من سنة ٩٣٧هـ /٣ يناير ١٥٣١م وصلت لميناء الشحر قادمة من الهند عدد من المراكب التجارية وصادف في هذه الفترة ان دخلت الميناء احدى السفن البرتغالية من نوع (الغراب)(٢) دون أن تعلم بما ينتظرها من مفاجأة. فما ان رأى هذا الغراب البرتغالي السفن الهندية راسية قبالة الساحل، حتى أراد سلب ما فيها. فهاجمته بصورة مباغتة الحامية التركية بقيادة (الخواجا صفر) مما اضطره للهروب باتجاه الشرق.

وأثناء فراره ووصوله لمدينة (الحامي) صادف مركب هندي آخر فأستولى عليه بحمولته. وحينما بلغ السلطان (بدر أبي طويرق) هذا الخبر. أمر بتحريك

---

١ - انظر على سبيل المثال بافقيه، تاريخ الشحر ص١٩٩.

٢ - الغربان: او الاغربة، جمع غراب، سفينة حربية، وقد سبق وعرفنا هذا النوع من السفن.



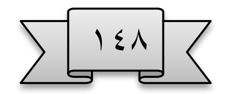
سفينة من نوع الغراب وأولى قيادتها (الخواجا صفر) وبرفقته (طراد)(١) فيه مقاتلون من المهرة. وطلب منهم مطاردة السفينتين (البرتغالية والهندية). وبالفعل تمت المطاردة وتمكنت هذه القوة في النهاية من بلوغ السفينتين في عرض البحر.

وحينما ادرك الغراب البرتغالي أن هذه القوة بالغته لامحالة. ترك المركب الهندي بما فيه مكتفياً بأخذ ناخوذة المركب والمعلم وولى هارباً. لتعود هذه القوة بالغراب الهندي المسروق إلى مدينة الشحر(٢).

---

١ - الطراد: سفن سريعة خاصة لحمل الخيول والفرسان تستخدم غالباً في اعمال المطاردات البحرية. كما يقال له طريدة، ويجمع على طرائد، انظر المصطلح بمعجم الالفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص١٠٧.

٢ - بافقيه، تاريخ الشحر، ص١٩٧.



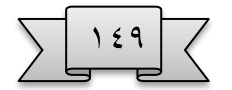
فدائيون من المهرة

لقد اثبتت هذه الأحداث ان رجال المهرة بحق هم رجال حرب ورجال بحر، ليس في ارضهم فحسب او في حضرموت وانما على طول امتدادات سواحل المحيط الهندي. فهم يشكلون قوة في جيش السلطان (مظفر شاه الكجراتي). كما اصبحوا قوة أيضاً في جيش ابنه (بهادر شاه) ومن جاء بعده. كما استعان بهم (الطاهريون) في عدن في حربهم ضد الزيود وضد العثمانيين اكثر من مرة. واخر من استعان بهم من الطاهريين الامير عامر بن داؤد عبر وساطة الشيخ (عبد الله بن شيخ العيدروس)(١). كما استعان بهم الأمير (سلمان ريس) للقضاء على بعض التمردات في اليمن. بل حتى السلطان بدر أبي طويرق نفسه وعلى الرغم من عدائه الشديد للمهرة وخاصة (بيت زياد) إلا أن جزءاً من جيشه كان من قبائل المهرة نفسها وتحديدا من (بيت محمد). أما أخوه السلطان (محمد) فغالبية جيشه من المهرة (بيت زياد). فضلا عن تشكيلاتهم العسكرية في جيش آل ابي دجانة حاكم الشحر وشرقها (المشقاص). فضلا عن تواجد المهرة الكبير بممالك وبلدان شرق افريقيا واشتراكهم في تكوين جيوش تلك المناطق. اما سقطرى فتكاد تسمى جزيرة مهرية لارتباطها الشديد بهم. كما انهم ربابنة ونواخيذ السفن والمراكب التي تمخر عباب المحيط الهندي والخليج العربي والبحر الاحمر.

ان الغراب البرتغالي سابق الذكر الذي اختطف سفينة هندية راسية في ميناء الشحر وتم مطاردته. عاد لاحقاً لممارسة قرصنته مكتفياً هذه المرة بمناطق المشقاص (الاجزاء الشرقية من حضرموت والمهرة) واستمر في قرصنته هذه إلى ان ضاق بالمشقاصيين درعاً. فعزم عدد من فدائيي المهرة من منطقة (حصوين) بقشن. على التخلص من هذا الغراب وبأية وسيلة كانت.

---

١ - تفاصيلها عند بافقيه، تاريخ الشحر ص٢٣٠- ٢٣١.



ففي ستار احدى الليالي انسل عدد منهم وركبوا في سنابيق صغيرة متجهين لذلك الغراب البرتغالي. وتمكنوا من الصعود إلى سطحه دون أن يشعر بهم احد واستطاعوا ذبح كل البرتغاليين الموجودين في ذلك الغراب والعودة سالمين(١). وهي مغامرة جريئة جداً.

ومن المغامرات الاخرى للمهرة على سبيل المثال انه في سنة ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م تعرضت سفينة مهرية للنهب والسلب من قبل سفينة برتغالية في منطقة احور بأبين (قريبا من عدن). وانه اثناء عودة اولئك المهريين إلى بلادهم. رأوا افرادا من تلك السفينة البرتغالية وهم عازمون السفر في سفينة اخرى تابعة لتجار هنود (بانيان) بعد ان ابتاعوا منهوباتهم في حيريج. فما كان من هؤلاء المهريين الا ان اقتحموا سفينة البانيان واشتبكوا مع البرتغاليين وقتلوا منهم ثلاثة واستولوا على كل ما في المركب وعادوا به إلى حيريج(٢).

وكانت المهرة كما أشرت من أكثر الملبين لنداء الجهاد في سبيل الله ومناصرة المسلمين ففي سنة ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م احتشدوا في عدة مراكب بناءً على دعوة الشيخ (عبد الله بن شيخ العيدروس) دعاهم فيها للجهاد ومناصرة الأمير الطاهري عامر بن داؤد. وما ان اتموا استعداداتهم وتأهبهم للرحيل فإذا بسفينة حربية برتغالية تظهر امامهم ليتبادل الطرفان اطلاق المدافع والبنادق. وتم فيها رمي برم باروت (لعلها قنابل او براميل متفجرة) وهذا يشير إلى التحام المركبين او قربهم من بعض. فاحترق بعضهم وغرق منهم كثير نحو الخمسين، وغالبهم بدو ومهرة(٣).

١ - بافقيه، تاريخ الشحر، ص٢٠٠.
٢ - المرجع السابق ص٢٣٠. وللمزيد انظر الجدحي، سعد، تاريخ المهرة المسمى التطواف ص٢٢٠-٢٢٤.
٣ - بافقيه، تاريخ الشحر ص٢٣١.

مراوغة السلطان بدر

أما ما يتعلق بـ(الخواجا صفر) فلحق بعدها بصاحبه الامير (مصطفى بيرم) تاركاً لأبي طويرق قوة صغيرة من الجنود الأقوياء. لا نعلم من كان قائد هذه القوة، إلا انه في فترات لاحقة اصبحت هذه القوة التركية بقيادة (يوسف التركي) والذي اصبح له كما اشرت شأن كبير لاحقاً. وسنتناول شخصيته وسنتناول طرفاً من اخباره لاحقاً. اما البرتغاليون فكانوا بعد هذه الفترة يدخلون المدينة بصفة تجار بعد ان يطلبوا الامان لأنفسهم. في حين استمرت مراكبهم في تقطعها امام السواحل الحضرمية.

ان كل تلك الأحداث الاخيرة اظهرت بلا شك مدى براعة أبي طويرق في إدارة ذلك الصراع (العثماني/ البرتغالي) فهو من جهة يعلم ان هذه القوة العثمانية على قلتها لن تقيم عنده على الدوام. وانها لامحالة ستغادره ليواجه ولوحده مصيره المحتوم. وهم أي (العثمانيين) وان تركوا له قوة صغيرة. فهي غير كافية لمواجهة تلك الاساطيل البرتغالية الضخمة. وبالتالي فإن التعويل على هذه القوة وحدها ومعاداة البرتغاليين لأجلها، لن يفيده في شيء.

وفي الوقت نفسه وحتى يهدئ من غليان الشعب ونقمتهم عليه ولكي يظهر لهم بمظهر المقاوم وانه إلى جانب المسلمين وفي الوقت نفسه يخلي مسؤوليته امام قائد البرتغاليين، أوكل أبو طويرق لتلك القوة العثمانية الصغيرة القيام لوحدها بحماية المدينة والتصدي للبرتغاليين. ليتنصل من فعلها لاحقاً متى ما قدم الاسطول البرتغالي ومساءلته في هذه الامور. وطبعاً عذره سيكون انه واقع تحت وطأة الضغط الشعبي وان هذه القوة (العثمانية) التي تحرس مياهه الاقليمية غير خاضعة له.

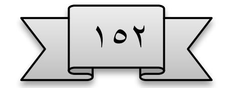
وبالفعل وكما دلت عليه الأحداث اللاحقة استطاع أبو طويرق اخلاء مسؤوليته عن تلك التصرفات التي قام بها الجنود العثمانيين وسنأتي لها. وعلى ما يبدو ان البرتغاليين وعن مضض تقبلوا اعذاره هذه. ربما لأنهم لازالوا بحاجة له ولأسواقه. وعدم رغبتهم في كسب عدو آخر يمكن ان ينضم لمعسكر اعدائهم اللدودين (العثمانيين). أو ربما وهو المرجح أنهم بيتوا النية للانتقام منه والغدر به. تماماً مثلما فعلوه لاحقاً مع السلطان بهادر شاه الكجراتي. وهذا مابيته لهم أيضاً أبو طويرق.

وبالنسبة للوضع في الداخل الحضرمي، فعاد لفوضته واضطراباته، كما تجرأت بعض القبائل للقيام بهجمات على القرى القريبة من مدينة الشحر ونهبها. بل ومحاصرة المدينة نفسها أكثر من مرة بغية السيطرة عليها. كما ساءت علاقته بأخيه السلطان محمد(١).

وهكذا اصبح حال البلاد كما اوجزه المؤرخ بافقيه في كتابه (تاريخ الشحر واخبار القرن العاشر) بالقول: ((وبقي اهل الشحر في هذه المدة في غاية ما يكون من القلق والخوف، بين فرنجي ومهري وبدوي. لأنه شاع في هذه الأيام أن جماعة من آل عبدالعزيز نحو المائتين ساروا من السور وما عرف إلى اين توجهوا وفزع اهل الشحر على تبالة والغيل لان التجار وسواهم قد نقلوا غالب اثقالهم إليها))(٢).

ان مثل هذه الاوضاع تطلبت من (أبي طويرق) مجابهتها بحزم وشدة وعدم الاكتفاء فقط بالقوة التركية المتواجدة معه والتي هلك معظمها في حروبه السابقة. كما ان ما كان يميز هذه القوة ويجعل منها قوة متفوقة سابقاً، هو

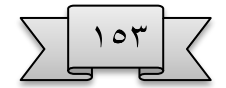
١ - لتفصيل ذلك انظر كتابنا المختصر في تاريخ مدينة الشحر العام ص٢٧٢.
٢ - بافقيه، تاريخ الشحر، بتصرف قليل، ص٢٠٣.



امتلاكها لسلاح البندقية. اما الان فقد اصبحت معظم القبائل تمتلك هذه الاسلحة. وهذا يعني مزيداً من تعقيدات الموقف. وان كانت القوة والغلبة لاتزال في يده خاصة وانه لازال يمتلك سلاح المدفعية دون سواه من المنافسين. إلا أن ما ينقصه كان المقاتلون. فما كان منه إلا التواصل والبحث عن حلفاء جدد اخرين. فكان تواصله مع اشراف الجوف في اليمن. وبالفعل وصلت طلائعهم الاولى لاحقاً سنة ٩٤١هـ/١٥٣٤م بقيادة المقدم (ناصر بن أحمد بن محمد بن الحسين) ومعه أربعون مقاتلاً من اتباعه(١). واتفق أبو طويرق معهم على الإتيان بقوة عسكرية ضخمة. وبالفعل في سنة ٩٤٢هـ/١٥٣٥م قدمت هذه القوة بعدد يزيد عن (٢,٠٠٠) مقاتل(٢).

ولم يضيع بدر بو طويرق الفرصة، بل ارسلهم مباشرة إلى حيريج واضاف معهم قوة من حلفائه المهرة (بيت محمد) بقيادة (سعيد بن أحمد المحمدي) وكان هدف الحملة السيطرة على حيريج وطرد حاكمها المتمرد (أحمد بن سعد بادجانة) ومن معه من (بيت زياد) حلفاء أخيه (السلطان محمد).

١ - بافقيه، تاريخ الشحر، ص٢٢٦. العقد الثمين، ص٥١. تاريخ الدولة الكثيرية(٤٠/١).
٢ - العقد الثمين، ص٥٣.



عودة إلى الوجود العثماني في الشحر

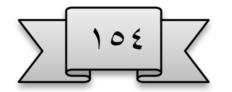
وكما اشرت مسبقاً، فبعد مغادرة (الخواجا صفر) ميناء الشحر للحاق بالأمير (مصطفى بيرم) ابقى في المدينة قوة صغيرة من العثمانيين تحت تصرف السلطان أبو طويرق وكان قائدها كما نعتقد هو القائد (يوسف التركي) والذي ما لبث أن اصبح لاحقاً اميراً في سلطنة أبي طويرق ومساهمته في اخماد الكثير من التمردات. فضلاً عن قيامه ببعض المهام الدبلوماسية والحربية خارج الاقليم منها مطاردة البرتغاليين ومحاربتهم في السواحل الهندية.

الأمير يوسف التركي:

قد لا نعلم الكثير عن هذا الامير الذي تولى قيادة بعض الفرق الحربية للسلطان بدر أبي طويرق بسبب شحة المعلومات التي اشارت لهذه الشخصية وقصورها. ولكن ومن خلال تتبع مسارات بعض الأحداث، استطعنا التعرف على بعض جوانبها.

ان اول ذكر لهذه الشخصية في مصادرنا المحلية خاصة كان ضمن احداث سنة ٩٣٨هـ/١٥٣١م. وقد وصفه المؤرخ (محمد بامطرف) بأنه أحد اهالي الشحر وكان تاجراً(١). وحقيقة لا يوجد أي دليل يثبت اولاً شحريته. فالصفة المقرونة باسمه تقول انه تركي. بل ونجد ان المؤرخ بامطرف نفسه حينما اشار لمقاومة هذا الرجل (يوسف التركي) في احدى المعارك، غاب عنه ان في المصادر

١ - بامطرف، محمد عبد القادر، الشهداء السبعة، ص٨٦ .



التي اعتمدها في معلومته تلك، وصفت هذا المقاوم في تلك المعركة باسم (الناخوذة الرومي)(١).

وعلى اية حال فإن أقدم إشارة لهذا الاسم (وفقاً ولما لدي من مراجع) تلك التي تعود إلى سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م. ضمن محتوى رسالة ارسلها القبودان (سلمان ريس) للسلطان سليم الاول(٢). عندما كان الأول في جدة بصحبة حسين الكردي. وما يهمنا هنا من رسالته تلك اشارته إلى دخول عدد (٣٢) سفينة (لم يحدد هويتها) ولكن اشار بالقول: (يستطلعون الاخبار) ثم اشار بعدها ((وقبل هذا وصلت سفن أسطول الشخص المسمى (تركي يوسف) والمكون من خمس وعشرين قطعة ..))(٣) وعلى جانب الوثيقة سطور مكتوب عليها بعض تفاصيل حملة برتغالية على جدة والارجح انها حملة البرتغالي (لوبو سواريز) والتي تحدثنا عنها سابقا. وكتب فيها: ((لقد كتبنا هذا الخطاب عندما أتى الكفرة هذا اليوم وغدا بتاريخ السادس والعشرين من ربيع الاول وقد جاؤا بثلاثين سفينة ورست في ميناء جدة. وأحرقت في اليوم الذي جاءت فيه أربع سفن والقطع الأخرى المتخلفة وقواربهما وسفنهم الحربية الستة. وأحدهما كان لشاهي وأحدهما كان ليوسف التركي والأخرى لحسين بك. وظلوا في عدن أربعة أيام. كما أخذت خمسون سفينة اخرى من أمام ميناء عدن..))(٤) ثم اشار فيها إلى تعاون الأمير (مرجان الظافري) مع البرتغاليين وانه زودهم بأربعة مرشدين ليدلوهم طريق جدة.

١ - انظر الحادثة في الشهداء السبعة، ص٨٦. وتاريخ الشحر ص٢٠٥.

٢ - انظر تفاصيل الوثيقة خليل، محمد محمود، وثائق بحرية عن قبودان السويس والدور العثماني في مواجهة البرتغاليين. تحمل الوثيقة رقم (٧٣). تفاصيلها دفتر المهمة: الديوان الهمايوني، حكم رقم ٨٣٣٧، التاريخ ٢٥ ربيع الأول سنة ٩٢٣هـ . الراسل سلمان باشا ريس. المرسل اليه السلطان العثماني. ج١ ص٢٣٢.

٣ - المرجع السابق ص٢٣٣.

٤ - المرجع السابق ص٢٣٤. ونلاحظ في هذه الرسالة نوع من المبالغة وتبرير عدم اداؤه للمهمة التي كلف بها.

ان تلك الاشارات السابقة لم تبين لنا حقيقة (يوسف التركي) هذا الذي وصل إلى جده بأسطول مكون من (٢٥) قطعة. ان كان عثمانياً؟ او جركسياً من (المماليك)؟. ان كان تاجراً؟ أو محارباً؟. ان كان مجيئه لتعزيز القوة المشتركة في جدة؟ ام ان مروره لأغراض أخرى؟ وكل هذه تساؤلات لم اجد عنها اجابة محددة. خاصة وان ذكره بعد هذا الحادث غاب عنا (وفقا وللمصادر بحوزتي). ولم يظهر مرة أخرى الا بعد مرور قرابة (١٥) سنة من تلك الإشارة! وفي المصادر الحضرمية التي أشرنا اليها. ومما يعقد المشهد ويزيد من ضبابيته ان بعض المصادر الحضرمية تذكره تارة باسمه (يوسف التركي) وتارة تذكره بأسم (يوسف الصغير) وتارة أخرى باسم (يوسف الكبير)[1]! بل ووصفه المؤرخ ابن فهد بـ: الناخوذة الزنجي ومرَّات بالتركي[2].

ونحن نرى ان هذه الشخصية في بداية ظهورها الأول في حضرموت سنة ٩٣٨هـ/١٥٣١م. كان (ناخوذة) مسؤولاً عن نقل المؤن والمعدات الحربية العثمانية لبعض الجبهات. فحمول مركبه الراسي بالميناء حال وصوله مدينة الشحر اول مرة يحتوي على (رصاص، مرجان، زئبق، جوخ، فوة..الخ)[3] وكان يريد بها الهند. وهي الفترة التي عاد فيها من الهند مركب (الخواجا صفر) سابق الذكر (من دونه) وكان هذا المركب محملاً بالذخائر والمدافع. ليمكث المركبان (مركب صفر ويوسف) قبالة ميناء مدينة الشحر.

---

١ - انظر باسنجلة، تاريخ الشحر ص٩٨.

٢ - اشار المؤرخ جار الله بن فهد انه في سنة ٩٢٤هـ ..((دخلت الى جدة طليعة الناخوذة يوسف الزنجي من بندر الديو وفيها قماش وارز وبهار. واخبر الركبة الذين فيها الواصل معهم من مركب من الديو للخواجا ابن مالك ومركب من كنبايا يعرف بالشاهي وهما قريب من جدة وان السلطان مظفر شاه امر بصدقة اللاك إلى اهل الحرمين..)) ابن فهد المكي، جار الله بن العز بن نجم، نيل المنى بذيل بلوغ القرى لتكملة اتحاف الورى، تحقيق محمد حبيب الهيلة، مؤسسة الفرقان للتراث الاسلامي، فرع موسوعة مكة المكرمة والمدينة المنورة، ط١، ٢٠٠٠م. (١/ ٧٢).

٣ - بافقيه، تاريخ الشحر، ص٢٠٥.

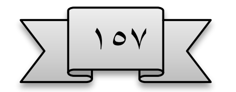
معركة بحرية أمام سواحل مدينة الشحر

ومن الواضح هنا ان تلك التحركات العثمانية وتعامل السلطان بدر الايجابي معها ، لم تعد خافية على البرتغاليين الذين ارتبطوا معه بعلاقات اتاحت لجواسيسهم ومخبريهم التوغل داخل المدينة. ففي يوم الخميس ٢١ شعبان ٩٣٨هـ/ ٢٨ مارس ١٥٣٢م وصلت ميناء الشحر سبع سفن برتغالية (خشب)(١) وما ان رأت الأعلام التركية تلوح على بعض السفن الراسية. حتى بادرت من دون أية مقدمات بإطلاق نيران مدافعها وفي نيتها تدمير كل السفن الموجودة بالميناء وخاصة التركية منها.

لتدور قبالة سواحل المدينة معركة بحرية بين تلك السفن التي تعتمد على قدرة كل منهما على المناورة والتصويب بالمدافع. ويبدو ان اهم هدفين للسفن البرتغالية هو الاستيلاء على مركب (الخواجا صفر) المحمل بالأسلحة والمدافع وكذلك على مركب (يوسف التركي) وليس إغراقهن! نظراً لرغبتهم في الحصول على ما فيهن من معدات وذخائر حربية وربما اموالا أيضاً.

وقد استطاع الناخوذة الموجود في مركب (الخواجا صفر) من أعطابه بإغراق اجزاء منه في الماء. وهذا تصرف ذكي منه يمنع البرتغاليين من الاستيلاء عليه وسحبه بمحتوياته. وفي الوقت نفسه في حالة الاستيلاء عليه فإن عملية نقل محتوياته قد يتطلب من البرتغاليين العمل اياماً وربما اسابيع لنقلها. وطبعاً مدافع الحامية ستحول دون اقترابهم منها طوال تلك الفترة.

١ ـ انظر تفاصيل المعركة عند بافقيه، تاريخ الشحر، ص٢٠٥-٢٠٦. الشهداء السبعة ص٨٦.



اما (يوسف التركي) ومعه عدد من نواخيذ المراكب الاخرى، فاستمروا يقاومون البرتغاليين ويناورونهم، إلى أن حل الظلام. ونحن من خلال تحليلنا لنصوص المصادر (المعتمدة) تكونت لدينا رؤية عن المشهد نوجزها في الآتي:

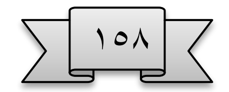
في المساء من ذلك الهجوم التقى (يوسف التركي) بعدد من الجنود الاتراك ومعهم اهالي المدينة من مشايخ واعيان وملاحين وصيادين وغيرهم لتدارس الامر. وقد تأكد للجميع ان نية البرتغاليين وهدفهم من هذا الهجوم المباغث على الميناء هو:

الهدف الأول: الاستيلاء على مركبي الخواجا صفر ويوسف التركي نظراً أولاً لمحتوياتهما الحربية وثانياً هويتهما (العثمانية). وانه وبعد ان تعذر على البرتغاليين الاستيلاء على مركب (الخواجا صفر) للعطب الذي فيه. فإن الهدف التالي سيكون مركب (يوسف التركي).

الهدف الثاني: الاستيلاء على محتويات مركب (الخواجا صفر). وهذا الهدف صعب بالنسبة للبرتغاليين، لان هذه العملية كما اشرت، قد تتطلب من البرتغاليين اياماً وربما اسابيع لنقل محتوياتها. إذاً فليس لهم لتحقيقه إلا جزء من الهدف الأول أو الهدف الثالث وهو:

الهدف الثالث: تفجير مركب الخواجا صفر، وبالتالي تفويت الفرصة على الاهالي الحصول على محتوياته الحربية للاستفادة منها.

وهنا اشار عليهم (يوسف التركي) بالإسراع في نقل معظم ذخائر مركبه إلى الشاطئ وخاصة المدافع الصغيرة وما خف حمله من معدات. والابقاء فقط على بعض المدافع والذخائر بسفينته ليواصل بها مع ثلة من اصحابه القتال والمناورة



ضد السفن البرتغالية داخل البحر. وهذا إجراء وقائي تحسباً لوقوع مركبه لقمة سائغة في ايدي البرتغاليين. مع تحصين المواقع المختلفة بالميناء.

كما اشار بنيته جعل مركبه هذا ، هدفاً للبرتغاليين كي يصرف انظارهم عن مركب الخواجا صفر. ونبه بضرورة اعاقة وصول البرتغاليين ومنع اقترابهم من مركب الخواجا صفر بأي طريقة كانت.

وواضح ان هذا أيضاً ما كان يفكر فيه ويخطط له البرتغاليون. وهو تفجير مركب (الخواجا صفر) بعد ان عاينوا تعذر نقل محتوياته.

فما ان بزغت شمس اليوم التالي، حتى بادرت السفن البرتغالية بإطلاق نيران مدافعها صوب المدينة والسفن الراسية قبالتها. بهدف إثارة الهلع والخوف في نفوس الاهالي، وفي الوقت نفسه امرت بعض القوارب الحربية بالتسلل إلى مركب (الخواجا صفر) وتفجيره بالبارود. وقد تصدت الحامية لمدافع السفن البرتغالية وردت بقوة على مصدر النيران. كما قام (يوسف التركي) ومعه بحارته، بمناورة حربية بمركبه، إلى ان انتهت ذخيرتهم. فغادروا المركب بالنزول على قارب والتجديف به إلى الشاطئ. تاركينه لقمة سائغة في ايدي البرتغاليين. ولا ندري هنا لماذا لم يفجروا المركب عند مغادرتهم؟

أما قوارب البرتغاليين فما ان اقتربت من مركب (الخواجا صفر) إلا وباغتهم عدد من الجنود المختبئين داخله وباشروهم بإطلاق النار. فتقافز الجنود من على قواربهم إلى الماء وعادوا سباحة إلى مراكبهم.

وفي هذه المعركة التي استمرت يومين متتاليين، اضطر بعض نواخذة السفن الفرار بمراكبهم بعيداً ، وخاصة تلك التي نجت من مدافع السفن

البرتغالية. اما بعضهم الآخر ففضل نواخذتها إغراقها كي لا تقع في قبضة البرتغاليين.

وواضح ان هذه المعركة كسبها البرتغاليون. حيث غادروا بعدها إلى ميناء حيريج، حاملين معهم غنائمهم وعدد من السفن التجارية ومركب (يوسف التركي). وفي حيريج تم التفاوض مع ملاك بعض تلك السفن التجارية لفك سراحها مقابل مبالغ مالية. وعلى ضوئها اعاد البرتغاليون تلك السفن التجارية لملاكها. اما مركب (يوسف التركي) فأصر البرتغاليون على اخذه معهم بالرغم مما قدم لهم من عروض مادية كمقابل لتحريره(١).

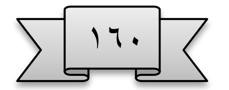
وهذه المعركة حدثت في غياب السلطان بدر والذي لم يكن موافقاً عليها. بل ويبدو لنا من خلال النصوص التي روت هذه الحادثة وكأن هناك اوامر منه لجنوده وحاميته (الحضرمية) بعدم التصادم مع البرتغاليين. فهذا الاشتباك الذي وقع كان اساساً بين الاتراك التابعين للخواجا صفر وبجانبهم بعض نواخيذ وملاحي السفن العربية الراسية والاهالي المتحمسين والمناصرين لهم. هذا من جهة. ومن جهة أخرى بين البرتغاليين.

ومما يؤكد ما ذهبنا إليه انه وبعد هذه الحادثة بأقل من شهر وتحديداً في يوم الخميس ١٢ رمضان ٩٣٨هـ/ ١٨ ابريل ١٥٣٢م عادت مجدداً تلك الاساطيل البرتغالية وحاولت السيطرة على عدد من السفن والمراكب في الميناء، إلا ان (يوسف التركي) ومن معه من اهالي البلاد، لم ينتظروا الاوامر للدفاع، وانما تصدوا لهذه السفن بمدافعهم فور وصولها(٢). وقد صادف هذا الهجوم وجود عدد من رجال الدولة في المدينة، وهؤلاء تسارعوا إلى الشاطئ محاولين ثني (يوسف

---

١ - بافقيه، تاريخ الشحر ص٢٠٦.

٢ - بافقيه، المرجع السابق ص٢٠٧؛ بامطرف، الشهداء السبعة ص٨٦. وعنده بقيادة الضابط البرتغالي (انطونيو دي سلدانا).



التركي) ومن معه من المقاومين عن التصدي للسفن البرتغالية. إلا ان هؤلاء استمروا في المقاومة والضرب بالمدافع. مما اعاق تقدم السفن البرتغالية.

وكان من نتائج هذا الاشتباك أن حبست الدولة اعداداً من اولئك المقاومين وضرب آخرين منهم تحت مبرر عدم انصياعهم لأوامر وتوجيهات الدولة. وهو نفس ما فعل لاحقاً بالشيخ (أحمد سعيد باغريب) المنسوب له مسجد باغريب العامر لليوم بالمدينة فعندما انتقد السلطان بدر على افعاله حبس وجلد في الساحة العامة(١).

ان تلك الافعال الصادرة عن السلطان بدر ورجاله لاقت عند العامة الكثير من الاستهجان والاستنكار(٢). وعن هذا الغضب الشعبي وحالة الهيجان في الشارع، عبر عنه المؤرخ الطيب محمد بن عمر بافقيه بالقول:((وارتجت البلاد ارتجاجاً عظيماً من فعلهم (يقصد جنود السلطان) وحزن المسلمون لذلك وحصلت شناعة عظيمة وذلك كله ظناً منهم أن ذلك مما يرضي الإفرنج ومما يتقربون به إليهم. وهيهات لا الإفرنج راضون عنهم ولا الرومي ولا المسلمون))(٣).

ولعل في هذا ما قد يفسر لنا من قيام السلطان بدر في تلك السنة بعزل الامير (عطيف) عن إمارة الشحر وتعيين بدلاً عنه (أحمد بن ماقوس). بينما جعل الحل والعقد بيد الفقيه (سعيد الرنكي)(٤) السابقي الذكر، في محاولة منه

١ - انظر ترجمة الشيخ باغريب، حداد، عبدالله، معجم شعراء العامية الحضارمة ص٣٢.

٢ - بافقيه، تاريخ الشحر، ص٢٠٦-٢٠٧. بامطرف، الشهداء السبعة، وعنده بتاريخ ١٥ رمضان. ص٨٦.

٣ - بافقيه، تاريخ الشحر، ص٢٠٧. وانظر أيضاً بامطرف، الشهداء السبعة، وفيها اورد تعليق للمؤرخ باسنجلة عن هذه الحادثة وموقف الناس منها، وهي غير موجودة في كتاب باسنجلة المحقق (العقد الثمين الفاخر)، ولعلها من اقوال الربان باسباع ألتبس الاسم على المؤرخ بامطرف. انظر الشهداء السبعة ص٨٦.

٤ - باسنجلة، العقد الثمين الفاخر، ص٤٦. وانظر بامطرف، الشهداء السبعة ص٨٦. وقد نسب بامطرف التعليق لباسنجلة (باسخلة) وهذا وهم منه ولعله من كلام الربان باسباع.

امتصاص الغضب الشعبي واستنكاراً لما قام به رجال دولته. وقد تكون لتعديلاته الادارية هذه اسباب أخرى.

وبعد هذه الحادثة غاب عنا خبر (يوسف التركي) دون ان يعلم عن امره شيئاً إلى سنة ٩٥١هـ/١٥٤٤م. أي بعد اعلان أبي طويرق الولاء للعثمانيين بسبع سنوات تقريباً ، حينما ظهر خبره كقائد كبير من قادة أبي طويرق وقد كلفه بالذهاب إلى حيريج لحل بعض الإشكاليات هناك ومنها ما حدث من نزاع بين حاميتها وقوة تركية دخلت الميناء(١).

لتتوإلى بعد ذلك اخباره منها عندما ارسله السلطان بدر سنة٩٥٤هـ/١٥٤٧م مع قوة لمقاتلة حاكم احور وفي هذه الحملة وصف يوسف التركي بـ(الأمير). كما ارسله لاحقاً لمحاربة العمودي بصحبة الأمير (علي بن عمر الكثيري) والفقيه الأمير (محمد عبدالله بحرق)(٢)، والتي انتهت بهزيمة قوات السلطان بدر. كما أُرسل كذلك إلى الهند لمساعدة القوات العثمانية هناك سنة ٩٦٠هـ/حوالي ١٥٥٣م(٣). وأرسل أيضاً في مفاوضات مع باشا اليمن سنة ٩٧١هـ/ ١٥٦٣م(٤). كما نجده حاضراً في الانقلاب الناجح الذي قام به الأمير عبد الله بن بدر ضد والده السلطان (بدر أبي طويرق) سنة ٩٧٦هـ/١٥٦٨م وكان

---

١ - بافقيه، تاريخ الشحر، ص٣٠٥-٣٠٦. باسنجلة، العقد الثمين، ص٨٧.

٢ - كثير من المؤرخين ألتبس عليهم اسم هذا الفقيه (محمد بحرق) المتوفي بهينن سنة ٩٥٦هـ، مع الفقيه والاديب (محمد بن عمر بحرق) صاحب المصنفات المتوفي بالهند سنة ٩٣٠هـ، حيث تم الخلط بين الشخصيتين. انظر ترجمة الفقيه والاديب (محمد بن عمر بحرق)، عند باوزير، سعيد، صفحات من التاريخ الحضرمي، ص٣٣٥. وكتابه الآخر الفكر والثقافة ص١٤٥. بافقيه، تاريخ الشحر ص١٦٤.

٣ - ذكر المؤرخ المعبري، زين الدين بن عبدالعزيز، في كتابه (تحفة المجاهدين في بعض أخبار البرتكاليين) انه في رجب سنة ٩٦٠هـ: ((وصل يوسف التركي من ديو محل إلى فنان في غير الموسم بالمدافع الكبيرة واخذها من الافرنج ساكنين فيها)). طبع الكتاب باعتناء السيد شمس الله القادري مدير مجلة التاريخ في مطبعة التاريخ ببلدة حيدر اباد دكن ص٤١.

٤ - باسنجلة، العقد الثمين، ص١١٥، ص١١٧.

(يوسف التركي) إلى جانب أبو طويرق وقد اصيب بحجر كبير وقع عليه في ذلك الحادث(١). ولا ندري بعدها عن مصيره. وقد ذكر المؤرخ باسنجلة انه في سنة ٩٧٧هـ/١٥٦٩م خرجت قوة بقيادة السلطان (عبدالله بن بدر بن عبدالله الكثيري) لمحاربة اخيه (جعفر بن بدر) ومعه قبائل من المهرة. الا ان هؤلاء كمنوا لهم في بعض المواقع وتمكنوا من ابادة معظم جيشه(٢) وكان من جملة القتلى ((... ولد معبد وصويلح ولد الأمير يوسف التركي))(٣). بل

ونلاحظ في بعض المصادر كما اشرت سابقاً ذكرها ليوسف الكبير ويوسف الصغير(٤). مما يوحي أن هناك شخصيتين تتجاذبان نفس الاسم وربما الادوار أيضاً. كما ذكرت بعض المصادر ان الأمير يوسف الصغير قتل سنة ٩٥٩هـ/١٥٤٩م(٥). وهذا الأمر يحتاج للبحث والتدقيق أكثر خاصة وان النصوص التي بحوزتنا لا تقدِّم الكثير.

وحقيقة الأمر فإن قدوم تلك القوة العثمانية والمقاومة التي قادها (يوسف التركي) ومعه الاهالي سنة ٩٣٨هـ/١٥٣١م وبالرغم من عدم رضاء الدولة لها ، إلا انها عززت من شأن أبي طويرق وسلطته. خاصة وانه اضطر بعدها لتعزيز أمن المدينة وحاميتها. كما أعلت من شأنه عند البرتغاليين وخاصة بعد انقلابه عليهم لاحقاً سنة ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م إذ حاولوا بعدها تعزيز اتفاقيات الصلح معه. منها ذلك الوفد البرتغالي الذي وصل مدينة الشحر يوم الخميس ٧ رمضان ٩٣٩هـ/١٥٣٢م طالباً من السلطان بدر عقد اتفاقية صلح رسمية مع القيادة العليا البرتغالية المقيمة

---

١ - باسنجلة، العقد الثمين ص١٢٤.

٢ - باسنجلة، العقد الثمين، ص١٣٩؛ بن هاشم، تاريخ الدولة الكثيرية (٦٢/١).

٣ - باسنجلة، العقد الثمين ص١٣٩.

٤ - انظر العقد الثمين ص٩٨.

٥ - أشار المؤرخ عبدالله باسنجلة ان الأمير يوسف الصغير قتل سنة ٩٥٦هـ . انظر كتابه العقد الثمين ص١٠١.

في الهند(١). ويبدو انها لم تثمر. مما اعاد المفاوضات مجدداً كما نجدها في سنة ٩٤٢هـ/١٥٣٥م والتي تولاها كوسيط الخواجا (عبدالله ابن الزِّمن)(٢). ويبدو انها اثمرت مؤقتاً. وقد أرسل (أبو طويرق) مع الوسيط (ابن الزِّمن) رسالة خاصة إلى حاكم جوه في الهند(٣)، لا ندري عن محتواها وفقاً لما لدينا من مصادر ومراجع. ولكن وبعد سنتين نجد هذا الوسيط والذي وصف بـ(رسول السلطان) عاد حاملاً معه اتفاق جديد، من الواضح انه اثمر بين الطرفين(٤) وساهم في افتكاك الاسرى البرتغاليين المحتجزين لدى السلطان أبي طويرق. وسنأتي لبعض اتفاقيات الصلح بين البرتغاليين.

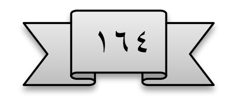
---

١ - بافقيه، تاريخ الشحر ص٢١٥.

٢ - لا نعلم الكثير عن هذا الخواجا وفقاً ولما لدي من مصادر ومراجع، وقد اشارت بعض المصادر الى انه في سنة ٨٨٣هـ احترق الحرم الشريف النبوي، فتولى الخواجا بن الزمن عمارته والتي وصفت بأنها عمارة جيدة وأصرف عليها مالاً جزيلاً. انظر بافقيه، تاريخ الشحر واخبار القرن العاشر ص١٦. وعند ابن هاشم اسم الوسيط (عبدالله بن أرقل). انظر تاريخ الدولة الكثيرية (٤٣/١).

٣ - بافقيه، تاريخ الشحر ص٢٣٠.

٤ - انظر بنود الاتفاق في المرجع السابق ص٢٤٨-٢٤٩.



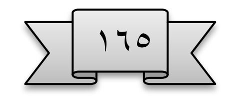
انتقام السلطان بدر من البرتغاليين وبدء تغير السياسة

سبق واشرنا إلى انه وخلال فترة ثلاثينات القرن العاشر الهجري، كان السلطان أبو طويرق يحاول قدر الإمكان مجاراة البرتغاليين ومهادنتهم والصبر على استفزازاتهم وانتهاكاتهم المستمرة، على امل قدوم تلك الحملة التركية ذائعة الصيت كمنقذ له ولدولته المهددة، إلا ان انتظاره هذا طال عليه الامد في ظل التطورات المتسارعة بالمنطقة. الامر الذي سبب لأبي طويرق حرج كبير وادخله في نزاعات واضطرابات حتى داخل مدينة الشحر نفسها كان هو في غنى عنها، منها تلك التي تطالبه برد الاعتبار للمقاومة وقطع علاقته نهائياً بالبرتغاليين.

ومع كل هذا فقد استمرت سياسة أبي طويرق بالمهادنة والمهادئة، مع الاهالي من جهة ومع البرتغاليين من جهة اخرى. وقد ترك لهؤلاء البرتغاليين حرية التنقل والحركة داخل المدينة دون أن يتجرأ احد على اعتراضهم، خاصة وان السلطان (بدر) اوكل لجنوده مهام توفير الحماية للبرتغاليين حيثما كانوا وحيثما ذهبوا. وعلى ما يبدو ان البرتغاليين اطمئنوا كثيراً من سياسة أبي طويرق التي تكاد تفقده ثقة شعبه به وتهيجهم ضده. خاصة وان في هذه الفترة نكّل السلطان بدر ببعض فقهاء المدينة المعترضين على سياسته هذه ومنهم الشيخ (أحمد بن سعيد باغريب)(١) صاحب المسجد المشهور الذي حمل اسمه بعد ان اتهمه بتحريض العامة.

وقد استغل البرتغاليون هذه المعاملة الجيدة فدخلوا في علاقات تجارية مع عدد من كبار تجار المدينة والتي تطورت مع الأيام لتتخذ شكل الصداقة والمنادمة. بل وتمادوا اكثر في تصرفاتهم وازدادت سلوكياتهم استفزازاً للناس

١ - انظر ترجمته حداد، عبدالله، معجم شعراء العامية الحضارمة ص٣٢.



بما فيها المجاهرة بشرب الخمر في نهار رمضان، فضلاً عن التسكع في الطرقات مع جواريهم السافرات. مستفيدين من اتفاق الصلح الاخير الذي ابرمه السلطان بدر مع نائب ملك البرتغال في جوه بوساطة ابن الزمن(١).

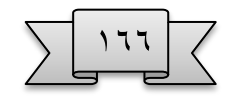
وكانت كل اخبارهم هذه وغيرها ، تورد فوراً للسلطان بدر والذي كان حينها متواجداً في المدينة ، إلى أن طفح به الكيل، خاصة وقد تأكد له أن القوة العثمانية (بقيادة سليمان باشا الخادم) انتهت من استكمال تجهيزاتها وقرب انطلاقتها من السويس. فأستغل السلطان بدر وجود القوة الموجودة لديه من (الحضارم، المهرة، اشراف الجوف، يافع وعبيده النوبيين واخيراً الاتراك) وقرر ضرب ضربته التي لطالما انتظرها ، عازماً فيها القضاء على كل البرتغاليين سواء كانوا أولئك الموجودين داخل المدينة. أو أولئك المقيمين على ظهور سفنهم قبالة الساحل، او حتى اولئك المتواجدين في أماكن أخرى من حدود مملكته كحيريج.

حيث اعطى اوامره بسرعة التحرك والانقضاض عليهم حيثما وجدوا (براً او بحراً) واسرهم او قتلهم. كما ارسل اوامره لعماله في حيريج(٢)، بإلقاء القبض على كل البرتغاليين المتواجدين فيها. وكان هذا يوم الاحد ٥ رمضان ٩٤٢هـ/٢٧ فبراير ١٥٣٦م. وهذا التاريخ بالميلادي يتوافق او يتقارب من تاريخ اول هجوم لهم على مدينة الشحر سنة ٩٢٩هـ/ ٢٧ فبراير ١٥٢٣م.

---

١ - تم هذا الصلح في سنة ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م انظر بافقيه تاريخ الشحر ص٢٣٠.

٢ - ذكرت بعض المصادر ان اوامر السلطان بدر وجهت لعماله في ظفار، ولا ندري ان كانت ظفار في تلك الفترة تابعة لسلطته، ام لسلطة اخيه السلطان (محمد)، والارجح انه اعطى الاوامر لعماله في حيريج لأنها تابعة لسلطانه في تلك الفترة، حيث استعادها وطرد آل ابي دجانة منها قبل ايام فقط من هذه الحملة. انظر الرواية عند بافقيه، تاريخ الشحر ص٢٣٣. ص٢٣٥. والدليل من ان أبو طويرق وجه الاوامر لعمالة في حيريج، ان اولئك الاسرى العشرة قد اسروا في حيريج، وقد ارسل السلطان بدر، خمسة منهم لأخيه السلطان (محمد) حاكم ظفار كهدية، واكتفى بالخمسة الآخرين.



وبالفعل قام جنوده داخل المدينة بتنفيذ اوامره. وكان لعامل الترصد والمتابعة فالمباغثة لصالحهم في الحسم. اذ استسلم على الفور عدد كبير من البرتغاليين وآخرين منهم أبوا إلا المقاومة والقتال. ليدور قتال شوارع داخل المدينة، بين حاراتها وازقتها وداخل البيوت والمحلات وفي الميناء. بل وعلى متن السفن البرتغالية الراسية قبالة الشاطئ.

ولم تمض غير ساعات قليلة، إلا وقد اصبح معظم البرتغاليين في قبضة (أبي طويرق) بين اسير وقتيل. كما استولى على كل سفنهم. باستثناء واحدة تمكنت من الفرار في آخر لحظة حاملة معها عدد غير قليل من الجنود الفارين. وكان حصيلة القتلى البرتغاليين نحو الثلاثين. اما الاسرى فكانوا (سبعين) بمن فيهم كبار ضباط الاسطول البرتغالي. اما السفن الكبيرة التي استولى عليها أبو طويرق فبلغت ١٤ سفينة. وفي حيريج وفي التوقيت نفسه. تم القاء القبض على ١٠ برتغاليين كانوا متواجدين هناك وقتل واحدا منهم(١).

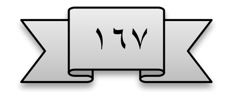
وقد اورد مصنف النور السافر رواية اخرى عن هذه الحادثة تفيد انه في سنة ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م ((قتل السلطان بدر الإفرنج في الشحر. بعد ان عزموا على قتله فخذلهم اللّه تعإلى. وكان هو واياهم في بيت يشربون. وقد أغلقوا الأبواب عليه. فأخبرته بعض الجوار منهم. ولم يجد له مخرجا إلا من بيت الماء. فخرج منه وسلمه اللّه منهم. وأصبح في ذلك اليوم هلب عليهم. وقتلوا عن آخرهم، وأرسل برؤوسهم إلى السلطان سليمان))(٢).

وبعد هذه الحادثة قدمت سفن برتغالية أخرى من سواحل شرق افريقيا محملة بغنائم متنوعة تم نهبها من هناك. ولم تكن تعلم بخبر ما حل بزميلاتها.

---

١ - انظر بافقيه، تاريخ الشحر، ص٢٣٣، ص٢٣٥؛ محمد بن هاشم (٤١/١-٤٢)؛ باسنجلة، العقد الثمين ص٥٣؛ النور السافر ص٢٨٠. وانظر الرواية نفسها للعيدروس عند ابن هاشم (٤٣/١).

٢ - العيدروس، عبد القادر، النور السافر ص٢٨٠.

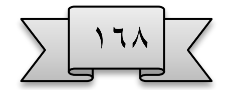


فما أن ألقت مراسيها كالعادة قبالة شواطئ المدينة. حتى وفدت إليها قوة من جنود السلطان وألقت القبض على كل من فيها ومصادرة محتوياتها.

أما عن الاسرى البرتغاليين فقد احتفظ السلطان (بدر أبو طويرق) بعدد منهم وتحرز عليهم في سجن بمنطقة عرف بعيداً عن الساحل. وعلى رأس هؤلاء الاسرى قادة الاسطول البرتغالي. كما أرسل إلى والي العثمانيين العشرات منهم، في رسالة واضحة منه انه إلى جانبهم في هذا الصراع وليس إلى جانب البرتغاليين كما يشيعه ويذيعه خصومه. كما وزع بقية الاسرى على جنوده من يافع والنوبيين واشراف الجوف للتصرف بهم كيفما شاؤا. أما الاسرى المتواجدين في حيريج وعددهم (١٠) فاقتسمهم مع اخيه السلطان (محمد) حاكم ظفار، بأن أرسل له خمسة منهم، واخذ هو الخمسة الآخرين، وقام بضرب اعناقهم على الملأ، في محاولة منه إرسال رسالة للجميع ان سياسته مع البرتغاليين تغيرت، وانهم لن يجدوا منه بعد اليوم غير القتل والتنكيل.

إلا أن أخاه السلطان (محمد) حاكم ظفار، كما يلاحظ خيب امله بإتباعه مع البرتغاليين نفس سياستهم السابقة المليئة بالمجاملة والتملق. فكما اشارت بعض المصادر فإن السلطان محمد قام بكسوة اولئك الاسرى وتزويدهم بالمال وإرسالهم معززين مكرمين إلى (هرمز) حيث مركز قيادتهم(١).

١ - بافقيه، تاريخ الشحر ص٢٣٦.



حضرموت ولاية عثمانية

ان تلك الضربة القوية التي وجهها السلطان بدر للبرتغاليين، اعلت من شأنه وعززت من مكانته وازدادت هيبته في النفوس. وهذا ما جعل من البرتغاليين بعدها الإسراع للتفاوض معه. وجعل من العثمانيين أيضاً الإسراع في إرسال وفد رفيع لمقابلته ولإجراء بعض الترتيبات تمهيداً لضم حضرموت رسمياً للخلافة العثمانية وما سيترتب عليها من التزامات واستحقاقات.

السلطان بدر وفرحات شوباصي:

ففي يوم السبت ١٨ ربيع أول سنة ٩٤٤هـ/٢٤ اغسطس ١٥٣٧م وصل إلى مدينة الشحر وفد دبلوماسي عثماني مكون من ثلاثين رجلاً بقيادة (فرحات شوباصي)(١) احد مماليك (سليمان باشا الخادم) ومعه كتابان وخلعتان للسلطان بدر(٢). أرسلها له السلطان (سليمان بن سليم بايزيد العثماني) عن طريق والي مصر (سليمان الخادم) وفيها تطمينات عن قرب وصول الحملة العثمانية(٣)

---

١ - في تاريخ الدولة الكثيرية، فرحات شوماي. (٤٤/١) وكذلك عند ايفانوف، الفتح العثماني ص١٣٤. ولعله فرحات صوباشي، والصوباشي، وظيفة عثمانية (رتبة)، رئيس فرقة من السباهية، وهي فرقة من الفرسان في الجيش العثماني. كما يطلق الصوباشي على القائم بأعمال البلدية في الأقضية والبلدات. انظر عن هذا المصطلح، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية، ص١٤٥. ومعجم الالفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص١٠٣.

٢ - الخلعة: ((اسم عربي لما يسمى بالتركي ققتانو وهو نوع من الملابس الخارجية او ما يسمى بالبشت او العباءة او الرداء الذي كان السلطان يكسيه على موظفيه او ولاته او وزرائه اعراباً عن رضائه عنهم. ولهذه الخلعة درجات وانواع كانت اعلاها ما تمنح للشريف وهي من فرو السمور....)) انظر المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية ص١٠٣.

٣ - تاريخ الدولة الكثيرية (٤٤/١)؛ بافقيه، تاريخ الشحر ص٢٤٥.

بمدافعها العملاقة الجديدة(١) وذات المدى الأطول. وقبيل مغادرة شوباصي، ارسل معه أبو طويرق هدية للسلطان سليمان(٢).

ان فرحات شوباصي سابق الذكر والذي لا يعلم عنه غير القليل، يعد من القيادات الخطيرة في جيش (سليمان باشا الخادم) ويمكن ان نعده قائد العمليات الخاصة أو الاستخبارات العسكرية بمفهوم العصر. وقد وصفه مصنف كتاب روح الروح بأنه: ((داهية ناقعة ومصيبة واقعة))(٣). وقد كان حاضرا في الكثير من الأحداث. وسناتي لدوره في المؤامرة التي استهدفت الأمير عامر بن داؤود الطاهري.

وفي يوم الجمعة ١٤ ربيع اول ٩٤٤هـ /٢٠ اغسطس ١٥٣٧م تقريباً خطب خطيب مسجد الجامع بمدينة الشحر للسلطان سليمان القانوني. وهي اول خطبة خطب فيها للأروام (الاتراك) في حضرموت.

ولما كان ضحى يوم الجمعة ٢٢ ربيع أول سنة ٩٤٤هـ/٢٨ اغسطس ١٥٣٧م تقريباً ((اجتمع السلطان بدر وعسكره والقاصد واصحابه لقراءة المراسيم بالجامع الشريف. فقرأها الفقيه (عبد الله بن عمر بامخرمة) قائماً والسلطان قائماً والناس قيام تواضعاً لأمر سلطان الروم. وخلعوا على السلطان بدر الخلعتين عند قراءة المراسيم. وكان مضمونها اخبار التجريدة وعددها وعدتها))(٤).

---

١ - استطاعت تركيا ان تصنع مدافع عملاقة بإمكان الواحد منها يطلق قذيفة تزن (١٠٠كيلوجرام) وهو تفوق حربي اثار قلق البرتغاليين. ايفانوف، الفتح العثماني ص ١٣١. وعلى ما يبدو ان بعض من هذه المدافع ترك لدى أبو طويرق وهو الذي اعانه كثيراً في حروباته.

٢ - من الهدايا التي ارسلها السلطان بدر الى السلطان سليمان فص من الالماس النادر الوجود وخمسمائة مثقال من العنبر الاصلي الفاخر. كما اعطى فرحات ومن معه ثلاثين بهارا من الفلفل. تاريخ الدولة الكثيرية (٤٤/١).

٣ - بن شرف الدين، عيسى بن لطف الله، روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح، تحقيق ابراهيم أحمد المقحفي، مركز عبادي للدراسات والنشر، الجمهورية اليمنية ط١، ٢٠٠٣م. ص١٠٨.

٤ - بافقيه، تاريخ الشحر، ص٢٤٥.

و((عزم القاصد (الشوباصي) وجماعته يوم الاثنين ١٩ ربيع ثاني ٩٤٤هـ/ ٢٤ سبتمبر١٥٣٧م . وهو شاكر يثني على السلطان بدر لما رأى منه الحشمة والمروءة والمراعاة والعطايا الجزيلة. وجوّب له جواباً شافياً كافياً بخط الفقيه عبد الله المذكور))(١).

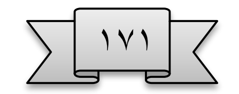
ولنا هنا ان نتساءل لماذا قدم للسلطان بدر مرسومين وخلعتين، بينما قدم لمن سبقه من الحكام مرسوم واحد وخلعة؟ غالب الظن ان احدها للسلطان بدر والاخرى لأخيه السلطان محمد. وهنا نطرح سؤالاً آخراً تاركين اجابته للآخرين عن لماذا لم يقابل فرحات شوباصي السلطان محمد ان كان هذا المرسوم والخلعة له؟ .

وأثناء مغادرة شوباصي والوفد المرافق له ميناء الشحر قبيل المغرب بقليل، شاهدوا غراباً برتغالياً مقبل فتبادلوا معه النيران وأصابوا عدد من البرتغاليين بين قتيل وجريح. وما ان حل الظلام حتى فرّ ذلك المركب البرتغالي متجهاً للمشقاص. وفي صباح اليوم التالي صادف هذا الغراب البرتغالي، سفينة بقيادة (سعد بن عمرو المحمدي) ومعه جماعة من المهرة يريدون السفر إلى زيلع. فما كان من الغراب البرتغالي الا ان رفع راية التفاوض طالبا الاستسقاء من قرية على الساحل قريبة منهم مقابل حصولهم على المال. وتمت الصفقة(٢).

أما صوباشي فغادر الشحر متجهاً إلى عدن. وكان قبيل وصوله إلى الشحر، ان مر بزبيد وقابل فيها حاكمها (الناخوذة أحمد) وناوله مرسوم سلطاني وخلعة. ثم مر بعدن وقابل فيها الأمير (عامر بن داؤود) وفعل معه ما فعله مع الناخوذة. ووعده الأمير عامر بالرد بعد عودته من الشحر.

---

١ - بافقيه، تاريخ الشحر ص٢٤٥. عند ايفانوف، تمت المراسيم في اغسطس ١٥٣٨م. الفتح العثماني ص١٣٤.
٢ - بافقيه، تاريخ الشحر ص٢٤٥. الجدحي، تاريخ المهرة ص٢٢٣.



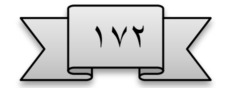
وبعد رجوعه من حضرموت إلى عند الأمير عامر بن داؤود تظهر لنا روايات عدة احدهما ترى ان فرحات شوباصي هذا وبعد وصوله إلى عدن طلباً للجواب لم يجد الأمير عامر وكأنه تعمد عدم ملاقاته وبالمقابل ((أمر أمراءه ليعطوهم شيئاً من الفلفل وأهمل أمرهم. ولم يحتفل بالقاصد فحقد عليه. وكان ذلك سبب هلاكه))(١) وان فرحات هذا اوعز لسليمان باشا الخادم بضرورة احتلال عدن. فبعد وصول اسطولهم إلى عدن معلناً الجهاد ضد البرتغاليين. سمح لهم الأمير عامر بن داؤود التزود بالماء والطعام وشراء احتياجاتهم. فكان الجنود يغادرون سفنهم أفراداً وجماعات دون ان يشعر بحقيقة اعدادهم أحدٌ. وبالمقابل قابل عدد من اعيان ومشايخ عدن الباشا سليمان في سفينته للسلام عليه والدعاء له بالنصر. فكان يكرمهم ويحسن اليهم. وان هؤلاء لاحقاً زينوا للأمير عامر ضرورة القيام بنفسه بواجب الزيارة والسلام على الباشا. وبعد اقتناعه وعندما صعد سفينة الباشا للسلام عليه. امر جنوده بإلقاء القبض عليه وعلى من معه وامر بشنقهم وتعليقهم على سارية سفينته(٢). بينما سيطر جنوده على البلاد من الداخل.

وهذه الرواية على الرغم مما فيها من استفهامات. إلا انها مقارنة بالروايات الاخرى تعد الأقرب للصح. ذلك ان الرواية الثانية وهي التي رواها المؤرخ النهروالي مصنف البرق اليماني فيفيد فيها أن الأمير عامر بن داؤود ولما علم نية سليمان باشا الخادم الذهاب للهند لمقاتلة البرتغاليين. ((فتح له باب عدن وأمر أن تزين وجمع له من البلاد ما أراد من الأزواد وتوجه هو ووزيره للسلام عليه. إلى الغراب الذي هو فيه. فبمجرد ان رأى سليمان باشا باب عدن قد فتح. امر عسكره بدخول عدن وأخذها. فلما وصل إليه عامر ألبسه ومن معه خلعاً. ثم أمر

---

١ - المرجع السابق، الصفحة نفسها.

٢ - المرجع السابق ص٢٥٤.



بصلبهم على الصاري في الغراب الذي هو فيه. ونهب العسكر داره. وشرعوا في نهب البلد. فامر منادياً يمنعهم عن نهب الناس. ونادى في البلاد بالأمان))(١). اما الرواية الثالثة وهي بعيدة عن الصواب وراويها من أعيان الزيدية (أعداء الطاهرين ومنافسيهم في الحكم) فتفيد أن الأمير عامر لما علم بوجود أسطول سليمان الخادم بكمران طمع في مساعدته ضد الإمام الزيدي شرف الدين. فكان يكاتبهم عبر (فرحات شوباصي) وأن هذا الاخير كان يمنيه ويبسط له القول ويوعده بالنصرة. وانه بعد وصول أسطول سليمان باشا لعدن، طلب الباشا من الأمير عامر أن يسمح لجنوده الدخول للمدينة بغرض التسوق وشراء اغراضهم. ووافق الأمير على دخول تلك القوة وفيها فرحات شوباصي. والذي اتفق سرا مع الباشا أنه وحالما دخول القوة لعدن أن يصحب معه جماعة من المقاتلين ويلقوا القبض على عامر بن داؤود. وأن الشوباصي أدى مهمته بنجاح بعد أن اقتحم دار عامر والقى القبض عليه وعلى مجموعة من أصحابه وخواصه وأرسلهم إلى الباشا والذي أمر بشنق عامر وخمسة من وزرائه وخواصه وتركهم معلقين على سارية سفينته لمدة ثلاثة أيام(٢).

أما فرحات شوباصي فرافق سيده (سليمان باشا الخادم) في حملته إلى كجرات. وقد أرسله الباشا بحمل رسائل ومراسيم إلى السلطان (محمود بن لطف اللّه بن مظفر شاه). إلا أن السلطان كما قيل ألقى القبض عليه. ولم يصل للباشا رد(٣). ومن المحتمل انه انضم لقوات الخواجا صفر المتواجدة في الديو والتي تدين بالولاء لسلطان كجرات.

١ - النهروالي، البرق اليماني ص٨٠.
٢ - شرف الدين، عيسى بن لطف الله، روح الروح ص١٠٨.
٣ - بافقيه، تاريخ الشحر ص٢٥٨. وانظر تفاصيل اخرى بالمرجع نفسه ص٢٦٠- ٢٦٥.

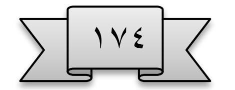
حملة سليمان باشا الخادم إلى الهند

فبعد ان أصبحت حضرموت ولاية عثمانية رسمياً سنة ٩٤٤هـ/ ١٥٣٧م وصلت لمدينة الشحر تلك التجريدة العثمانية التي طال انتظارها بقيادة (سليمان باشا الخادم)(١). وذلك في شهر ربيع أول سنة ٩٤٥هـ/اغسطس ١٥٣٨م. وكان غرضها المعلن بلوغ الهند ومواجهة البرتغاليين.

وحالما وصولها كان السلطان بدر غائباً (لعله خشى على نفسه من مصير كمصير أبن داؤود). ولم يدخل سليمان باشا المدينة وانما بقى في سفينته وأكتفى فقط بأرسال بعض مبعوثيه إلى السلطان بدر ليعلماه بخبر وصولهم وانطلاق التجهيزة العثمانية إلى الهند. وليبرروا له ما قاموا به في عدن من التخلص من الأمير (عامر بن داؤود). كما طلبوا من السلطان بدر تسليمهم بعض الاسرى البرتغاليين الموجودين لديه. وطلبوا أيضاً امدادهم ببعض السفن من نوع الغراب مع مؤنها ، تاركين لديه في المكلا احدى سفنهم الضخمة من نوع الـ(برشة) ريثما يعودوا لأخذها.

لتمضي بعده تلك الغربان محملة بالأسرى والمؤن إلى ميناء حيريج. حيث بقية سفن الاسطول العثماني(٢) والتي بلغ عددها (٨٠ غراباً و ٢٠ برشة) اما عدد

١ - سارجنت، البرتغاليون قبالة ساحل جنوب بلاد العرب، ص١٨٦.وفي الادبيات المحلية يطلق على هذا القائد اسم (سليمان الطواشي) والطواشية هم المماليك الخصيان المعينون لخدمة بيوت السلطان وحريمه. انظر معجم الالفاظ التاريخة في العصر المملوكي، ص١٠٩. ويبدو ان المصطلح قد تطور.
٢ - بافقيه، تاريخ الشحر، ص٢٥٣، ص٢٥٦؛ باسنجلة تاريخ الشحر المسمى العقد الثمين، ص٦٢.



المقاتلين فيها فقد تجاوز (٧٠) ألف(١). وقد وصلوا الهند في شهر ربيع ثاني ٩٤٥هـ/ سبتمبر ١٥٣٨م.

وسرعان ما عادت تلك التجهيزة من الهند وفيها قائدها (سليمان الخادم) مدعية نصراً زائفاً. وحين وصولها قبالة المدينة ارتاع الناس منها بمن فيهم افراد الحامية التركية الموجودة والتي أعلنت حالة الاستنفار القصوى اعتقاداً انها سفن برتغالية قادمة. ثم هدأت أنفس الجميع بعد ان تأكد انها سفن عثمانية. وكان وصولهم مدينة الشحر في يوم الاربعاء ٤ رجب ٩٤٥هـ/ ٢٦ نوفمبر ١٥٣٨م. وقد كان في استقبالهم وبحفاوة كبيرة أمير الشحر آنذاك (أحمد بن مطران)(٢). وقد مكث هذا الأسطول داخل المدينة اربعة ايام ثم انصرف.

وقبيل انصراف الباشا (سليمان الخادم) وكأنه اراد ان يعوض مالم يتحقق له من مكسب كبير في الهند(٣)، طلب من الأمير (أحمد بن مطران) تسليمه بقية الأسرى الموجودين لديه وعلى رأسهم احد كبار الضباط البرتغاليين. فتم له هذا. كما أعطى الأمير أحمد(سنجقاً)(٤) وأمره فوراً تسليمه بنفسه للسلطان بدر وارسل برفقته بعض القادة العثمانيين لمقابلة السلطان. وهؤلاء طلبوا من السلطان الالتزام بدفع مرسوم للدولة العثمانية، وهو مبلغ وقدره (٢٠٠ الف)

١ - باسنجلة، العقد الثمين، ص٦٢. وعند الطيب بافقيه ان اصل التجريدة (٦٣) سفينة منها خمس برش كبار والبقية غربان، انظر تاريخ الشحر ص٢٦٤. ومن المحتمل ان رقم عدد الجنود مبالغاً فيه.

٢ - باسنجلة العقد الثمين، ص٦٢؛ تاريخ الشحر ص٢٥٧.

٣ - عن نتاج الحملة انظر سارجنت، البرتغاليون قبالة ساحل جنوب الجزيرة العربية ص١٨٦.

٤ - السنجق: ومعناه اللغوي العلم واللواء الخاص بالدولة ومن ثم خص بها اللواء الذي يمنحه السلطان للوالي او الأمير تعبيراً عن ثقته بأنه اهل للحكم، ثم تطورت الدلالة فاصبحت تعني قسماً إدارياً من اقسام الدولة، وحلت محلها مؤخراً الكلمة العربية (لواء) للمعنى نفسه أي قسم اداري...الخ)) للمزيد انظر صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية ص١٣٦. وفي معجم الالفاظ التاريخية في العصر المملوكي ((السنجق لفظ تركي استعمل بمعنى العلم، او الراية، وبمعنى الرمح، او اللواء، والسنجقدار : هو الذي يحمل الراية خلف السلطان او الأمير)) انظر دهمان، محمد أحمد، المرجع المذكور ص٩٣.

سنوياً. وفي بعض المصادر الأخرى (١٠ آلاف أشرفي)(١). كما طلبوا من السلطان بدر كتابة رسالة خطية تؤكد نجاح حملة الباشا على الهند وتفيد انه حقق انتصارات هناك. وتم لهم ذلك(٢).

أن منح السلطان بدرا (سنجقاً عثمانياً) يحمل في طياته اعترافاً عثمانياً رسمياً آخر بولاية السلطان (بدر بن عبدالله بن جعفر الكثيري) على حضرموت وترقيته في منصبه ضمن مناصب ألوية الدولة العثمانية. وإخضاع حضرموت مباشرة لسلطتهم.

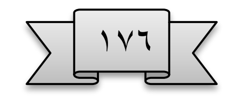
وبعد هذه الحملة العثمانية، تلتها حملات أخرى(٣) بغرض مطاردة البرتغاليين، وتعزيز الشواطئ الجنوبية لشبه الجزيرة العربية. وهي التي عززت من مكانة وقوة العرب والمسلمين في مياه المحيط الهندي بعد ان تهاوت.

إلا ان الحروب والمعارك بين العثمانيين والبرتغاليين في مياه المحيط الهندي والخليج العربي كانت سجال. وكذلك كانت علاقة أبي طويرق مع البرتغاليين متأرجحة إلا أن حدتها خفت كثيراً. ولم تسجل بعد ذلك أية اعتداءات برتغالية على سواحل حضرموت وأن كانت اعتداءات البرتغاليين لم تتوقف في اماكن اخرى كشرق افريقيا أو الخليج العربي أو جنوب وغرب الهند.

١ - باسنجلة العقد الثمين الفاخر ص٦٣، بافقيه، تاريخ الشحر ص٢٥٨. تاريخ الدولة الكثيرية(٤٦/١).

٢ - بافقيه، تاريخ الشحر ص٢٦٥.

٣ - من هذه الحملات العثمانية حملة بري ريس، وحملة سيدي علي ريس.

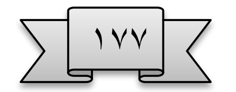


الأسرى البرتغاليين واتفاق الصلح

من طبيعة أي صراعات أو حروب تنشب بين طرفين أن تولد قتلى وجرحى وغالباً ينتهي مصير هؤلاء الجرحى بالموت لتعذر الإمكانيات الطبية التي تساعد على إبقائهم أحياء. إلا المحظوظين منهم ومن لم ينله جرحاً عميقاً يمكن ان نقول انه انكتب له عمر اخر. كما ان من الطبيعي ان تفرز اية معارك عن أسرى حرب يقعون في إيدي كل طرف، حيث يتباين الطرفان في تعاملهما مع هؤلاء الأسرى وتظهر حقيقة كل طرف. وقد شاهدنا فيما مضى كيف كان تعامل البرتغاليين مع المدنيين وحرقهم أحياءً فضلاً عن الأسرى وتماديهم في التنكيل بجثتهم أو قطع انوفهم وآذانهم دون أية مراعاة للإنسانية ولحقوق الاسير.

إن تلك الممارسات البرتغالية اللا إنسانية مع الأسرى لم تقابل بالمثل من قبل السلطنة الكثيرية بحضرموت أو السلطان بدر، وهنا تتجلى سماحة الدين الإسلامي في التعامل مع الأسير والرفق به بالرغم مما ارتكبه هؤلاء الأسرى أو قومهم من فضائع وجرائم يندى لها الجبين؛ فعلى سبيل المثال في تلك المعركة التي دارت رحاها داخل مدينة الشحر سنة ٩٤٢هـ استطاع فيها السلطان بدر أسر أكثر من (٧٠) جندياً وضابطاً برتغالياً، لم يعدمهم أو يجدع أنوف البعض منهم مثلما فعلوه في أماكن عديدة أخرى. إنما اكتفى بحبس الكثير منهم وتوزيع بعضهم لمن ساهم معه في تحقيق النصر(١). وفي إحدى زياراته لحضرموت الداخل اصطحب معه (٣٠) برتغالياً من أولئك(٢).

١ - بافقيه، تاريخ الشحر ص٢٣٣، ص ٢٣٩.
٢ - بافقيه، تاريخ الشحر ص٢٣٨.



نماذج من اتفاقات الصلح بين السلطان بدر والبرتغاليين

(١) اتفاق رمضان سنة ٩٣٩هـ/ إبريل ١٥٣٣م

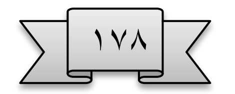
وفيه وصل اسطول برتغالي مكون من حوالي (١٦) سفينةً. وكان في نيتهم الهجوم على مدينة الشحر لولا أن شاهدوا ما فيها من تحصينات واستعدادات. ففضلوا التفاوض مع السلطان بدر وابرام اتفاق صلح بينهم. وقد ((كتبوا له خط على أنه يرسل رسولاً من جهته إلى جوة إلى قبطانهم بهدية ويتموا معه الكلام ويعقدون الصلح))(١).

(٢) صلح سنة ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م (صلح الوسيط ابن الزمن)

فيه تم اتفاق صلح بين السلطان بدر وقيادة البرتغال ولا نعلم عن تفاصيله. وكل ما نعلمه أن البرتغاليين جاؤا إلى الشحر ومعهم اتفاق الصلح من حاكمهم. وان السلطان بدر وأثناء انصرافهم زودهم ((ببقر وغنم وغير ذلك. واعطى القبطان حصانا مليحا ، وكذلك أعطى اثنين من خواصه راسين او ثلاثة من الخيل. هذا بعد أن أرسل أعني السلطان مكاتبة على يد الخواجا ابن الزمن إلى قبطان جوة بتقرير الصلح))(٢).

---

١ - بافقيه، تاريخ الشحر، ص٢٢٠.
٢ - بافقيه، المرجع السابق، ص٢٣٠.



(٣) مفاوضات ذي الحجة سنة ٩٤٣هـ/ مايو ١٥٣٧م

وصلت ثلاث سفن برتغالية وبدؤوا مفاوضاتهم في إطلاق اسراهم. إلا ان أبا طويرق فرض عليهم شروط لم يوافقوا عليها. وفي النهاية اتفقوا على ان يبقوا هؤلاء عنده وفي نهاية الموسم سيحضرون أربعة من كبار ضباطهم ليتولوا مهمة إعطاء التصاريح لأصحاب السفن كي لا يعترضها أحد وبالمقابل عليه أن يطلق ما بحوزته من أسرى(١). ولا ندري ما مدى نجاح هذا الاتفاق.

(٤) رمضان ٩٤٤هـ/ فبراير ١٥٣٨م

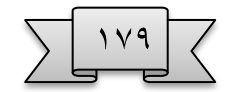
وصول سفينة برتغالية تطالب السلطان بدر برؤية أسراهم المحجوزين عنده واطلاق واحداً من كبار ضباطهم. وتزويدهم بمعلومات خطية عن حملة سليمان باشا الخادم. وتم تزويدهم بالمعلومات(٢).

(٥) اتفاق الصلح في شوال ٩٤٤هـ/ مارس ١٥٣٨م بوساطة ابن الزمن

وصل الوسيط ((عبد الله بن الزمن من الهند في برشة وغراب افرنجي بالصلح بين الافرنج وبين السلطان بدر فاصطلحوا وفك أسراهم))(٣). لقد تكرر اسم هذا الوسيط (ابن الزمن) في الوساطات بين السلطان بدر والبرتغاليين. من دون أن تقدم لنا مصادرنا المحلية الكثير عنه وعن هويته. وأن كان اسم (ابن الزمن) من الالقاب الشهيرة لأسر اشتهرت بالغنى والتجارة في مصر وبلاد الحجاز.

---

١ - بافقيه، تاريخ الشحر، ص٢٤١.
٢ - بافقيه، تاريخ الشحر، ص٢٤٧.
٣ - باسنجلة، تاريخ الشحر، ص٥٩؛ وانظر تفاصيل اكثر عن هذا الصلح في تاريخ الشحر، ص٢٤٨ ــ ٢٤٩.



ولا ندري ان كان للخواجا ابن الزمن هذا أي علاقة بـ(الخواجا الشحري) والذي وصفه المؤرخ الجزيري (ت: نحو ٩٧٧هـ/ نحو ١٥٦٩م) بأنه (صهر القبطان الفرنجي). وهذا الرجل اجتمع به في الحجاز (سليمان باشا الخادم) قبيل مغادرته إلى الهند في حملته المشهورة سنة ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م. وان سليمان باشا سأل الخواجا الشحري صهر القبطان الفرنجي: عن ((حالهم، وتخت ملكهم. فقال له: بلاد قُوة – بضم القاف – وسأله عن مصاهرته له. وأشاع الناس قتله ومسك بعض التجار فلم يصح شيء من ذلك بل أطلقه))(١). وهذا النص على شحته لم يقدم لنا أكثر مما قدمه.

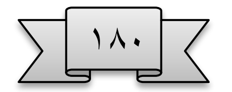
وفي محرم ٩٤٥هـ/ يونيو ١٥٣٨م

سافر السلطان بدر إلى حضرموت الداخل واستصحب معه حوالي (٥٠) اسير برتغالي، على ما يبدو دفعت بهم الريح لسواحل حضرموت. ووقعوا في قبضة جنوده(٢).

ومن المحتمل أن يكون من ضمن هؤلاء الاسرى، أولئك الثلاثون أسيراً الذين سلمهم فيما بعد السلطان بدر، للباشا سليمان الخادم بعد حملته الفاشلة من الهند. وهذا الاخير قام بقطع رقابهم جميعاً ودفنهم في بئر(٣).

---

١ - الجزيري، عبد القادر بن محمد، الدرر الفرائد المنظمة في اخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تحقيق محمد حسن اسماعيل، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ١، ٢٠٠٢م. (٣٨٧/٢).
٢ - بافقيه، تاريخ الشحر ص٢٥٣.
٣ - بافقيه، تاريخ الشحر ص٢٥٩.

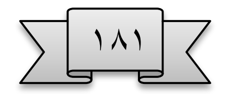


مساهمة السلطان بدر في فك أسرى المسلمين

في سنة ٩٤١هـ/ ١٥٣٤م وصلت أربع سفن برتغالية مدينة الشحر محملة بأسرى تم اصطيادهم بالقرب من كمران. فقام السلطان بدر ومعه تجار من المدينة باستفكاكهم بالمال. واعطى البرتغاليين الامان(١).

في سنة ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م دخل ميناء الشحر مركب برتغالي مصطحبا معه مركب آخر لتجار من (بادقلا) محملاً بز وغيره. فاشتراه منهم السلطان بدر بثلاثة ألف أشرفي(٢).

١ - بافقيه، تاريخ الشحر ص٢٢٨.
٢ - وزاد المؤرخ بافقيه في تلك الرواية ان السلطان بدر ((لم يمكن اهله منه لإلا بسبعة آلاف أشرفي وزيادة للوسائط نحو الثلاثمائة)). تاريخ الشحر ص٢٣١.



نهاية الوجود البرتغالي

كما أشرت فبعد إعلان السلطنة الكثيرية الدخول رسمياً في طاعة بني عثمان لتكون حضرموت وملحقاتها ولاية عثمانية. شكّل هذا الانضمام ضربة موجعة للبرتغاليين ووضعتهم في وضع حرج جعلهم في مواجهة مباشرة مع الدولة العثمانية.

فما كان من الأساطيل البرتغالية الا التعامل مع السلطنة بحذر والترفع عن السواحل الحضرمية والاكتفاء بما تغنمه من السفن العابرة هنا وهناك والبحث لها عن أسواق لبيع غنائمها ومنهوباتها. فالفترة الواقعة في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري وما بعدها تكاد تكون فترة خالية من أي تواجد برتغالي على سواحل حضرموت خاصة. حيث لم ترصد الحوليات المحلية اية ظهور لهم بالمنطقة إلا في النادر جداً وليس بذلك الحدث الذي يستوجب الوقوف امامه.

وقولنا هذا لا يعني أن الوجود البرتغالي انتهى تماماً من المنطقة العربية. فما زالت سفنهم تصول وتجول عبر مناطق المحيط الهندي والخليج العربي. ولا زالت اساطيلهم تتوق للتوغل في البحر الأحمر لتنفيذ مخططاتهم الاستعمارية الأولى. إلا إن نشاطهم هناك تحول ليحاذي البر الافريقي من البحر الأحمر.

وقد ساعدت تجدد الصراعات في اليمن بين العثمانيين انفسهم وبينهم وبين اليمنيين وتمدد الزيود لبسط هيمنتهم على المناطق اليمنية كل هذا أضعف الوجود العثماني باليمن، وساعد على تسرب الأساطيل البرتغالية للتوغل داخل البحر الأحمر بل والوصول إلى السويس.

ففي تلك الفترة كان أبناء (فاسكو داجاما) وهم (كريستوفاو داجاما) و(استيفاو داجاما) وغيرهم من القادة البرتغاليين يرتعون بأساطيلهم في مياه المحيط الهندي يمارسون عمل والدهم السابق في السلب والنهب.

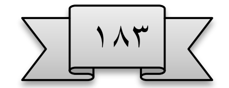
وقد استطاع القائد (استيفاو داجاما) تقريباً سنة ٩٤٧هـ/ ١٥٤١م(١) الوصول بأسطوله إلى خليج السويس بعد ان ظل طريقه في البداية واتجه إلى الطور. وكان يهدف إلى مباغتة الأسطول العثماني في السويس حيث تجري تجهيزاته وتدميره قبل أن يكتمل أعداده. إلا إنه تفاجأ باستعداد العثمانيين له. او هي حيلة من العثمانيين بعد ان علموا بقدومه. فما كان منهم الا التراجع. اما اسطول اخيه (كريستفاو) فقد اتجه بقوة قدرت بـ(٥٠٠) جندي برتغالي إلى دهلك(٢) لمساعدة ملك الحبشة المسيحي الذي استنجد بهم. فما كان من المسلمون في الحبشة إلا الاستنجاد بمن في البر المقابل (اليمن) فأمدهم والي اليمن الجديد مصطفى النشار بـ(٥٠٠) جندي عثماني. وكانت النهاية أن أبيدت تلك القوة البرتغالية مع قيادتها.

ومن الواضح أن البرتغاليين في هذه الفترة أحسوا بضعف قوتهم وانحسار نفوذهم في المنطقة بعد أن تأكد لديهم استحالة تحقيق مشروعهم الصليبي باحتلال الاماكن الإسلامية المقدسة في الحجاز. او عقد تحالفات صليبية مع ملوك الحبشة المسيحيين لتدمير البلاد الإسلامية. وهذا الأمر تأكد أكثر بعد أن ضيقت عليهم مداخل باب المندب واستصعب عليهم الدخول والتوغل في البحر الاحمر. هذا فضلاً عن أوامر الباب العالي لولاياته وألويته بمنع التعامل مع

---

١ - باسنجلة، تاريخ الشحر ص٧٠. ص٧٩. وفي المصادر المحلية يورد هذا الحدث في هذه السنة والتي تليها.

٢ - دهلك: ارخبيل من الجزر تضم حوالي ١٠٠ جزيرة تقع مقابل ميناء مصوع الارتيري على البحر الاحمر. اشتهرت عبر التاريخ بتجارة العبيد والإماء الذين يجلبون من بلاد الحبشة.



البرتغاليين بأي شكل من الاشكال. فما كان من البرتغاليين الا اللجوء للتفاوض مع الدولة العثمانية نفسها علّ وعسى تنال لنفسها بعض الامتيازات بالمنطقة.

ففي وثائق الأرشيف العثماني وجدت العديد من الخطوط والمراسلات بين مملكة البرتغال والدولة العثمانية التي تعود لهذه الفترة. يحاول فيها البرتغاليون مهادنة العثمانيين وإنهاء العداوة بينهما فضلا عن تبادل السفراء والدخول في علاقات اقتصادية متبادلة. منها على سبيل المثال تلك الرسالة التي ارسلها السلطان العثماني سليمان القانوني لملك البرتغال (دون جوان) رداً على رسالة سابقة من هذا الملك يعرض فيها عقد هدنة بين الطرفين وشروطها. وفيها جواب السلطان سليمان عليها. وتاريخها يعود إلى سنة ٩٥١هـ/ ١٥٤٤م(١). فضلا عن رسائل أخرى متبادلة بين السلطان سليمان والملك البرتغالي (سبستيان) خليفة الملك الراحل دون جوان(٢).

وكما أشرت في مقدمة كتابي فباحتلال إسبانيا للبرتغال ساهم في زعزعة ثقة البرتغاليين بقوتهم وبحكومتهم. وافقدهم الكثير من التواصل بقياداتهم لأخذ التعليمات. فكان ان اصبح القادة كلهم ويتصرفون وفقاً ولمصلحته الشخصية وليس لمصلحة وطنه وبلاده. كما ساهم ظهور الهولنديين والفرنسيين كمنافسين جدد في منطقة المحيط مع ما يكنه هؤلاء من عداء شديد للبرتغاليين وقيامهم بإغراق العديد من سفنهم وأساطيلهم. ساهم هذا أيضاً في اضعافهم واضعاف مقدراتهم. وبالمثل كان لظهور بريطانيا في الساحة دورا في الإضعاف بالرغم من علاقة الود والصداقة التي ارتبطت بها بريطانيا مع البرتغاليين. إلا إنها ساهمت بشكل أو بآخر بتقلص الدور البرتغالي واضعافه في المنطقة. ومعروف عن بريطانيا وما قيل عنها بأنها (وريث البرتغال في مستعمراتها).

---

١ - انظر تفاصيلها خليل، وثائق بحرية عن قبودان السويس، مرجع سابق ص٢٤١.
٢ - انظر المرجع السابق ص٢٣٩، ص٢٤١.

اما الدور الابرز الذي قضى على التواجد البرتغالي في المنطقة فيتمثل في تلك الثورات المستمرة التي شنتها الشعوب المحتلة سواء تلك في افريقيا أو الهند أو الخليج العربي. وتكرار هذه الثورات التي شكلت استنزافاً لقوة ومقدرات البرتغال اضطرت بهم في النهاية للجلاء والانسحاب من الكثير من المناطق التي احتلوها سابقاً.

وكانت نهاية البرتغاليين الأولى التقوقع في مستعمراتهم ومحاولات الحفاظ عليها. وثانياً الجلاء عن كل مستعمراتهم باستثناء ميناء الديو في الهند وبعض الجزر. لينال الجميع استقلالهم في النهاية.

أما حضرموت فقد نعمت بهدوئها واستقرارها من الاعتداءات الخارجية. وعادت تتجدد لها الحياة ويعود لها ازدهارها التجاري تحت ظل الدولة العثمانية. وإن كانت الصراعات الداخلية ما فتئت إلا ولتستعر وتتجدد.

اما عن الدور العثماني فعلى الأرجح اقتصر نشاطه على حماية السواحل الجنوبية لحضرموت ومع مرور الوقت أصبح خضوع حضرموت لهم اسمياً فقط مع دفع ما عليها من رسوم وإتاوات.

وقد افادتنا زيارة الأسطول الهولندي لحضرموت ولمدينة الشحر بقيادة (فان دن بروكة) سنة ١٠٢٣هـ/ ١٦١٤م وما أورده في تقريره عن المدينة في عهد السلطان الزاهد (عبدالله بن عمر بن بدر الكثيري) (ت: ١٠٤٥هـ/ ١٦٣٦م) أشار فيه إلى أن هذا السلطان يدفع سنويا إتاوة لباشا اليمن الكبير وذلك بأمر من قبل

سلطان القسطنطينية المسيطر على هذه المناطق. وأن مقدار هذه الإتاوة (٤٠٠٠) قطعة الثمانية ريالات، و٢٠ بونت (رطل) من العنبر الجيد(١).

ويمكن أن نختتم بحثنا هذا بقصيدة للشاعر عبد الصمد باكثير الكندي يمدح فيها السلطان (عمر بن بدر الكثيري) (ت: ١٠٢١هـ/١٦١٢م) ويذكره بمآثر والده السلطان بدر (أبي طويرق) يقول في مطلعها(٢):

العزم بالجد لا باللهزل واللعب ❖ والنصر بالبيض والخطية السلب

إلى أن قال:

قمتم بحق ابن عثمان وطاعته ❖ محبة هي منكم عن أب فأب

كمثل ما أسر الإفرنج من قدم ❖ أبوك بدراً ابن عبدالله ذي الحسب

ساروا بهم في وثاق الاسر قد صفدوا ❖ بعضاً وبعضهم قد غل في اللبب

هناك كان إلى اصطنبول مقدمهم ❖ إلى سليمان يا الله من عجب

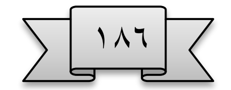
وبعدها في زبيد حين طال على ❖ عساكر الروم ضيق الحصر والتعب

أرسلتم المال والإمداد نحوهم ❖ وكل غال من المشموم والذهب

---

١ - انظر تفاصيل تلك الزيارة مع تقرير (بروكا) عند، ك.خ. براور، آ. كبلانيان، اليمن في اوائل القرن السابع عشر، نشر ده فلوتيه راروب، امستردام، ط٢، ١٩٨٩م. وانظر أيضاً تقرير بروكا كملحق بكتاب باسنجلة، عبدالله، تاريخ الشحر المسمى العقد الثمين الفاخر، مرجع سابق ص١٤٥-١٥٢.

٢ - من ديوان عبدالصمد باكثير، اشرف واعتنى به الشيخ عبدالقادر أحمد باكثير، المكلا، حضرموت، ط١، ٢٠٠٩م.



كذا الجحافل لما اضمروا ضغنا ❖ واستمسكوا من غرور الغدر بالرهب

وخالفوا طاعة السلطان وانتزحوا ❖ بالخيل والمزود المحبوك والسلب

فأمكن الله منهم حيث حاق بهم ❖ وبال عصيانهم بالذل والوصب

أخذتموا شيخهم أسراً وخيلهم ❖ وتلك عادتكم في سالف الحقب

ارسلتموه إلى صنعاء إلى حسن ❖ نعم الوزير وذا من اعظم القرب

والمصعبين اتوا صعبا لما ارتكبوا ❖ من الخلاف وقد ولو على العقب

غاروا على الترك واستهوواهمو غررا ❖ ومنعة من عتاق السبق الشرب

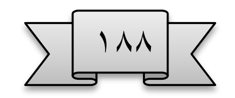
إلى آخر تلك القصيدة.

الخلاصة

إن ما ذكرناه عن أخبار البرتغاليين والعثمانيين منذ بدء تواجدهم بالمنطقة ابتدأ من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي إنما هو غيض من فيض. فمما لاشك فيه إن هناك الكثير من الأحداث والوقائع التي لم أتطرق إليها بحكم طبيعة هذه الدراسة المركزة والتي تستهدف على الأكثر منطقة محددة وفي فترة تاريخية معينة. وبحكم المتاح من المصادر والمراجع بمكتبتي المتواضعة.

وعليه فإن هذه الدراسة على الرغم من أهميتها وقيمتها العلمية والتاريخية ألا أننا لا نعتبرها النهائية او الكاملة والمكملة لكل الأحداث التي شهدتها المنطقة وحضرموت خاصة أثناء فترة التواجد البرتغالي. فهناك من دون شك أحداث اكثر بحاجة إلى من ينقب عنها في بطون الكتب والوثائق لتقديم المزيد والمزيد من المعرفة والإحاطة بتفاصيل كل الأحداث التي مرت بها المنطقة وبجزئياتها وما يتفرع عنها. وما قدمناه هنا إلا لبنة متواضعة في أس ذلك البناء الشامخ الذي نسعى لتشييده ضمن تاريخ حضرموت العريق.

وحقيقة الأمر فإن آثار التواجد البرتغالي بالمنطقة لم يؤثر على حضرموت وحدها وإنما على كل المناطق المطلة على المحيط الهندي والخليج العربي والبحر الأحمر. وان كان وقعه على حضرموت شديداً ليس بسبب كثرة الغارات والاعتداءات على سواحلها ومدنها وقراها فحسب. وإنما بسبب ما شهدته المنطقة عامة من انهيار اقتصادي كبير لاعتماد الجميع على النشاط التجاري والذي يكاد يكون النشاط الاقتصادي الوحيد الذي تعتمد عليه حضرموت. وبالتالي فإن نتائجه كانت كارثية.



ولولا أن سخر الله لحضرموت قائد شجاع حكيم تمثل في سلطانها (بدر بن عبد الله الكثيري) الملقب بأبي طويرق. لانهارت البنية الاقتصادية لحضرموت والتي كان جل اعتمادها على التجارة الخارجية. ولدبت الصراعات والنزاعات العشائرية في أرجائها. ولدمرت أيضاً مدنها وقراها وموانئها بسبب اعتداءات الافرنج (البرتغاليين) إذ لا توجد لديه القوة الكافية والقادرة على حماية السواحل الحضرمية من اية هجمات.

لقد استطاع السلطان الكثيري أبو طويرق بحكمة ودهائه تجنيب حضرموت مزيداً من الدمار ومزيداً من الانهيارات الاقتصادية من خلال (اللعب بالمتناقضات) وكسب الولاءات والتحالفات ولو بممارسة الضغط والقوة او الابتزاز السياسي للقبول والإذعان. فقد شاءت الأقدار له أن يتقلد زمام السلطة بحضرموت وهو في ريعان شبابه. وكانت الفتن والصراعات الداخلية تعصف بمملكته، بل وداخل أسرته المالكة نفسها. وكان على الحدود الخارجية لدولته تصول وتجول أساطيل أعتى دولتين تملكان زمام القوة والسيطرة والرغبة في التوسع ونقصد بهما الإمبراطورية العثمانية المسلمة والمملكة البرتغالية المسيحية.

فكان على السلطان بدر أن يمسك عصاته من الوسط والتعامل بحذر مع هاتين القوتين. وإن كان أكثر ميلاً للعثمانية منها للبرتغالية لوحدة العقيدة ولتقارب الاهداف.

إلا إن تلك القوة الأولى والتي كان يفترض بأن يكون تواجدها مبكراً في حضرموت لتشكل درعاً حصيناً يصد بها استفزازات البرتغاليين وهجماتهم المتكررة وتكون منطلقاً لتشتيت تواجدهم في المحيط الهندي. تأخرت في الظهور بالرغم من كثرة الاستغاثات بعد ان ورطت نفسها بمشاكل وصراعات مع

اليمنيين وكانت في غناء عنها. تاركة حضرموت وغيرها من بلدان إسلامية تواجه مصيرها بنفسها.

وهنا تجلت حكمة وعبقرية السلطان بدر الذي تعامل بترو وتعقل مع الاعتداءات والاستفزازات المستمرة التي يقوم بها البرتغاليين على سواحل مملكته. فكان ان سمح الدخول في علاقات تجارية مع البرتغاليون. ظاهراً لهم الولاء والصداقة. في حين كان يعد عدته سراً لتحديث وتطوير جيشه وتزويده بأحدث الأسلحة المعروفة في ذلك العصر. فضلا عن مراسلاته المستمرة مع العثمانيين حاثاً إياهم سرعة الوصول لإنقاذ مملكته من الانهيار.

لذلك فما ان وصلت طلائع الاساطيل العثمانية حتى تغيرت معاملة السلطان بدر مع البرتغاليين. بل وأعلن من دون تردد انضمام مملكته لألوية الدولة العثمانية. آخذاً العبرة مما حل بجارته عدن من كارثة قضت وبشكل نهائي على دولة لطالما كان حليف لها ونقصد بها الدولة الطاهرية وذلك بعد رفضها وتلكئها الانضواء ضمن ألوية الدولة العثمانية. وبسبب تعاملها (الايجابي) مع البرتغاليين (مثله). إلا إنه في هذا اختلف عنها من خلال اتصالاته المستمرة مع القادة العثمانيين وبيان موقفه منهم وانحيازه لهم. مؤكداً أن لا مانع لدية من مواجهة أعدائه وأعدائهم لولا محدودية امكانياته وقدراته العسكرية.

قد يكون السلطان بدر استفاد نوعا ما من القوات العثمانية الصغيرة التي ترسل له تباعاً للعمل تحت خدمته. إلا إنها لم تكن كافية للسيطرة على عموم مملكته وفرض سلطته عليها. وغير كافية أيضاً لتشكل سياجاً منيعاً يحمي سواحل مملكته من أي اعتداءات. لذلك حاول شراء بعض الجنود الجراكسة الذين فروا من جيش المماليك بعد انقضاء دولتهم في مصر. كما حاول شراء عبيد أفارقة للخدمة في جيشه فضلا عن استعانته بمقاتلين من المهرة ومن يافع

ومن الجوف. وهكذا مع الوقت تكونت لديه قوة رادعة ضمن ولاءاتها له. إلا انها غير كافية على أن تحقق له انتصارات على الساحل وخاصة في مواجهة البرتغاليين. فكان طوق النجاة بالنسبة له هو الدعم والحماية العثمانية.

وحتى يتم ذلك تحتم عليه كما أشرنا أن يدخل في علاقات مهادنة مع البرتغاليين والسماح لهم التزود بالماء والمؤن وبالتجارة داخل البلاد من خلال بيع منهوباتهم ومسروقاتهم التي استولوا عليها من السفن الحضرمية والعربية والمسلمة. وكان في هذا يحاول اتقاء شرهم و(فتح شهيتهم للمال) بدلاً من سفكهم لدماء الأبرياء وحرق أو غرق سفنهم في عرض البحر من دون أن يكون لفعلهم هذا أي فائدة مادية. وحتى لا يتكرر لعاصمة دولته الاقتصادية الساحلية (مدينة الشحر) ذلك الاعتداء الغاشم الذي حدث في سنة ٩٢٩هـ/ ١٥٢٣م عندما نهبت المدينة في غيابه ودمرت تدميرا. وأسفرت عن مقتل العديد من قاطني المدينة وزوارها. وكان من اشهرهم اولئك الذين عرفوا بـ(الشهداء السبعة).

ولكن ما أن بدأت طلائع القوات العثمانية تترى بالمنطقة وبدأت التعزيزات العسكرية تنهال عليه حتى بدأت ملامح اللعب مع البرتغاليين تتغير. وكان لابد من التصدي لاستفزازاتهم بعد أن طفح الكيل وبلغ السيل الزباء. فكان الرد قاسياً وموجعاً للبرتغاليين اضطر بهم لأن يعيدوا النظر في سياساتهم وتعاملاتهم مع الحضارمة. وكان السلطان بدر في بدايات التصادم العسكري مع البرتغاليين أن أوكل المهمة أولاً للقوة العثمانية المحدودة الموجودة عنده، ليتنصل من فعلها لاحقاً إذا ما اخفقت وفشلت في تحقيق أهدافها الدفاعية والهجومية معا. خاصة وان القوات العثمانية التي يتردد اصداؤها الأرجاء لم تصل بعد وهي في حكم المجهول. وبالفعل نجده بعد فشلها تنصل من فعلتها بل وعاقب بالحبس مرتكبيها بحجة إنها قوات لا تخضع لدولته ولم يعط لها الأوامر لفعل ذلك.

ومن الواضح أن حيلته هذه انطلت على البرتغاليين أو تقبلوها عن مضض مع تبييت النية للانتقام منه ومن مملكته في قادم الايام. تماماً مثلما ما فعلوه مع السلطان الهندي (بهادر شاه الكجراتي) وغدره. وعلى ما يبدو أيضاً أن السلطان بدراً بيّت لهم النية نفسها. لتدور الدائرة لاحقاً ويفتك بالبرتغاليين أشد فتكاً وجعل من فعلته هذه نصراً للإسلام والمسلمين يرددها السمار ويتغنى بها الشعّار (الشعراء).

فما كان من أمرها بعد ذلك إلا إن اضطر البرتغاليون لطلب الصلح والتفاوض على مصير أسراهم وممتلكاتهم. ايذاناً بانحسار تواجدهم على السواحل الحضرمية ، مكتفين فقط بما جنوه من قبل من أرباح كلفتهم الكثير من الأرواح. وبما استولوا عليها من قلاع وجزر وممالك خضعت لسيطرتهم.

الباحث / انور حسن السكوتي

الشحر ١/ ٢/ ٢٠٢٣م

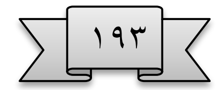
الاحتفال بذكرى الشهداء السبعة

إن أول احتفاء شهدته مدينة الشحر لتخليد ذكرى أولئك الشهداء الذين واجهوا الاعتداء البرتغالي على المدينة كان عصر يوم الجمعة ١٥ ذي الحجة سنة ٩٤٣هـ/٢٥مايو ١٥٣٧م بفضل مشورة قاضي الشحر ومستشار السلطان بدر أبي طويرق آنذاك الشيخ (عبدالله بن عمر بامخرمة) حينما دعى أرباب الدولة ومشايخ وأعيان البلاد وعامة الناس لقراءة الفاتحة والترحم على أرواح أولئك الشهداء.

ثم انقضت السنين والأعوام وبدأت حدة الاحتفاء بهذه الذكرى تخفت وتتضاءل إلى أن تلاشت نهائياً وغاب ذكرها في الاجيال اللاحقة. ولم يبق من رائحتها غير ضريح توسط أربعة جدران بغرفة ملاصقة لبيت يملكه آل باشراحيل في (حارة السبعة) الواقعة بعقل باغريب بمدينة الشحر. وقد تعارف عليه الناس بأنه ضريح الشهداء السبعة دون أن يعلم أحد هوية هؤلاء السبعة ولا تاريخ استشهادهم ولا حتى ضد من استشهدوا كما يقول المؤرخ محمد بامطرف.

وقد استفاد من هذه الغرفة المتواضعة ومن الضريح الموجود داخلها جماعات من طائفة الصوفية بالمدينة بأن جعلت من هذا المكان مزارا خاصاً لطريقتها تمارس فيه بعض طقوسها المرتبطة بما يعرف بـ(الحضرة). وتقام في أوقات محددة من السنة.

ولعل الشيء الوحيد الذي بقى محفورا في الوجدان الشعبي الشحري دون أن يتغير أو يمحى ومرتبط بهذه الذكرى التي لم يلتفت إليها أحد. تلك الاهزوجة



الشعبية التي توارثها الأطفال جيلاً بعد جيل دون أن ينسوها أو يبدلوها إلى اليوم. وهي التي يتغنونها بالقول:

تالي ليلة في البرعة ❖❖❖ والقابلة السَّبعة

وهم يقصدون في هذه الاهزوجة أن هذه الليلة هي الأخيرة في زيارة (البرعة). وأن في الغد سيتغير مكان الزيارة من موقع البرعة إلى موقع الشهداء السبعة.

ذلك أن أطفال المدينة اعتادوا عبر السنين الطوال أن يقضوا الأربعة الأيام الأولى من عيد الأضحى المبارك للتجمع (عصراً) في ساحة عامة واقعة أمام حصن دار ناصر. وهذا الحصن يعد مبنى توارثته السلطنات المتعاقبة على حكم الشحر ليكون مقراً لحكوماتها. حيث يتجمع أطفال المدينة في هذه الساحة مرتدين ملابس زينتهم بمناسبة العيد وفيها يتوافد اصحاب البساط وبائعو الدمى والألعاب وتظهر (المراجيح) ليعم المكان البهجة والسروراً من سعادة أولئك الأطفال. وتستمر تلك الاحتفالات أربعة أيام من (١١ – ١٤) ذي الحجة. ويسمون هذه الأيام الاربعة بأيام (البرعة). وهذه التسمية على الأرجح جاءت من رقصة البرعة التي اعتاد فيها جنود السلطنة القعيطية (من يافع) وكتقليد رسمي ممارستها امام قصر الحاكم في تلك الايام. وما يهمنا فيها ان في اليوم الأخير من احتفالية البرعة وحينما يبدأ الأطفال مغادرة الساحة والانصراف إلى منازلهم يبدأ كل واحدٍ فيهم وبصوت عالٍ بترديد تلك الأهزوجة السابقة. فتعج شوارع المدينة بتلك الأصوات الصادحة. ولو لاحظنا توقيت تلك الأهزوجة سنجد أن تاريخ اليوم الذي يليها

(القابلة السبعة) يصادف تاريخ ١٥ ذي الحجة. وهو تاريخ أول احتفاء بمناسبة ذكرى الشهداء السبعة الذي اشرت اليه سابقاً. فهل هي مصادفة؟.

أما أول احتفال حكومي لهذه الذكرى فهو الذي أقامته حكومة جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية في يوم الأربعاء ١٠ ربيع ثاني ١٣٩٧هـ/ ٢٩ مارس ١٩٧٧م. وهذا التاريخ ورد عند المؤرخ (أحمد بن عبدالقادر الملاحي) (ت: ١٤٠٠هـ/ ١٩٧٩م) في مخطوطته التي وقفنا عليها (المذكرة التاريخية الشحرية).

إن أول مهرجان حكومي رسمي أقيم بعد الاستقلال الوطني احتفاء بهذه الذكرى كان في ٣٠ ربيع أول ١٣٩٦هـ/ ٣٠ مارس ١٩٧٦م، وكان المشرف عليها حينذاك الأستاذ الباحث (عبدالرحمن عبدالكريم الملاحي) ووقتها كان مديراً للثقافة والسياحة بمحافظة حضرموت.

وسميت هذه الاحتفالات بـ(الشهداء السبعة) تيمناً بالزعماء السبعة الذين استشهدوا في تلك المعركة وقبروا بقبر واحدا (بحي الكامل) عقل باغريب (انظر اسمائهم وخبر استشهادهم في متن كتابنا هذا). ماعدا الشيخ أحمد بن عبد اللّه بافضل فقد دفن بمقبرة والده عبد اللّه بن عبد الرحمن بلحاج بافضل (ت: ٩١٨هـ/ ١٥١٢م). وقد جاء في تاريخ باحسن "نشر النفحات المسكية في أخبار الشحر المحمية" بأن هؤلاء ((الشهداء السبعة - رحمهم اللّه تعالى - دفنوا جميعهم في قبر واحد بحارة أبي غريب وعليهم حائط معمور وقبرهم مقصود بالزيارة والتبرُّك قدَّس اللّه أرواحهم آمين)).

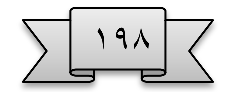
وقد انتهى الاحتفال بهذه الذكرى رسمياً سنة (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م) بعد أن شهدت المدينة كارثة الأمطار التي انهمرت عليها أثناء الاحتفال بتلك المناسبة. كما أن الأوضاع السياسية في تلك الفترة لم تشجع على قيام هذه المناسبة بعدها. لتتلاشى وتنسى ذكراها مجدداً. ولكنها لم تنس من ذاكرة الأطفال، فلا زالوا إلى اليوم وهم يمارسون فرحة العيد (البرعة) وهي (أربعة أيام) ولا زالوا إلى اليوم يرددون ذكراها أثناء انصرافهم من احتفال البرعة إلى احتفال الشهداء السبعة:

تالي ليلة في البرعة ❖❖❖ والقـابلـة السَّبعـة

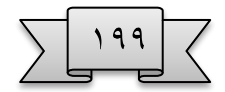
المصادر والمراجع

- ابن الديبع، عبد الرحمن بن علي، الفضل المزيد على بغية المستفيد في اخبار مدينة زبيد؛ تحقيق يوسف شلحد، مركز الدراسات والبحوث اليمني صنعاء، دار العودة بيروت، لبنان، ١٩٨٣م.
- ابن فهد المكي، جار الله بن العز بن نجم، نيل المنى بذيل بلوغ القرى لتكملة اتحاف الورى، تحقيق محمد حبيب الهيلة، مؤسسة الفرقان للتراث الاسلامي، فرع موسوعة مكة المكرمة والمدينة المنورة، ط١، ٢٠٠٠م.
- اندراي، روي فيريرا، الموسوعة البرتغالية، يوم سقطت هرمز، مذكرات القائد البحري روي فيريرا اندرادي، ترجمة د. عيسى أمين، من إصدارات مؤسسة الأيام للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع، المنامة، البحرين، ١٩٩٦م.
- ايفإنوف، نيقولاي، الفتح العثماني للأقطار العربية، ترجمة يوسف عطا الله، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٨م.
- باذيب، د. محمد أبوبكر، إسهامات علماء حضرموت في نشر الإسلام وعلومه في الهند، دار الفتح للدراسات والنشر.
- باسنجلة، عبد الله بن محمد، تاريخ الشحر المسمى العقد الثمين الفاخر في تاريخ القرن العاشر، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط١، ٢٠٠٧م.
- بافضل، محمد بن عوض، صلة الاهل بتدوين ماتفرق من مناقب بني فضل، عني بطبعه ونشره ابن المؤلف علي بن محمد بن عوض بافضل. ط١، ١٤٢٠هـ.
- بافقيه، محمد بن عمر، تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط١، ١٩٩٩م.

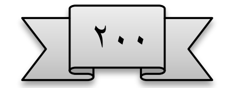
- بافقيه، محمد عبد القادر، تاريخ اليمن القديم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٨٥م.
- باكثير، عبد الصمد، ديوان عبد الصمد باكثير، اشرف واعتنى به الشيخ عبد القادر أحمد باكثير، المكلا، حضرموت، ط١، ٢٠٠٩م.
- بامخرمة، ابي محمد الطيب بن عبدالله، قلادة النحر في وفيات اعيان الدهر، عني به بو جمعه مكري، خالد زواري، دار المنهاج، لبنان، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م.
- بامطرف، محمد عبد القادر،
- الشهداء السبعة، صدر بإشراف وزارة الثقافة والسياحة، جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية بالتعاون مع حكومة الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة، مطبعة الجمهورية، بغداد، ١٩٧٤م.
- المختصر في تاريخ حضرموت العام، دار حضرموت للدراسات والنشر، المكلا، الجمهورية اليمنية، ٢٠٠١م.
- باوزير، سعيد عوض، صفحات من التاريخ الحضرمي، دار الوفاق للدراسات والنشر، الجمهورية اليمنية، عدن، ٢٠١٢م.
- بربروسا، دوارتي، الموسوعة البرتغالية، تاريخ البرتغاليين في الخليج، مذكرات دوارتي بربروسا، ترجمة د. عيسى أمين، من إصدارات مؤسسة الأيام للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع، المنامة، البحرين، ١٩٩٦م.
- البكري، صلاح، تاريخ حضرموت السياسي، ٢ اجزاء، مطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده، مصر، ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م.
- بن حميد، سالم بن محمد بن حميد الكندي، العدة المفيدة الجامعة لتواريخ قديمة وحديثه، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الارشاد، صنعاء، ط١، ٢٠٠٣م.



- بن عقيل، عبد الرحمن جعفر، عمر بامخرمة السيباني، حياته وتصوفه وشعره، دار الفكر، دمشق، ط١، ٢٠٠٠م.
- بن معيلي، نورا سالم حسن، دور المهرة في مقاومة الغزو البرتغالي في القرن السادس عشر الميلادي مع مقدمات تاريخية لما صاحب ذلك من أحداث، مركز اللغة المهرية للدراسات والبحوث، الغيضة، المهرة، ط١، ٢٠٢٢م.
- بوشرب، أحمد، وثائق ودراسات عن الغزو البرتغالي ونتائجه، الناشر دار الأمان، الرباط، ط١، ١٩٩٧م.
- التازي، عبد الهادي، ابن ماجد والبرتغال، ط٣، ٢٠٠٥م.
- تيخسيرا، بيدرو، الموسوعة البرتغالية، تاريخ الخليج والبحر الأحمر في أسفار بيدرو تيخسيرا، ترجمة، د. عيسى أمين، من إصدارات مؤسسة الأيام للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع، المنامة، البحرين، ١٩٩٦م.
- الجابري، د. رزق سعد الله، الحضارم في شرق افريقيا، دار حضرموت للدراسات والنشر، المكلا، ط١، ٢٠١١م.
- الجدحي، سعد بن سالم، تاريخ المهرة المسمى التطواف حول تواريخ ومشاهير بلاد الاحقاف، دار المستقبل للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٣م.
- الجزيري، عبد القادر بن محمد، الدرر الفرائد المنظمة في اخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تحقيق محمد حسن اسماعيل، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ١، ٢٠٠٢م.
- الجعيدي، عبد الله سعيد،
- الأوضاع الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية في حضرموت، دار الوفاق للدراسات والنشر، عدن، الجمهورية اليمنية، ط١، ٢٠١٠م
- السلطنة الكثيرية الأولى في حضرموت، تريم للدراسات والنشر، الجمهورية اليمنية، ط١، ٢٠١٤م.



- حداد، عبد الله صالح،
- رجال الشحر في شرق افريقيا من خلال ادبهم الشعبي، دار حضرموت للدراسات والنشر، ١، ٢٠١٦م.
- معجم شعراء العامية الحضارمة، اصدار مركز حضرموت للدراسات الاستراتيجية والتوثيق والنشر، حضرموت، ط١، ٢٠١٦م.
- الحداد، علوي بن طاهر، الشامل في تاريخ حضرموت ومخاليفها، طبع بسنغافورا عام ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م.
- الحسني، عبد الحي بن فخر الدين، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسمى بنزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، ٨ اجزاء، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٩م.
- حنظل، فالح، العرب والبرتغال في التاريخ، منشورات المجمع الثقافي، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، ط١، ١٩٩٧م.
- خليل، د. محمد محمود، وثائق بحرية عن قبودان السويس والدور العثماني في مواجهة البرتغاليين، نسخة الكترونية من دون اية بيانات أخرى.
- الخوري، ابراهيم واخرون، سلطنة هرمز العربية، مركز الدراسات والوثائق، رأس الخيمة، الامارات العربية المتحدة، ١، ٢٠٠٠م.
- دا البوكيرك، السجل الكامل لأعمال الفونسو دا لبوكيرك. ترجمة د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ. إصدارات المجمع الثقافي (٣ -٤/٤٥٦ -٤٦٨).
- دراج، أحمد، المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦١م.
- الدرورة، علي إبراهيم، تاريخ الاحتلال البرتغالي للقطيف، إصدارات المجمع الثقافي، أبوظبي، الامارات العربية المتحدة، ٢٠٠٢م.



- دهمان، محمد أحمد، معجم الالفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٠م.
- سالم، سيد مصطفى، البحر الأحمر والجزر اليمنية، تاريخ وقضية، دار الميثاق للنشر والتوزيع، صنعاء، الجمهورية اليمنية، ط١، ٢٠٠٦م.
- سانتوس، دوز، يوميات رحلة فاسكو داجاما، وتقرير رحلة دوز سانتوس، ترجمة ودراسة د. الشيخ، عبدالرحمن عبد الله، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥م.
- السكوتي، أنور حسن، المختصر في تاريخ مدينة الشحر العام، مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر، توزيع دار الوفاق للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية ط١، ٢٠٢١م.
- السلمان، محمد حميد، الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج في الفترة ما بين ١٥٠٧ – ١٥٢٥م، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٠م.
- الشاطري، محمد أحمد، ادوار التاريخ الحضرمي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٨٣م.
- الشامسي، أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني في القرن السادس عشر، مركز الدراسات والوثائق، رأس الخيمة، الإمارات العربية المتحدة، ط٢، ٢٠١٣م.
- شرف الدين، عيسى لطف الله، روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح، مؤسسة عبادي للدراسات والنشر، ط١، ٢٠٠٣م.
- الشلي، محمد، السناء الباهر بتكميل النور السافر، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الارشاد، صنعاء، ط١، ٢٠٠٤م.

- شنبل، أحمد بن عبد الله ، تاريخ حضرموت المعروف بتاريخ شنبل، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، الناشر مكتبة صنعاء الاثرية، ط٢، ٢٠٠٣م.
- شهاب، حسن صالح،
- أحمد ابن ماجد والملاحة في المحيط الهندي، مركز الدراسات والوثائق، رأس الخيمة، الامارات العربية المتحدة، ط٢، ٢٠٠١م.
- تاريخ بحرية عمان التقليدية، حقوق الطبع لوزارة التراث القومي والثقافة، مسقط، سلطنة عمان، ط١، ٢٠٠١م.
- عبادة، عبد الفتاح، سفن الأسطول الاسلامي وانواعها ومعداتها في الاسلام، مطبعة الهلال، مصر، ١٩١٣م.
- عبد العليم، انور، الملاحة وعلوم البحارعند العرب، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة العدد ١٣، يناير ١٩٧٩م.
- العلوي، محمد بن هاشم، تاريخ الدولة الكثيرية، تريم للدراسات والنشر، حضرموت، الجمهورية اليمنية، ط١، ٢٠٠٢م.
- العيدروس، عبد القادر بن شيخ، النور السافر عن اخبار القرن العاشر، تحقيق أحمد حالو واخرين، دار صادر بيروت، ط١، ٢٠٠١م.
- العيدروس، محمد حسن، سقوط الحكم البرتغالي في الجنوب العربي، دار المتنبي للطباعة والنشر، ط١، الإمارات العربية المتحدة، ١٩٩٧م.
- فرانتسوزوف، سرجيس، تاريخ حضرموت الإجتماعي والسياسي قبيل الإسلام وبعده، تقديم وتعريب د. عبد العزيز جعفر بن عقيل، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية، صنعاء، ط١، ٢٠٠٤م.
- قاسم، جمال زكريا، الخليج العربي، دراسة لتاريخ الامارات العربية في عصر التوسع الاوربي الاول، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر.

- الكاف، سقاف علي، حضرموت عبر أربعة عشر قرنا، مكتبة أسامة، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.
- لقمان، حمزة علي،
- تاريخ الجزر اليمنية، المكتبة التاريخية اليمنية.
- تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٨م.
- مجموعة مؤلفين، الموسوعة العربية العالمية، الناشر مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ٣٠ جزء، ط٢، ١٩٩٩م.
- المعبري المليباري، أحمد زين الدين، تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين، تقديم وتحقيق وتعليق محمد سعيد الطريحي، مؤسسة الوفاء.، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٥م.
- الملاحي، عبد الرحمن عبد الكريم،
- ملامح من التداخل المعرفي بين ربابنة اليمن وعمان، الناشر وزارة التراث والثقافة، عمان، ط١، ٢٠٠٦م.
- الحضارم في ممباسا ودار السلام، دار حضرموت، المكلا، ١، ٢٠٠٤م.
- النهروالي، قطب الدين محمد بن أحمد، البرق اليماني في الفتح العثماني، اشرف على طبعه حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٩٦٧م.
- هول، ريتشارد، امبراطوريات الرياح الموسمية، ترجمة كامل يوسف حسين، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، ط١، ١٩٩٩م.

الأبحاث والدراسات:

- التاجر، علي، الربان أحمد بن ماجد، دفاع وتقييم، مجلة العرب، السنة الخامسة، الجزء الثالث، ص٢٩٤.
- الجعيدي، عبد الله سعيد، البرتغاليون في مصادر القرن العاشر الهجري – السادس عشر الميلادي. مجلة حضرموت الثقافية، العدد ٨، ابريل يونيو ٢٠١٨م ص٩ - ١٣.
- الخالدي، عمر، نتائج هجرة الحضارمة إلى الهند. الوجود العربي في حيدر آباد، مجلة الدارة، العدد ٣، السنة ١٠، ربيع الثاني ١٤٠٥هـ.
- الخالدي، عمر، عرب حضرموت في حيدر اباد، ترجمة، جمال محمود حامد، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، جامعة الكويت العدد ٤٥، ربيع الثاني، ١٤٠٦هـ.
- موسى، محمد علي، ترجمة البرتغاليون قبالة ساحل جنوب بلاد العرب، روبرت سارجنت، مجلة اليمن العدد ٢٦ ، ذو القعدة ١٤٢٨هـ/ نوفمبر ٢٠٠٧م، مركز البحوث والدراسات اليمنية.، جامعة عدن.
- الهاشمي، سعيد بن محمد بن سعيد، المواجهة بين العثمانيين والبرتغاليين في المياه العمانية، مجلة كان التاريخية، السنة الحادية عشرة، العدد ٣٩، مارس ٢٠١٨م.

فهرس المحتويات

